مقاصد التوحيد

د. وليد عبد الرحمن الحمدان

عضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٠

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اللهم إني أطعتك في أحبِّ الأشياء إليك،
وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك،
وهو الكفر، فاغفر لي ما بينهما»

سيرة عمر بن عبد العزيز
لابن الجوزي (١٦٦)

مقاصد التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

المُحتَوَيات

الموضوع	الصفحة
مقدمات	
التوحيد	١١
الإيمان	٩٣
أصول المقاصد	
الطاعة	١٢٩
العبادة	١٤٦
المحبة	١٦٦
الخوف والرجاء	١٨٤
الدعاء	١٩٧
التوكل	٢٠٨
فروع	
الذبح	٢١٧
النذر	٢٢٣
التوسل	٢٢٨
الشفاعة	٢٣٧

الموضوع	الصفحة
أصول النواقض	
الشرك	٢٥٩
الكفر	٢٧٢
الإلحاد	٣٣٣
فـروع	
السحر	٣٥١
العرافة والكهانة	٣٦١
التنجيم	٣٦٨
الوسائل والقوادح	
شرك الرياء	٣٧٥
إرادة الإنسان بعمله الدنيا	٣٨١
التبرك الشركي والبدعي	٣٩٢
شرك الأسباب	٤٠٠
شرك الألفاظ والأيمان	٤١١
الغلو	٤١٧
من وسائل الشرك والكفر	٤٢٣
خاتمة	
الأدب مع الله ﷻ في القول والعمل	٤٣٧

بين يدي الكتاب

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم، وأصلي وأسلم علىٰ إمام الحنفاء وعلم الموحدين، نبي الرحمة ومعلم البشرية صلوات الله وسلامه عليه، أكمل الله به الدين، ورفع به لواء الملة، وأقام به الحجة، وترك أمته علىٰ المحجة بيضاء ليلها كنهارها، وعلىٰ أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد:

فإن إخلاص الدين لله محبةً وتعظيمًا وذلًّا هو غاية الخلق والخليقة، ولا يتحقق إلا بالتوحيد، ليكونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ فلا نجاة للعبد بعد الممات، ولا أمن له في الحياة إلا بالتوحيد، وإنَّما نالَ إبراهيمُ عليه السلام مقام إمام الحُنفَاء، وخليل الرحمن، لأنه كان أمَّةً قانتًا لله حنيفًا، ولم يك من المشركين.

وهذا الكتاب يتحدث:

عن أصول التوحيد ومقاصده في بناء الإيمان وترسيخ اليقين وتعظيم الباري جل وعلا.

وعن مقاصده في منازل العبودية ومعانيها، وأصولها ومبانيها.

وعن مقاصده في التحذير من نواقضه وقوادحه، وما يهدم الإيمان ويبطله، ويطفئ نور الفطرة وجذوتها، ويحرف العبودية عن فطرتها.

وعن مقاصده في نقض الكفر ونبذ الشرك وحماية التوحيد من لوثة الإلحاد، والوعي من الغفلة عن مسالك البدعة وطرق الضلالة.

ومقاصده هي مراميه العظام، ومعانيه الكبار، التي تجتمع فيها أطرافه، وتنتظم فيها أغصانه، ومنها: تعظيم الباري جل وعلا والتأله له ومحبته والثناء عليه وتمجيده بأسمائه وصفاته، وتحقيق العبودية له وحده لاشريك له، والإيمان به وطاعته وإخلاص العمل له والقيام بذكره وشكره وحسن عبادته.

ويجلي لنا القرآن مقاصد التوحيد والإيمان في أعظم بيان وأوضح تبيان وأسمىٰ عنوان، في آي يوقفك علىٰ معنىٰ عظيم الدلالة، بكلماته الجامعة، التي يعجز اللسان أن يحيط بها بيانًا، فضلًا عن أن يجاريه، أو يدانيه قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

فقف مع هذا البيان، وكن من أهله وأربابه، وسعاته وطلابه:

وهذه المقاصد والمعاني تناولها الكتاب في مقدمات، وأصول وفروع، ووسائل ومسائل، وتقسيمات وتهذيبات، جمعت ما تفرق في أبواب التوحيد والإيمان، اجتهدت في ترتيبها وسياقها وتقاسيمها بما أراه مناسبا ويقرب المعنىٰ لدىٰ القارئ.

واستفدت جلَّها من مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وابن كثير، وابن رجب، وابن أبي العز الحنفي، وأئمة الدعوة كالشيخ سليمان بن عبد الله، والشيخ عبد الرحمن ابن سعدي، ووضعت فيه معاني استفدتها من مشايخي الفضلاء الشيخ عبد العزيز

بن عبد الله ابن باز، والشيخ محمد بن صالح ابن عثيمين، والشيخ عبد الرحمن البراك وغيرهم، جزاهم الله عن الأمة خيرًا، ووسمته بـ:

«مقاصد التوحيد»

وأحاديثه صالحة للاحتجاج إن شاء الله، إلا ما أشرت إلىٰ ضعفه، وقد استشهدت بأحاديث نبهت علىٰ ضعفها، وضعفها محتمل وتصلح في الشواهد.

أسأل الله أن ينير به دروب السالكين ويفتح به أبواب الحق للطالبين،

فـ «الإعانة علىٰ الطاعات من أفضل الوسائل عند الله . . .

والإعانة علىٰ معرفة الله ومعرفة ذاته وصفاته أفضل الإعانات»، ابن عبد السلام في «قواعده» (١/ ١١٠)

والله الهادي والموفق والمعين . . .

✍ **د. وليد الحمدان**

التوحيد

- ١ -

الله جل جلاله

هو الاسم الخالد الباقي الأزلي،

الاسم الذي تلهج به الألسن وتحبه القلوب وتخضع له النفوس،

الاسم الذي يذكره الذاكرون ويتوجه إليه المؤمنون،

في صلاتهم، ودعائهم، وحبهم، وإخباتهم

تناديه الفطر، وتصمد له الخلائق والبشر،

تسعد بذكره القلوب، وتستنير بنوره الدروب،

تُستنزل به البركات، وتجاب الدعوات، وتقال العثرات،

الله: علم علىٰ الرب تبارك وتعالىٰ، هو الاسم وهو المسمىٰ،

يحبه المحبون لذاته، وما سواه يحب لغيره،

ما تعلق به فقيرٌ إلا أغناه، ولا ضعيفٌ إلا قوَّاه،

ولا مضطرٌ إلا كشف ضرَّه، ولا مغلوب إلا بحوله وقوته نصره وأيَّده،

الذي خلق الكون فسواه، وأبدع الخلق وهداه،

«لا أُحصِي ثَنَاءً عليكَ أنت كَمَا أثنَيتَ عَلىٰ نَفسِكَ». رواه مسلم

الله: من أَلَهَ: إذا تعبَّد، وأصله (الإله) وهو المعبود، ذو الألوهية والربوبية، حذفت همزة (الإله) فالتقت اللام مع اللام فأُدغِمت إحداهما في الأخرىٰ فصارا في اللفظ لامًا واحدةً مشدَّدةً، وفُخِّمت تعظيمًا،

توصف به جميع صفات الربوبية ولا يوصف بها

روىٰ ابن جرير في تفسيره (١/ ٨٢): قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: اللهُ ذو الألوهيةِ والعبوديةِ علىٰ خلقه أجمعين.

- ٢ -

هو الأول والآخر

قال الله عز وجل ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ، وَأَنتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ**»، الحديث رواه مسلم.

وعَن عِمرَانَ بنِ حُصَينٍ رضي الله عنهما قال: دَخَلتُ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَعَقلت نَاقَتِي بِالبَابِ، وفيه: ثُمَّ دَخَلَ عَلَيهِ نَاسٌ مِن أَهلِ اليَمَنِ، وفيه: قالوا: جِئنَاكَ نَسأَلُكَ عَن هَذَا الأَمرِ. قال: «**كَانَ الله وَلَم يَكُن شَيءٌ غَيرُهُ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شَيءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ**

وَالأرضَ». وفي رواية: فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ يُحدِّثُ بَدءَ الخَلقِ وَالعَرشِ . . .
وفي رواية: قال: «**كَانَ الله وَلَم يَكُن شَيءٌ قَبلَهُ، وَكَانَ عَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأرضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكرِ كُلَّ شَيءٍ**» رواه البخاري.

وعن عُبَادَةَ بنِ الصامت قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**». رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٣٣١٩).

وعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبلَ أَن يَخلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضَ بِخَمسِينَ أَلفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرشُهُ عَلَىٰ المَاءِ**». رواه مسلم.

وعن أبي رَزِين رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: أينَ كَانَ ربُّنَا قبلَ أن يخلُقَ خلقَهُ؟ قال: «**كانَ في عَمَاءٍ، ما تحتَهُ هَوَاءٌ، وما فَوقَهُ هَوَاءٌ، وخَلَقَ عَرشَهُ علىٰ المَاءِ**». رواه الترمذي (٣١٠٩) وابن ماجه (١٨٢)، ولفظه عند ابن ماجه وأحمد (٤/ ١٢): «**ثُمَّ خَلَقَ عَرشَهُ علىٰ المَاءِ**». قال الترمذي: هذا حديث حسن، قال: قال أحمد: قال يزيد -بن هارون-: العَمَاء: أي ليس معه شيء اهـ والحديث فيه ضعف.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: مِمَّ خُلِقَ الخَلقُ؟ قال: «**مِنَ المَاءِ**». رواه الترمذي (٢٥٢٥). وقال: هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وليس هو عندي بمتصل اهـ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن الله تبارك وتعالىٰ كان عرشه علىٰ الماء ولم يخلق شيئا غير ما خَلَقَ قبل الماء. وعنه قال: إنَّ أوَّل المخلوقات المَاء[1].

فالله سبحانه وتعالى هو الأولُ فليس قبله شيء، له الحياة المطلقة الكاملة، وكل ما سِوَاهُ مخلوق، وهو الخالق، وأولُ خَلقِ الله هو الماء ثم العرش ثم القلم ثم اللوح المحفوظ ثم بقية المخلوقات.

وهو سبحانه الآخِرُ فليس بعده شئ، قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ فهو الباقي بعد فناء الخلق.

عن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**يَقبِضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الأَرضَ يومَ القِيَامَةِ، وَيَطوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ؛ أَينَ مُلُوكُ الأَرضِ؟**» متفق عليه، وذلك عند فناء الخلق.

وعن عَبدِ الله بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ حَبرٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَو يَا أَبَا القَاسِمِ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُمسِكُ السَّمَاوَاتِ يَومَ القِيَامَةِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَىٰ إِصبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الحَبرُ تَصدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. متفق عليه.

---

(١) انظر: «البداية والنهاية» (١/ ١٤) ط. دار هجر، و«تاريخ الطبري» (١/ ٣٩).

- ٣ -

توحيد الباري جل وعلا

التَّوحِيدُ مَصْدَرُ وَحَّدَ يُوحِّد توحِيدًا؛ أي جَعَلَهُ واحدًا، والوَاحِدُ هو الفَرْدُ[(١)]، وَوَحَّدتُهُ: أَفْرَدْتُهُ، فالتوحيد هو الإفْرَادُ.

والتوحيد: هو الإيمان بالله وحده لا شريك له[(٢)].

وهو الإيمان: بأن الله هو المُتَفَرِّدُ بالربوبية والألوهية والأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، فهو سبحانه واحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ندّ له ولا شريك له[(٣)].

وهذا هو معناه الذي لا يصحّ التوحيد إلا به، **وضد التوحيد الشرك**، والإسلام مبني علىٰ تحقيق التوحيد، فهو: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، والبراءة منه ومن أهله، قال جل شأنه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

---

(١) ينظر: «النهاية» لابن الأثير (٥/ ١٥٩) ط. دار الفكر، و«لسان العرب» لابن منظور (٣/ ٤٥٠-٤٥١) ط. دار الفكر.

(٢) ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٤٥٠).

(٣) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» لسليمان بن عبد الله (٣٢-٣٣) ط. مكتبة العلوم والحكم. و«القول السديد» لابن سعدي (١٠-١١).

- ٤ -

من أدلة التوحيد

١- سورة الإخلاص؛ التي تعدل ثلث القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ولايقال (أحد) مرادفًا لـ (واحد) إلا في اسم الباري تعالىٰ، لاختصاصه بالأحدية فلايشركه غيره، فلا يقال: رجل أحد[1].

٢- ما رواه ابنُ عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُني الإسلام علىٰ خمس: علىٰ أن يوحّد الله ...**» الحديث متفق عليه وهذا اللفظ لمسلم.

٣- عن طارق بن أَشيَم عن النبيِّ ﷺ قال: «**من وحّد اللهَ، وكَفَرَ بما يُعبَدُ من دون الله، حَرُم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله**». خرّجه مسلم

٤- وفي حديث أبي أُمامة رضي الله عنه عن عمرو بن عَبَسَةَ السُّلمي رضي الله عنه؛ وفيه: قال ﷺ: «**أرسلني بصِلَةِ الأرحَامِ، وكسرِ الأوثَانِ، وأن يُوحَّد اللهُ لا يُشركُ به شيءٌ**». رواه مسلم.

---

(١) ينظر: «المصباح المنير» (٢/ ٦٥٠) مادة (وحد).

٥- قال ابنُ عباسٍ ﵄: كلُّ ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد. ذكره البغوي في تفسيره[(١)] ..

٦- كل ما جاء في القرآن والسنة من الأمر بالعبادة وإخلاص الدين لله ودعائه وحده وابتغاء وجهه وعدم الإشراك به فهو دَالٌّ علىٰ التوحيد، وكلُّ ما جاء من ذكر أفعاله ﷻ وبيان أسمائه وصفاته، وبيان تدبيره وتصرفه وملكه ومنعه وعطائه وخلقه وأمره فهو دَالٌّ علىٰ التوحيد، وكل ما جاء في ذكر قَصَصِ الموحِّدين من الأنبياء والمرسلين وأَتباع الرسل من الصديقين والصالحين وحكاية مواقفهم مع المشركين وثباتهم فهو دَالٌّ علىٰ التوحيد، فمن أعظم مقاصد الرسل والكتب -بل هو المقصود الأعظم- توحيد الله ﷻ وحده لا شريك له وإفراده بالعبادة:

- قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾.

- وقال تعالىٰ عن قول الرسل لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

- وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

- وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

- وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾.

- وقال: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

---

(١) «تفسير البغوي» سورة البقرة آية (٢١)

- ٥ -

أنواع التوحيد

وأنواع التوحيد ثلاثة، وهي باستقراء أهل العلم للكتاب والسنة ما يلي:

أولًا: توحيد الألوهية: وهو الإيمان بأن الله هو المألوه أي المعبود وحده لا شريك له، والإيمان إقرار وإذعان، فيقرُّ العبد بألوهية الله وحده ويُذعِنُ له بالعبادة والتألُّهِ. والتأله هو التعبد لله تعالىٰ والقيام بطاعته، ويطلق عليه: توحيد العبادة.

والعبادة هي: المحبة والذل والخضوع الذي يجمع الخوف والرجاء.

والطاعة هي: التسليم لله تعالىٰ والموافقة في الأمر والنهي والحلال والحرام.

ثانيًا: توحيد الربوبية: وهو الإيمان بأن الله هو الرب الخالق المالك المُدَبِّرُ المُصَرِّفُ للأمورِ وحده لا شريك له، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾.

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات: وهو الإيمان بأن الله له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، وحده لا شريك له.

وبعضهم عبّر عن هذه الأنواع بلفظ مقارب، فذكرها في نوعين:

(١) توحيد المعرفة والإثبات، أو التوحيد العلمي الخبري.

(٢) توحيد الإرادة والقصد والعمل، أو توحيد النية والإرادة والطلب.

قال تعالىٰ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾، فجمعت هذه الآية أنواع التوحيد الثلاثة.

والحديث عن التوحيد هو حديث عن الإيمان، فإن التوحيد هو إيمانٌ بهذه الأصول وإفرادٌ لله تعالىٰ بها.

- ٦ -

توحيد الربوبية

■ **النوع الأول**: توحيد الربوبية: وهو الإيمان بأن الله هو المتفرد بأفعال الربوبية كالخلق والملك والتدبير وغير ذلك، أو هو إفراد الله بأفعاله.

ومن ذلك: أن الله هو الذي يملك النفع والضر، وهو الذي يعطي ويمنع، فهو مسبب الأسباب وخالقها والذي أودع فيها القوىٰ، فلا تضر ولا تنفع إلا بمشيئته تعالىٰ، فإذا استعان العبد فإنما يستعين بالله وحده.

والله سبحانه هو المحيي، المميت، الرازق، يجيب دعوة الداعي، له المشيئة النافذة، والإرادة المطلقة، إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون، وهو سبحانه يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، إلىٰ غير ذلك من أفعاله ونعوت جلاله، الدَّالة علىٰ ربوبيته.

والربوبية مأخوذة من الربّ، والربّ هو: السَّيِّدُ المُصْلِحُ، والمُرَبِّي؛

مأخوذ من التربية وهي: إنشاء الشيء حَالًا فَحَالًا إلىٰ حَدِّ التَّمَام[1].

والربُّ هو الله وحده لاشريك له، فهو رَبُّ العالمين، المالك المتصرِّف القائمُ بشأن خلقه، يدبرهم ويصرفهم ويتولىٰ أمرهم ومصالحهم، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۗ﴾، فهو جلَّ شأنه القائمُ علىٰ كل نفس بما كسبت؛ أي حافظها ورازقها وعالم بها ومجازيها بما عملت، ومن أسمائه سبحانه: «القيوم».

▪ ولا يجوز إطلاق اسم «الرَّبّ» علىٰ أحد سوىٰ الله ﷻ، إلا علىٰ وجه الإضافة، كربِّ البيت وربِّ المال، فالله جل وعلا له الربوبية المطلقة، وكل خلقه مربوبٌ له.

ومن أدلة الربوبية:

(١) قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ﴾.

(٢) وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

(٣) وقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ﴾.

(٤) وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

(٥) وقال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

---

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (١٨٤) مادة (رب).

(٦) قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

(٧) وقال: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

(٨) وقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

(٩) وقال: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾.

ويتبين من أدلة توحيد الربوبية أنه يستلزم توحيد الألوهية، وأنه يستدل بالربوبية علىٰ الألوهية.

ومن الأدلة علىٰ توحيد الربوبية:

الأدلة العقلية التي جاء بيانها في الكتاب والسنة:

كقوله تعالىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾. فلا يصح عند أحد من العقلاء إثبات خالقين صانعين يتصرفان في الخلق في وقت واحد.

ولم يَدَّعِ الربوبية أحدٌ من بني آدم أو ينكر ربوبية الله تعالىٰ إلا أفراد قليلون كفرعون والنمرود وكالملاحدة الدهريين الذين ينكرون وجود الله، إلا أنه في القرون المتأخرة ظهر الإلحاد وانتشر، حيث سُطِّرت فيه نظريات، ومَكَّنَت له منظمات، رعتها أيدٍ يهودية ومنظمات صهيونية ماسونية، فصنعتها في فكر ماركسي أو معتقد شيوعي أومبدأ ليبرالي(١)، وكان لظهور العلمانية اللا دينية أثر ظاهر في انسلاخ الشعوب من أديانها.

---

(١) راجع: «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة»: (١/٤٩٨) الندوة العالمية للشباب الإسلامي.

ولم يقل أحد إن للعالم خالقًا سوىٰ الله جل شأنه، إلا ما ذهب إليه بعض المشركين كالمجوس الثنوية في النور والظلمة، والفلاسفة الدهريين في حركة الأفلاك والنفوس، فيزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوىٰ النفس أو الحركات الفلكية أو القوىٰ الطبيعية.

- ٧ -

توحيد الألوهية

■ النوع الثاني: توحيد الألوهية:

وهو: الإيمان بأن الله تعالىٰ هو المتفرد بالعبادة والطاعة، أو هو إفراده بالعبادة والطاعة.

والألوهية من الإله، والإله من أَلَهَ يَأْلَه أُلُوهَةً وإلاهةً، أي: عَبَدَ عِبَادةً، والتَّأَلُّه: التعبُّد والتنسُّك. قال ابن عباس -في قراءة- في قوله تعالىٰ: (ويذرك وإلاهتك)، قال: عبادتك[1].

ومعنىٰ هذا التوحيد: أن تخلص العبادة لله وحده فلا تشرك معه أحدًا، وتخلص التأله والتعبد لله تعالىٰ ظاهرًا وباطنًا، فلا تصرف أي نوع من العبادة لغير الله، فمن العبادات الباطنة: الذل والخضوع المتضمن للخوف والرجاء والصبر والرضا، وكذا المحبة والتوكل والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والإنابة وغيرها.

(١) «تفسير ابن جرير» (١/ ٨٢) ط. دار الكتب العلمية.

ومن الظاهرة: الصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلىٰ الخلق وغيرها.

قال ابن جرير: والذي أراد ابن عباس -إن شاء الله- بقوله في تأويل قوله ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وَحِّدوه، أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه اهـ[(١)].

وإفراد الله تعالىٰ بالطاعة هو من توحيد الألوهية، إذْ الطاعة من أفعال العباد، وهو أيضًا من توحيد الربوبية لأن الطاعة أن تؤمن بتفرد الله تعالىٰ في الحكم، فالله سبحانه هو الحاكم وله الحكم، والحكم يكون شرعيًا ويكون كونيًا، وهو من ربوبيته تعالىٰ، قال جل شأنه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾[(٢)]. فلايطاع أحد من البشر كطاعة الله، ولا يكون له حق التشريع والتحليل والتحريم، وإنما ذلك لله وحده لا شريك له.

وتوحيد الألوهية هو مقصود دعوة الرسل، وهو أول دعوتهم وآخرها، فأوّل شيء دعا إليه النبي ﷺ أن قال: قولوا: لا إله إلا الله، اعبدوا الله. وآخر شيء فارق الدنيا عليه قوله ﷺ: «**لَعنةُ اللهِ علىٰ اليهودِ والنَّصَارىٰ اتَّخذُوا قُبورَ أنبيائِهم مَسَاجِدَ**». يحذّر مثل ما صنعوا. متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها.

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١/ ١٩٦).

(٢) ينظر: «القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» لابن عثيمين (١/ ١٥٤-١٥٥)

وهو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وهو معنىٰ شهادة التوحيد: لا إله إلا الله، فالله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم، فلأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وافترق الناس إلىٰ مؤمن وكافر، وشقي وسعيد، وهو الغاية التي خلق الله لها العباد والجن والإنس وسخر الله لهم مافي السموات وما في الأرض، ومن حقَّقَ هذا التوحيد فقد حقَّقَ توحيد الربوبية، وحقَّق التوحيد الذي أمر الله به عباده.

فإن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية كما أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١- قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾. وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن كثير: ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره اهـ[1].

٢- وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

٣- وقال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٥٧) ط. دار المعرفة.

٤- وقال تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾.

٥- وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾.

٦- وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

٧- وقال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه لما بعثه إلىٰ اليمن: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله**» متفق عليه عن ابن عباس.

٨- وقال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة . . .**» الحديث، متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنه.

وضد التوحيد الشرك بنوعيه الأصغر والأكبر، فالأكبر مناف لأصل التوحيد، والأصغر منافٍ لكماله وتمامه ومنقصٌ له.

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من التوحيد كل الإفصاح، وأبدأ فيه وأعاد، وبيّنه غاية البيان، وضرب لذلك الأمثال، وقص في بيانه القصص، فلا تكاد تخلو سورة من سور القرآن إلا وفيها دلالة علىٰ هذا التوحيد، فمن ذلك:

١- أن يقرّر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وذلك يستلزم أن يُعبد وحده فلا يكفر، ويشكر فلا ينكر، فمن يضرك وينفعك ويعطيك ويمنعك ويخلقك ويرزقك هو المستحقُّ للعبادة، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ... الآيات يقول في ختام كل آية: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

٢- ما ضربه الله تعالىٰ من المثل لمن يعبد إلهًا واحدًا، كيف يطمئن ويسكن إليه، ومن يعبد آلهة متعددة كيف يضطرب فيها ويضلّ، قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٣- ومن ذلك أن يبين التَّمَانُع في تعدد الآلهة، إذ يقود ذلك إلىٰ الاضطراب والفساد في الكون والأرض، قال تعالىٰ: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾. أي: لاتخذوا سبيلًا إلىٰ مغالبته، استظهره الشنقيطي[١] وذكر أنه مروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وقيل: لابتغوا القرب إليه. ذكره ابن جرير عن قتادة.

٤- أنه سبحانه وتعالى لم يقبل من أولئك المشركين عبادتهم وهم مقيمون علىٰ الشرك فقال: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

٥- ومن ذلك أن يقرر ويبين أنه منهج الرسل في الدعوة إليه، وأن الولاء والبراء معقود من أجله، كما قال عن إبراهيم عليه السلام ومن

---

(١) ينظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٣/ ٥٤٠).

معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾.

٦- أن يبين حال عبدة الأصنام وعظيم منكرهم وما هم فيه من الشرك، وأن ذلك يضاد الدين الخالص، ولو زعموا أنهم شفعاء ما داموا مقيمين علىٰ عبادتهم، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾.

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وقد وُرِثَت هذه الأصنام وتتابع عليها الشرك، فقد جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صَارَت الأوثَانُ الَّتِي كَانَت فِي قَوم نُوح فِي العَرَبِ بَعدُ . . . قال: أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَوم نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أوحَىٰ الشَّيطَانُ إِلَىٰ قَومِهِم أَن انصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ أَنصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم، فَفَعَلُوا، فَلَم تُعبَد حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلمُ عُبِدَت.

وقد روىٰ ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير؛ قال: اشتكىٰ آدمُ عليه السلام وعنده بنوه وَدٌّ ويغوث ويعوق وسواع ونسر، وكان وَدٌّ أكبرَهم وأبرَّهم به[(١)].

(١) «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٢٦٣) ط. دار الفكر.

وتتجدد الآلهة وتتنوع الأصنام وتتعدد المعبودات، وأكثر ما يعبد من دون الله في هذه الأزمان هو الهوىٰ والشهوات والأموال.

٧- وجاء في السنة التحذير من كل ما يصرف العبادة عن طريقها الصحيح وصراطها المستقيم، والأمر بسدّ الطرق المؤدية إلىٰ الشرك، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة.

فمن أقرّ بتوحيد الربوبية غاية الإقرار، فلا بدَّ وأن يُقِرَّ بتوحيد الألوهية ويعبد الله مخلصًا له الدين ويتوجه بوجهه إلىٰ ربه ومولاه، ولابدَّ أن يتبرأ من المعبودات سوىٰ الله، وإلا كان مشركًا من جنس المشركين الذين دعاهم الرسول ﷺ وأصحابه وتبرأوا من معبوداتهم وقاتلوهم علىٰ ذلك، وذلك لأمور:

١- أن حقيقة دعوة الرسل هي الدعوة إلىٰ توحيد الألوهية، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، وقال تعالىٰ عن الرسل فيما يدعون إليه أقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾. ولهذا لما دعت الرسل أقوامها وأمرتهم بتوحيد الله رب العالمين في عبادته، أنكر المشركون دعوتهم لهم إلىٰ معبود واحد، وعابوا عليهم تسفيه آلهتهم، كما قال الله عزوجل عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾، وإلا لو اكتفىٰ الرسل بقولهم إن الخالق واحد والرازق واحد لما افتاتوا عليهم وتمالأوا وتولوا واستكبروا.

٢- ثم إنه لم تكن أمم الكفر التي أُرسِلَ إليها الرسل تعتقد أن للكون خالقين أو مدبرين لهما التدبير المطلق، وقريش التي قاتلها النبي ﷺ تُقرّ -كما في الآيات- أن الله هو الخالق الرازق المحيي

المميت، ولم يشفع ذلك لها، بل قاتلها النبي ﷺ من أجل كفرها.

٣- أن هذا هو معنىٰ «لا إله إلا الله»، أي: لا معبود بحق إلا الله. كما سيأتي.

٤- وعن مجاهد عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ قال: إيمانهم قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره، رواه ابن جرير (٧/ ٣١٢) وروىٰ عن ابن عباس وعكرمة وقتادة نحوه.

٥- أن الكفار كانوا يعرفون الله ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره وكانوا يعبدونه ويخلصون له أنواعًا من العبادة وقت الاضطرار، ومع ذلك لم يقبل الله ﷻ منهم بل سمّاهم المشركين والكافرين.

ومنهم من كان عنده شيء من التصديق بالقدر والحساب.

كما يقول طرَفَةُ بن العبد في معلقته:

٨١- فلو شاء ربي كنت قيس بن عامر
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد

ويقول زهير بن أبي سلمىٰ في معلقته:

٢٨- يؤخر فيوضع في كتاب فيدَّخر
ليوم الحساب أو يعجِّل فينقِم

إلىٰ غير ذلك مما يوجد عندهم من معاني الإيمان؛ وفي شعر أمية ابن أبي الصَّلتِ مايفوق ذلك بكثير، ومع ذلك قاتلهم النبي ﷺ ولم يجعل لدمائهم وأموالهم عصمة، ولم ير فيما آمنوا به ما يفي بتوحيد الله تعالىٰ حقًّا.

- ٨ -

توحيد الأسماء والصفات

■ النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات

وهو الإيمان بأن الله هو المتفرِّد بالأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، أو هو إفراد الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته.

وذلك يتضمن أمرين:

■ أولًا: إثبات ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات، ونفي مانفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ. والسكوت عما سكت عنه.

لأن أسماء الله وصفاته توقيفية، فيجب إثبات ما جاء به الدليل، ولا نقول علىٰ الله ما لم يقله، ولا نخوض في صفات الله وأسمائه بغير علم، قال البغوي: أسماء الله تعالىٰ علىٰ التوقيف، فيسمىٰ جوادًا ولايسمىٰ سخيًا وإن كان في معنىٰ الجواد، ويسمىٰ رحيمًا ولا يسمىٰ رفيقًا، ويسمىٰ عالمًا ولا يسمىٰ عاقلًا اهـ[1].

---

(١) «تفسير البغوي» سورة الأعراف آيه (١٨٠). أما «الرفيق»، فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ قال: «**إن الله رفيق يحب الرفق**». وقد ذكره ابن القيم في أسمائه، «شرح نونية ابن القيم» محمد خليل هراس (٢/ ٩٣) ط. مكتبة الباز مع أنه قال في «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٨): ومن صفات الإحسان: البَرُّ الرحيمُ الودودُ، دون: الرفيق الشفوق اهـ.

بل نثبت الصفة والاسم علىٰ الوجه الذي أثبته الله، ونعلم معناها؛ لأن الله ﷻ أنزل كتابه بلسان عربي مبين مفهوم معلوم، ولكن الله تعالىٰ حجب عن عباده معرفة كيفية الصفات، كما أنه حجب عنهم معرفة كنه ذاته سبحانه، **والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات.**

وما يطلق علىٰ الله تعالىٰ من **باب الإخبار أوسع ممايطلق عليه في باب الأسماء والصفات**، ومن أمثلة ذلك: القديم والشيء وواجب الوجود والموجود والصانع والقائم بنفسه ونحو ذلك كالشخص والذات[(١)]. علىٰ أن يكون هذا الإخبار له دلالةٌ علىٰ معنىٰ لا يدخله مَدحٌ ولا ذَمٌّ، ودلت نصوص الكتاب والسنة عليه في الجملة، إما لفظًا كالشيء والشخص، أو معنى كالقديم والباقي، فقد دلَّ عليهما اسم: الأول، والآخر، وما يُخبَرُ به عنه سبحانه لا يُذكر في أسمائه وصفاته، لأن صفاته صفات كمال فلا يُدعىٰ الله ﷻ به ولا يُستعاذ به ولا يتوسل به ولا يحلف به ولا يُعَبَّد الاسم به، فلا يُقال عبد القديم، ولا عبد الشيء[(٢)].

---

(١) ينظر «بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية» (١-١٦١-١٦٢) ط. دار الكتاب العربي، و«القواعد الكلية» للبريكان (١٦٧) ط. دار الهجرة.

(٢) تشترك أسماء الله وصفاته في الاستعاذة بها والحلف بها، وتختلف في التعبيد والدعاء، فلا يقال: عبد العِزَّة، ولا يقال: يا عزة الله، وإنما يقال: عبد العزيز، ويا عزيز، ينظر «صفات الله ﷻ»، للسقاف (٢١) ط. دار الهجرة.

■ ثانيًا: أن يكون هذا الإثبات خاليًا من:

(١) التمثيل والتكييف: فلا نمثل الله ﷻ أو صفة من صفاته بأحد من خلقه ولا نشبِّهُهُ، ولا نكيِّف صفاته، فلا يقال: كيفيتها كذا وكذا، لأننا لم نر ربنا ﷻ، ولم يذكر لنا كيفية صفاته، ولا ذكر لنا أنها تشبه صفات أحد من مخلوقاته.

(٢) التعطيل والتحريف: فالتعطيل هو إخلاء الكلمة من معناها الصحيح. والتحريف هو التأويل الباطل، وذلك بالانحراف بها والميل بها عن معناها المعروف الظاهر في الشرع أو في اللغة إلىٰ معنىً آخر دون دليل من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، والأصل هو حمل اللفظ علىٰ ما يدل عليه في الشرع واللغة.

ومن التحريف ما ذهب إليه أهل التأويل من أن معنىٰ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾: استولىٰ، أو ﴿يَدَاهُ﴾: أي نعمتاه، أو ﴿كَلَّمَهُۥ﴾ بمعنىٰ جرَّحه بأظفار الحكمة ونحوها.

فيحرفون معناها وينقلونه إلىٰ معنىً آخر ويسمون هذا تأويلًا، وهو تأويل لايصح، إذ ليس لهم علىٰ ذلك دليل صحيح، بل الدليل الشرعي واللغوي يدل علىٰ خلاف ذلك، ويطلقون علىٰ هذا التصرف إرادة المعنىٰ المجازي أو التأويل.

وهذا في الحقيقة تعطيل للمعنىٰ الحقيقي الذي دلت عليه اللغة والشرع، لكونهم عطلوا كلمة (استوىٰ) عن معناها الحقيقي العربي وهو: علا وارتفع. وعطلوا كلمة (كَلَّم) عن معناها الحقيقي والعربي؛ وهو الكلام المتضمن حروفًا وأصواتًا. والأصل حمل كلام الله

ورسوله علىٰ الحقيقة لغويةً كانت أو شرعيةً، إلا إذا قام دليل علىٰ صحة هذا التأويل.

ومما وقع فيه أهل التعطيل أنهم يقعون في التحريف بعد التعطيل، فينفون المعنىٰ الحق، ثم ينقلون دلالة اللفظ إلىٰ معنىً آخر لايدل عليه نص ولا شرع إلا ما قالوا: إنهم يريدون به التنزيه ولايريدون الوقوع في التشبيه، وقد وقعوا في أسوأ مما زعموا تنزيه الله تعالىٰ عنه، حيث عطلوا وحرفوا وأتوا بمعنىً ينزه الله تعالىٰ عنه، كقولهم (استوىٰ) معناه: استولىٰ، وكأن ذلك كان خارجًا عن ملكه فاستولىٰ عليه[(١)]، و(يداه) نعمتاه، بالتثنية، ونِعَمُ الله لا تحصىٰ.

وأما أهل التفويض فيقولون: إننا لا نعلم معناها، وأنها كالرموز تُتلىٰ ولا يُعلم ما المراد منها، وهذا ما تقول به المُفَوِّضَةُ، ومثل هذا التفويض يُنزَّه عنه كلام الله وكلام رسوله، والوحي الذي أُنزِل بلسانٍ عربي مبين.

والتأويل الباطل -الذي هو صرف الألفاظ عن معانيها الظاهرة في الشرع أو في اللغة إلىٰ معنىً آخر من غير دليل شرعي يقتضي ذلك- جَرَّأ كثيرًا من الفرق علىٰ نصوص الكتاب والسنة، وأدىٰ بها في نهاية الأمر إلىٰ تعطيل النصوص، وقد تتابعت عليه الفرق المخالفة لمعتقد السلف وأهل السنة والجماعة:

---

(١) ولهذا قال ابن الأعرابي لما قيل له: استوىٰ، أي استولىٰ، قال: العرب لا تقول: استولىٰ على الشيء حتىٰ يكون له مُضَادّ فأيهما غلب فقد استولىٰ. اهـ «لسان العرب» (١٤/ ٤١٤).

- فتأول الأشاعرة أكثر نصوص صفات الله تعالىٰ.

- وتأول المعتزلة جميع نصوص الصفات وعطلوا الأسماء عن معانيها.

- وتأول كثير من الفلاسفة نصوص الوعد والوعيد.

- وجاء غلاة المتصوفة فتأولوا نصوص الأحكام وجعلوا لها ظاهرًا وباطنًا وجاءوا بالتفسير الإشاري، والمعنىٰ الباطني.

-ومن ثَمَّ جاءت الباطنية ومن نحا نحوهم من الملاحدة والزنادقة فعبثوا بالنصوص.

- وجاء الحداثيون ومعتزلة هذا الزمن فلم يبقوا لذي لبٍّ نقلًا يطمئن إليه أو عقلًا يتأمل به، فأفسدوا المعقول بالسفسطة والمنقول بالقرمطة، حتىٰ إن منهم من تجرأ علىٰ لفظ الجلالة والاسم الأعظم فصرفه عن دلالته ومعناه وتكلم عليه بما لم يتجرأ عليه أباليس الجن، وهذا من الإلحاد الذي لم يكن في الأوائل.

وأهل السنة والجماعة هم أهل الإثبات وأسعد الناس بالكتاب والسنة؛ وهم يقرّون بأن الله بكل شيء عليم، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وغيرها من أسمائه سبحانه، فمثلًا: يثبتون اسم السميع، ويأخذون منه صفة السمع، ومعناها إدراك المسموعات، ويثبتون صفة البصر، ومعناها: إدراك المرئيات. وأما كيفية سمعه وبصره فأمره إلىٰ الله، فلا يعلم كيفية صفاته إلا هو، ولذا فهم لا يكيفون ولا يشبهون ولايعطلون ولايحرفون.

وكذا أفعاله كالخلق والرزق والتدبير والمجيء يوم القيامة ومحبته لعباده الصالحين ورحمته للمؤمنين ونزوله في ثلث الليل الآخر.

كما يثبتون صفاته الذاتية كـ: (يده) سبحانه، و(وجهه)، وغيرها إثباتًا حقيقيًا كما جاءت في الكتاب والسنة، وينزهون الله أن يشبه مخلوقاته، وإنما له من الأسماء والصفات ما يليق بجلاله وعظمته.

فالله سبحانه أعلم بنفسه، وبين لنا أسماءه وصفاته وأفعاله في كتابه وعلىٰ لسان رسول الله ﷺ، فمن ذلك:

١- قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

٢- وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

٣- وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ﴾.

٤- وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾. والسَّمِي هو النظير والمثيل والمساوي.

٥- وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

٦- وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾.

٧- وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ

عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

ومن أقوال السلف في هذا:

١- سأل الوليدُ بنُ مسلم مالكَ بنَ أنس إمام دار الهجرة عن أحاديث الرؤية؛ فقال: أمرّوها كما جاءت بلا كيف[١].

٢- وقال له رجل: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾؛ كيف استوىٰ؟ فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عن هذا بدعة. وهو ثابتٌ مشهورٌ عنه[٢]، قال ابن تيمية: ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك اهـ[٣].

٣- وقال الشافعي: لله أسماءٌ وصفاتٌ جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيُّهُ ﷺ أُمَّتَهُ، لا يَسَعُ أحدًا قامت عليه الحجة ردُّها ... قال: ونثبت هذه الصفات وننفي عنها التشبيه كما نفاه عن نفسه[٤].

إذا علم هذا فلا يجوز إثبات اسم أو صفة لله تعالىٰ لم ترد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٣/ ٥٢٧) ط. دار طيبة.

(٢) السابق (٣/ ٣٩٨)، وروىٰ (٣/ ٣٩٧) عن أم سلمة رضي الله عنها: الكيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر اهـ قال ابن تيمية (٥/ ٣٦٥) من «الفتاوىٰ»: ليس إسناده مما يعتمد عليه اهـ.

(٣) «مجموع الفتاوي» (٥/ ٣٦٥).

(٤) «سير أعلام النبلاء» ترجمة الإمام الشافعي (١/ ٧٩-٨٠) ط. مؤسسة الرسالة.

وأما المضاف إلىٰ اسم (الله) فيكون علىٰ وجهين[(١)]:

١- إضافة الصفة للموصوف مثل: عزة الله، رحمة الله. وذلك إذا كان المضاف صفة غير قائمة بنفسها.

٢- فإن كان المضاف صفةً تقوم بنفسها أو تقوم في مخلوق كالروح، امتنع أن يكون المضاف صفة لله تعالىٰ، فهو من إضافة المخلوق للخالق إضافة تشريف مثل: ناقة الله، روح الله. أو تضاف إليه لكونه خلقها كقولهم: أرض الله ومال الله.

ومثله: ما (أنزل الله): فإن كان قائمًا بنفسه كالمطر والحديد فهو مخلوق، وإن كان غير قائم بنفسه، مثل القرآن، فهو غير مخلوق بل صفة لله جل وعلا.

وقد ذكر الإمام أحمد في الرد علىٰ الجهمية[(٢)] ضلال من ضل في قوله تعالىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُۖ﴾ [النساء: ١٧١] وهم النصارىٰ فزعموا أن هذه الروح تضاف إلىٰ الله من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، والحق أنها إضافة تشريف وقوله (منه): (من) تفيد الابتداء، أي ابتداء من الله كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣]، كما ضلت القدرية والجهمية في قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ فجعلوا ذلك من باب إضافة المخلوق إلىٰ الخالق كالروح، والحق أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ كلمة الله؛ أي قوله: كن. فكان

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» للشيخ سليمان بن عبد الله (٨٤-٨٥) ط. مكتبة العلوم والحكم.

(٢) السابق.

عيسىٰ بلا أب. قاله قتادة، وهذا من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، لأن كلامه جلَّ شأنه من صفاته.

*** وأسماؤه سبحانه كلها حسنىٰ، وصفاته كلها غاية في الكمال، فليس فيها نقص بأي وجه من الوجوه، فهو القدوس السلام.**

والله ﷻ هو المألوه والمعبود، عظيم في ذاته، عظيم في أسمائه وصفاته، وأسماؤه تدل علىٰ ذاته، وتدل علىٰ معانٍ عظيمة يتصف بها، فمن تعظيم الله النظر في معاني أسمائه وصفاته والتأمل في عظمته وفي دلائل الكون الدّالة عليه، وفي مخلوقاته التي هي من آثاره.

*** فكل اسم من أسمائه يؤخذ منه صفة من صفاته،** فالله تعالىٰ هو الحليم ومنه نأخذ صفة الحلم، **وليس كل صفة من صفاته يؤخذ منها اسم،** فمن صفات الله ﷻ أنه ينزل ويجيء واستوىٰ على العرش، ولا يُسَمَّىٰ الله تعالىٰ بالنازل ولا المستوي، ويوصف سبحانه بأنه مرسل السحاب وهازم الأحزاب، ولا يؤخذ من هذه الصفات أسماء، لأن أسماء الله حسنىٰ، فإذا سميته بالنازل لم يقتض الحسن، وإن كان وصفه بالنزول والاستواء والمجيء يقتضي الكمال، واللفظ إذا أخبر الله به عن نفسه أو رسوله ﷺ، وكان مما لا يَدُلُّ علىٰ مَدحٍ أو ذَمٍّ في ذاته، وإنما بحسب متعلقه وكان وروده بصيغة الفعل لابصيغة اسم الفاعل كـ: أراد وأحدث وشاء؛ فلايطلق علىٰ الله بصيغة الاسم، فلا يقال: المحدث والمريد والمتقن والفاعل، وإنما يطلق عليه بصيغة الفعل أو كما ورد بها النص: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ

﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾. ولم يأت في أسمائه المريد والصانع[(١)].

* وما ورد بلفظ الاسم علىٰ وجه الإضافة فهذا يطلق علىٰ الله بلفظ الإضافة، أو ورد بلفظ الفعل علىٰ وجه المقابلة فلا يطلق علىٰ الله إلا علىٰ هذا الوجه، ولا يشتق منهما اسم مثل قوله تعالىٰ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ فيجوز أن يقول: الله خادع المنافقين، ويخدع من يخدعه ونحو ذلك، ولا يجوز أن يُعَدَّ من أسمائه الخادع لعدم وروده، ولأن إطلاق الخادع والمخادع علىٰ غير سبيل الإضافة والمقابلة فيه ذمٌّ، ولهذا ورد علىٰ سبيل المقابله فهو يخدع من خدعه، ويمكر بمن يمكر به، ويستهزيء بمن يستهزيء به، فالكمال والمدح والثناء في هذه الصفات أن يُؤتىٰ بها علىٰ سبيل المقابلة، فالله سبحانه له صفات الكمال والعظمة التي تدل عليها ربوبيته وقدسيته.

وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ وقوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾، فلا يجوز أن يعد من أسمائه الكائد والماكر[(٢)].

* وما ورد بلفظ الفعل مقيدًا فلا يشتق منه اسم، فلا يشتق من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ فلا يقال: إنَّ مِن أسمائه: المُضِلُّ[(٣)].

---

(١) ينظر «بدائع الفوائد» لابن القيم (١/ ١٦١) ط. دار الكتاب العربي.

(٢) «التنبيهات اللطيفة علىٰ العقيدة الواسطية» للعلامة ابن سعدي وعلق عليها الشيخ عبد العزيز ابن باز (٤٣-٤٤) ط. دار ابن القيم.

(٣) ينظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٢)، وقد ذكر ابن القيم أن من الأسماء ما لا يطلق إلا مقرونًا بغيره، بحيث إن معنىٰ الكمال لا يحصل إلا بهذا الاقتران، فلا يطلق علىٰ الله =

وقد جاء في السنة الحث علىٰ إحصاء أسماء الله تعالىٰ فقال ﷺ: «**إن لله تسعةً وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**»، وفي رواية: «**من حفظها**». متفق عليه عن أبي هريرة.

قال أهل العلم: إحصاؤها يتضمن ما يلي:

(١) حفظها، وإثباتها كما أثبتها الله ﷻ وأثبتها له رسول الله ﷺ.

(٢) العمل بمقتضاها، أي ما تقتضيه من معانٍ، فتتوكل علىٰ الحي الذي لا يموت، وتطلب الرزق من الرزّاق، وتدعو من يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

(٣) دعاء الله بها قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾. ولايجوز دعاء الصفة وكأنها مستقلة عن الذات، كقول: يارحمة الله أو يا قدرة الله. وإنما المشروع الدعاء والتوسل بالصفة نحو: اللهم بعزتك أو برحمتك، ويشرع أيضًا الاستعاذة بالصفة: أعوذ بكلمات الله، أعوذ بعزتك، والحلف بالصفة: والله، وعزته، وقوته، ورحمته، وقدرته، وكلمات الله هي صفة من صفاته مثل عزته وعظمته، وكذا آيات الله الشرعية صفة من صفاته لأن الله تكلم بها، وأما آيات الله الكونية فمخلوقة.

(٤) فهم ما تدل عليه من المعاني، والتأمل في آثارها ودلالاتها ومعانيها، فنتأمل في صفاته ولا نتأمل في ذاته، لعدم علمنا بكيفية

= مفردًا، مثل: المعطي المانع، والضار النافع، والعفو المنتقم، ينظر «بدائع الفوائد» (١/١٦٧). وبعضها وارد في حديث الترمذي الذي سَرَدَ فيه أسماء الله تعالىٰ، وهو ضعيف وذكر الأسماء فيه مدرج؛ والله أعلم.

وقوع الصفة منه، والتأمل في صفات الباري جل وعلا يقوي الإيمان به ويزيده رسوخًا وطمأنينة ويقينًا، مع علمنا بمعناها، فمن علم أن الله هو السميع يسمع المخلوقات ولا تختلط عليه اللغات والأصوات، وأنه سبحانه يدرك المسموعات كان علىٰ حذر من فلتات لسانه، وإذا ناجىٰ ربه فإنما يناجي من يسمع الدعاء، وفي الصحيحين من حديث أبي موسىٰ مرفوعا: «أيها الناس اربعُوا علىٰ أنفسِكم، إنكم لاتدعُونَ أَصَمَّ ولاغائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم».

وإذا علمت أن الله هو الحكيم سلَّمت له في حكمه الشرعي والقدري، يقول ابن الجوزي: تأملت حالًا عجيبة، -فذكر أمورًا يحتار فيها العقل- كبناء الأجسام ثم نقضها، وقبض الله الصبي من أكف أبويه، وتقتير الرزق علىٰ المؤمن الحكيم وتوسعته علىٰ الكافر الأحمق، قال: وفي نظائر لهذه المذكورات يتحيَّر العقل في تعليلها فيبقىٰ مبهوتًا، فلم أزل أتلمَّح جملة التكاليف فإذا عَجَزتْ قوىٰ العقل عن الاطلاع علىٰ حكمة ذلك، وقد ثبت لها حكمة الفاعل عَلِمَتْ قصورَهَا عن دَرَكِ جميع المطلوب، ثم قال: لقال -العقل-: لأني عرفت بالبرهان أنه حكيم، وأنا أعجز عن إدراك علله، فأُسَلِّمُ علىٰ رغمي مُقِرًّا بعجزي اهـ[(١)].

ولهذه الأسماء والصفات آثارٌ عظيمة في حياة العبد منها:

(١) العلم بالله، وذلك أشرف العلوم التي ينالها العبد، لأن العلم يشرف بشرف المعلوم والله تعالىٰ أشرف معلوم.

---

(١) «صيد الخاطر» (٤٥) ط. دار الكتب العلمية.

(٢) اليقين بالله وبكتابه المنزل وبهذا الدين وهذه الشريعة الربانية، والانقياد لها والقبول بها، لأنها من لدن حكيم خبير ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

(٣) محبة الله ﷻ، والتي تورث في القلب السعادة والطمأنينة، ويجد بها المؤمن حلاوة الإيمان، وهذه المحبة هي وقود العمل الصالح والاجتهاد في ذكر الله وشكره وحسن عبادته.

(٤) الصدق مع الله وإخلاص العبادة له، لِمَا له من الأسماء والصفات التي تفرَّد بها، فهو المستحق لها وحده لاشريك له، فـ (الأحد) هو المتفرد بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، و(الصمد) هو الذي تصمد له الخلائق في طلب حاجاتها، و(لم يلد ولم يولد) فلا مماثل له ولا والد له ولا ولد، و(لم يكن له كفوا أحد) أي ليس له مكافيء وهو النظير والمماثل، فيطمئن العبد وهو يعبد ربًا قد كملت فيه صفات الكمال.

(٥) التوكل علىٰ الله، الذي بيده مقاليد الأمور: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، فمن له الحياة الكاملة هو الذي يستحق أن يُفوَّض الأمر إليه، ويعتمد عليه، ويتعلق القلب به.

(٦) الخوف من الله والرجاء فيما عنده: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾.

(٧) الطمأنينة وانشراح الصدر، وأنس العبد بمناجاة ربه وقربه منه، فالمؤمن يسأل ربه لذة النظر إلىٰ وجهه الكريم والشوق إلىٰ لقائه، ويتقرب إليه لينال محبته، قال النبي ﷺ: «**من أحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه**». **متفق عليه.**

- ٩ -

«وأنا معه حين يذكرني»

هذا حديث متفق علىٰ صحته، وفي رواية لمسلم: «وأَنَا مَعَهُ إذا دَعَانِي». فمن صفات الله تعالىٰ صفة: المعية، ومعية الله تعالىٰ لعبده هي من أعظم ما يَمُنُّ اللهُ به علىٰ عباده الأبرار، فمِمَّ يخاف العبد إذا علم أن الله معه وأن الله قريب منه؟

فمعية الله لها أثر عظيم في قلب المؤمن وفي حياته وما يلقيه الله ﷻ في فؤاده من الطمأنينة والسكينة والثبات، المعية التي تؤمِّنُ قلوب الخائفين، ويؤيد الله بها المحسنين والمتقين والأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين، قال تعالىٰ: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، وهي معية الله للعابدين والداعين والمضطرين يفيض عليهم من رحمته ما يثبت به قلوبهم، ويجعل الشدائد بردًا وسلامًا عليهم.

فالعابد لربه الخاضع له هو في معية الله، في ليله ونهاره، وحركاته وسكناته، وحبه وبغضه، وفي نومه ويقظته، فالعبادة ذل وخضوع وتعظيم لله تعالىٰ يلازم القلب فتنقاد له الجوارح، قال الله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**ومَا يَزَالُ عَبدي يَتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِل حتَّىٰ أُحِبَّه، فإذا أحبَبتُهُ كنتُ سَمعَهُ الذي يَسمَعُ به، وبصَرُه الذي يُبصِرُ به،**

ويَده التي يَبطِشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي بها» رواه البخاري. فإذا استشعر المؤمن هذه المعية، كان أقرب إلىٰ ربه وأعظم تفويضًا له، وقد كان النبي ﷺ إذا أوىٰ إلىٰ فراشه قال كلمات عظيمة يسلم بها وجهه لله رب العالمين، من مات عليها مات علىٰ الفطرة، فعن عن البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا أَخَذتَ مَضجَعَكَ فَتَوَضَّأ وُضُوءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضطَجِع عَلَىٰ شِقِّكَ الأَيمَنِ، ثُمَّ قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسلَمتُ وَجهِي إِلَيكَ، وَفَوَّضتُ أَمرِي إِلَيكَ، وَأَلجَأتُ ظَهرِي إِلَيكَ، رَغبَةً وَرَهبَةً إِلَيكَ، لا مَلجَأَ وَلا مَنجَا مِنكَ إِلا إِلَيكَ، آمَنتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنزَلتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرسَلتَ، وَاجعَلهُنَّ مِن آخِرِ كَلامِكَ، فَإِن مُتَّ مِن لَيلَتِكَ مُتَّ وَأَنتَ عَلَىٰ الفِطرَةِ**». متفق عليه.

والمعية في اللغة تطلق علىٰ مطلق المصاحبة، وتأتي بمعنىٰ المخالطة، وتأتي بمعنىٰ المجاورة، ومعية الله تعالىٰ لعباده لا يصح حملها إلا علىٰ مطلق المصاحبة، ولا تحمل علىٰ المخالطة ولا المجاورة، فأما قول أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد -أن الله حَلَّ في كل شيء- فهو شَرٌّ من قول النصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام، وأما من قال هو في كل مكان فذاك مردود عليه بالإجماع، فقد أجمع الصحابة والتابعون والسلف الصالح علىٰ أن الله تعالىٰ فوق سماوته مستو علىٰ عرشه عليٌّ علىٰ خلقه، وقد نقل الإجماع عليه ابن تيمية في «الواسطية»، وقال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله عز وجل فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. وقال أبو حاتم وأبو زرعة: أدركنا العلماء في جميع الأمصار، فكان من مذاهبهم: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته، والقدر خيره وشره من الله، وإن الله

تعالىٰ علىٰ عرشه بائنٌ من خلقه، كما وصف نفسه في كتابه وعلىٰ لسان رسوله بلا كيف، أحاط بكل شيء علما، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير اهـ[(١)].

وأدلة علو الله علىٰ خلقه مستفيضة في الكتاب والسنة.

إذا تقرر هذا، فالمعية نوعان:

الأولىٰ: معية بمعنىٰ الإحاطة والعلم، وهذه عامة في جميع المخلوقات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾.

---

(١) ينظر: «مختصر العلو للعلي الغفار» للذهبي (١٣٧-٢٠٤) ط. المكتب الإسلامي، والكتاب مملوء بالأدلة والآثار في بيان معتقد السلف في هذا، والإجماع قد يراد به الإجماع النقلي بحيث يتكلم به جميع الأئمة في جميع الأمصار وهذا نادر إلا إذا حكاه أمثال أحمد والشافعي والأئمة وكذا الحفاظ أوعية العلم، كأبي زرعة وغيره، فإن الإمام أحمد يقول في أبي زرعة: يحفظ هذا الشاب سبعمائة ألف حديث اهـ وأكثر مايقع هذا الإجماع النقلي ويصح في زمن الصحابة وهم متوافرون، كما قرره ابن تيمية، قال: ولا يعلم إجماع بالمعنىٰ الصحيح إلا ماكان في عصر الصحابة، أما بعده فقد تعذر غالبًا اهـ من «مجموع الفتاوي» (١٣/٣٤١). وينظر كلامه في الواسطية، ويطلق الإجماع -أيضا- علىٰ ما يعلم من الدين بالضرورة، ويطلق الإجماع علىٰ الإجماع الاستقرائي: وذلك بتتبع أقوال أهل العلم واستقراؤها، بحيث لا يعلم لهم مخالف، فمنه ماهو قرينة تتقوىٰ بها الأقوال كما يحكي بعض الأئمة عدم الخلاف في المسألة، أو أنه لايعلم فيها مخالفا، ومنه ما هو حجة عند الجمهور إذا كان في صورة الإجماع السكوتي، فيتكلم به واحد ويشتهر ولا يعلم له مخالف، وهذا يثبت ويصحُّ في قضايا الاعتقاد أكثر من غيره، لأن مسائل أصول الاعتقاد يضلل فيها القول المخالف في الغالب، فلذا لا تجد أهل العلم القائمين بالحق يسكتون عن بيان الحق في هذا.

الثانية: معية خاصة لأوليائه وعباده، وهي معية النصرة والتأييد، وهي أكثر ما ورد في القرآن.

ومعية الله لخلقه معية حقيقية مع علوه ﷻ، وقد جاء في الحديث مرفوعا: «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**» رواه مسلم. ومما تقوله العرب في المعية بمعنىٰ مطلق المصاحبة: سرت والقمر.

- ١٠ -

شهادة التوحيد

شهادة التوحيد هي: لا إله إلا الله، ولفظ «الشهادة»: من شَهِدَ؛ أَصلٌ واحدٌ يدلُّ علىٰ حضور وعلم وإعلام، قاله ابن فارس، ومنهم من قال: إنه يدور علىٰ معانٍ هي[(١)]: الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، فمن ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ومن ذلك قوله: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ وقال: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ﴾.

■ ومن أحكام شهادة التوحيد:

(١) **يجب النطق بها**: قال ابن تيمية: فأما **الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر** باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا

(١) ينظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العِزِّ (٤٤) ط. الرسالة.

وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها اهـ[(١)] وكذا حكىٰ النووي الاتفاق في شرح مسلم[(٢)]، وقال ابن حزم: من اعتقد الإيمان بقلبه، ولم ينطق به بلسانه دون تقية فهو كافر عند الله وعند المسلمين اهـ[(٣)].

(٢) يجب العلم بمعناها: قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾.

ومعنىٰ «لا إله إلا الله»: لا معبود بحق إلا الله، فالإله هو المعبود.

بهذا جاء تفسيرها في القرآن والسنة، فمن ذلك:

١- قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾.

٢- وقوله تعالىٰ: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

٣- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾.

٤- وقال ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حَرُمَ مالُه ودمُهُ وحسابه علىٰ الله**». خرجه مسلم.

قال القرطبي: لا إله إلا هو: لا معبود إلا هو. وكذا قال

---

(١) «مجموع الفتاوي» (٧/ ٦٠٩).

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي، شرح حديث رقم (٨).

(٣) «المحلىٰ» لابن حزم (١- م ٧٧) ط. مكتبة دار التراث.

الزمخشري: الإله اسم يقع علىٰ كل معبود بحقٍّ أو بباطل، ثم غَلَبَ علىٰ المعبود بحق[1].

وكذا قرَّر الأئمة كابن تيمية وابن رجب وغيرهم في معنىٰ الإله في تفسير شهادة التوحيد، فقد قال ابن تيمية: بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يعبد، فهو إله بمعنىٰ مألوه، قال: والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلها آخر اهـ[2] وقال البقاعي: لا إله إلا الله، أي: انتفىٰ انتفاءً عظيمًا أن يكون معبودٌ بحقٍّ غير الملك الأعظم اهـ[3]، وقال ابن رجب: (لا إله إلا الله) تقتضي أن لا يحب سواه، فإن الإله هو الذي يطاع محبةً وخوفًا ورجاءً اهـ[4]، وقال سليمان ابن عبد الله: وهذا كثير جدًا في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود، خلافًا لما يعتقده عباد القبور وأشباههم في معنىٰ الإله أنه: الخالق أو القادر علىٰ الاختراع أو نحو هذه العبارات اهـ[5].

وقد جنح طوائف من أهل الكلام والنظر ومن المتصوفة إلىٰ قصر تفسيرها علىٰ توحيد الربوبية أو بعض معانيه[6]، فقالوا في معنىٰ

---

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٧٦) ط. مكتبة العلوم والحكم.

(٢) «التدمرية» (١٨٦).

(٣) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٧٦-٧٧).

(٤) «كلمة الإخلاص» (٢٢-٢٣).

(٥) «تيسير العزيز الحميد» (٧٧).

(٦) ينظر: «التعريفات» للجرجاني (٩٦) ط. دار الكتاب العربي، وما نقله من اصطلاح أهل الحقيقة في تعريف التوحيد.

التوحيد: واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وواحد في صفاته لا مثيل له، واجتهدوا في تقرير توحيد الربوبية وجعلوه أعظم التوحيد وغايته وغاية ما دعا إليه الرسل، وتعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره، مع أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين -في الصفات والأفعال-[(١)]، فمنهم من قال: لا إله إلا الله؛ أي: لا قادر علىٰ الاختراع، أو لا خالق إلا الله، وبعضهم قال: لا غني إلا الله، ونحو ذلك من صفات الربوبية، ولا شك أن الله هو الخالق والقادر والغني، ولكن ليس هو التوحيد كله ولا غايته ومقصوده، بل هو من توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون، ولذا فإن من جعل معناها مقتصرًا علىٰ الربوبية فقد أخطأ خطأً بالغًا، وفسرها تفسيرًا قاصرًا، لأنه يوهم أن التوحيد لا ينافيه الشرك في العبادة، وأن من أتىٰ بتوحيد الربوبية فقد حَقَّقَ مدلول الشهادة.

وهذا من جملة الانحرافات التي ابتليت بها الأمة، كما هو الانحراف في تفسير شهادة أن محمدًا رسول الله، وأن مدلولها هو التغني بذكره ومحبته فقط، وإنشاد الأشعار في الموالد وغيرها دون اتباعٍ لسنته، أواهتداء بهديه.

وهذا القدر من تفسير الشهادة قد عرفه المشركون وأقرُّوا به، ولم ينفعهم، قال تعالىٰ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

(١) ينظر: «التدمرية» لابن تيمية (١٧٦-١٧٩-١٨٠) و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز الحنفي (٢٧-٢٨) ط. مؤسسة الرسالة.

﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾. لكونهم مع هذا الإيمان يشركون في العبادة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾.

وكانوا يدعون الله في الفُلْك مخلصين له الدين، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ومع ذلك قاتلهم النبي ﷺ قتال الكفار المشركين، وسماهم القرآن مشركين وكافرين.

ولذا تجد هؤلاء -الذين فسروا الشهادة بهذا التفسير- اكتفوا بتحقيق الربوبية، وجعلوا قضيتهم الكبرىٰ هي إثبات هذا التوحيد، وأضعفوا جانب دلالة الشهادة علىٰ العبادة والطاعة، وظهر في الإسلام من يدعي أن المعرفة أو التصديق كافٍ في الإيمان، ومن ثَمَّ اتسع الطريق أمام عبدة القبور والأولياء والمستغيثين بها، من الذين هجروا العبادة الشرعية، واختلقوا طرقًا أخرىٰ في التنسك توافق الأهواء، وعظموا غير الله، ومنهم من لم ير بأسًا في تبديل شرع الله، والتحاكم إلىٰ غيره، وتعطيل شعيرة الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من زعم أن دعاء الأموات والقبور ليس من قبيل الشرك وإن صُرفت لهم العبادة وقدمت لهم القرابين حتىٰ يعتقد فيهم أنهم يستقلون بالنفع والضر والخلق والملك.

ومن أوابد هذا التفسير الاكتفاء بالتصديق القلبي في باب الإيمان والتوحيد، وما يفضي إليه -بلا شك- من تعطيل للعبودية، وإذا عطلت العبودية فإن ذلك يقود في الباطن إلىٰ تعطيل الربوبية، ولذلك حصل لهؤلاء من مدافعة الشبهات والإلحاد وإنكار الخالق ماهو معلوم، ومنهم من وقع ضحية الحيرة وتمنىٰ بعضهم أن يكون موته علىٰ عقيدة عجائز بلده من شدة الحيرة.

ويلتقي هذا التفسير للشهادة -وكون دلالتها قاصرة علىٰ توحيد المعرفة والإثبات- مع عقيدة غلاة المرجئة، والذين يرون أن الإيمان هو مجرد المعرفة أو التصديق، فكان من آثار ذلك الاكتفاء بالانتساب إلىٰ هذا الدين ومجرد التصديق به، دون تحقيق للعبادة علىٰ ما يرضي الله وما جاء في الكتاب والسنة، ودون إفراد الله سبحانه بها وحده لاشريك له وإخلاص الطاعة له علىٰ الوجه الذي أمر به، حتىٰ وُجِدَ من بعض من ينتسب إلىٰ الإسلام من شَرَّعَ للعلمانية والليبرالية الملحدة طريقها وفتح الأبواب لها باسم الحرية، وأن علاقة المسلم بربه هي علاقة المعرفة والتصديق، وزعم أن ما سوىٰ ذلك هو من إقحام الدين في الحياة وأن ذلك لا تقره الأديان، ومنهم من فتح باب التقريب بين الأديان من منطلق أنها مجتمعة علىٰ المعرفة والتصديق بالله رب العالمين، ومنهم من ذهب فأبعد المذهب وانحرف فَشَطَّ به الطريق وألقاه في نتن العقائد الفاسدة والضلالات، وزعم أن الإنسانية هي معقد الاجتماع والولاء بين بني آدم، وأن الأديان ماهي إلا عقائد يصدق بعضها بعضًا، ويصدق بها من يصدق دون أن يكون لها أثر في الاجتماع والافتراق، ولا تنعقد عليها الولاءات، وينبني علىٰ مثل هذه الأقوال المارقة أن يكون إبليس من أصدق الناس وأعبد الناس لأنه مصدق بالله رب العالمين بل أقسم بعزة الله واعترف بربوبيته، وهل أسوأ ممن يدافع عن إبليس في رواياته وكتبه.

(٣) اشتملت كلمة التوحيد علىٰ ركنين هما:

١- النفي.

٢- الإثبات.

فلابد من تحقيق النفي والإثبات حتىٰ يتحقق التوحيد والإفراد، فالنفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لايمنع المشاركة، وهذه قاعدة مهمة لفهم كلمة التوحيد، فلابد لمن شهد بهذه الكلمة أن يقيم هذين الركنين، وهما: الإيمان بالله، والكفر بالطاغوت، وما يتبعهما من مقتضيات الشهادة: كالولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار السنة وإماتة البدعة، والقيام بالواجبات وترك المحرمات.

فلا يكفي الإيمان بالله وعبادته حتىٰ يكفر بالطاغوت، ويتبرأ من كل مايعبد من دون الله من صنم ووثن، ونفس وهوىٰ، ومالٍ ومتاع، وشرعٍ مُبَدَّل، ومن كل ما يحاد الله في حكمه وأمره.

وأدلة القرآن والسنة كثيرة في تقرير هذا المعنىٰ:

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾.

٢- قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

٣- قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾.

٤- وقال ﷺ: «**مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَىٰ عَبْدُ الله وَابْنُ أَمَتِهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ أَدْخَلَهُ الله مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ**» متفق عليه، وفي رواية: «**أدخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ علىٰ ما كان من عَمَلٍ**».

٥- عن طارق بن أشيَم عن النبي ﷺ قال: «**من وحّد الله، وكفر بما يعبد من دون الله، حَرُم ماله ودمه وحسابه علىٰ الله**». خرّجه مسلم.

ولهذا جاء في القرآن البيان القاطع بعدم المساومة علىٰ هذا الأصل العظيم كما في سورة الكافرون، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ ... الآيات.

فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو وإن عبد الله فلم يعبده مخلصًا له الدين، بل هو من المشركين.

والقاعدة في هذا: **أن الكفر الأكبر والشرك الأكبر لا يجتمع مع التوحيد إطلاقًا.**

(٤) ومن أحكامها: شروطها التي ذكرها أهل العلم وهي التي لا تصح إلا بها وهي سبعة:

١- العلم المنافي للجهل.

٢- اليقين المنافي للشك.

٣- المحبة المنافية للبُغض.

٤- الصدق المنافي للكذب.

٥- الإخلاص المنافي للشرك.

٦- الانقياد المنافي للترك.

٧- القبول المنافي للرد.

(٥) وأما **شهادة أن محمدًا رسول الله، فمعناها يشتمل علىٰ ركائز:**

أ- الإيمان به ﷺ والتصديق برسالته وأنه مرسل من عند الله، وأنه خاتم المرسلين، وأن رسالته وكتابه هو المهيمن والناسخ لما قبله من الكتب والرسالات.

ب- الإيمان بأن ما جاء به هو الشرع الذي تجب طاعته، والتصديق بما يخبر به من الوحي.

ج- الانقياد له والتسليم له، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

د- محبته ﷺ محبة مقدمة علىٰ النفس والأهل والولد.

- ١١ -

تحقيق التوحيد

التَّحقِيق في اللغة: مأخوذ من الحقِّ؛ وله معانٍ:

- قال ابن فارس هو: إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل.

- قال: ويقال: حققت الأمر وأحققته؛ كنت علىٰ يقين منه اهـ.

وأعظم من حَقَّقَ التوحيد هم الأنبياء، وأعظمهم محمد ﷺ

وإبراهيم الخليل عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

ومن المعاني التي ذكرها أهل العلم في تحقيق التوحيد:

١- القيام به علمًا وعملًا.

٢- ألا يكون في قلبه شيء لغير الله، ولا إرادةٌ لما حرَّم الله، ولا كراهة لما أمر الله.

٣- كمال المحبة مع كمال التعظيم.

٤- العلم واليقين والانقياد.

٥- القيام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه.

٦- تصفيته وتهذيبه وتنقيته من:

- الشرك الأكبر والأصغر - البدع القولية والعملية - المعاصي.

والبدعة: قد تكون عقدية مكفرة كبدعة الجهمية والباطنية الغلاة، وقد تكون عقدية مفسقة كبدعة المرجئة والخوارج. وقد تكون بدعة عملية في الأقوال والأفعال.

والكبيرة: كل معصية رُتِّبَ عليها حدٌّ أو وعيد أو غضب أو لعنة أو سماها الشارع كبيرة أو موبقة أو مهلكة.

فيتلخص مما سبق أن تحقيق التوحيد يكون علىٰ مرتبتين:

١- **المرتبة الواجبة**: البعد عن الشرك والبدع والمعاصي.

٢- **المرتبة المستحبة**: كمال الإخلاص والاجتهاد في العبادة والقيام بالمسنون من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وترك التعلق

بما سوىٰ الله تعالىٰ في القليل والكثير، وكمال الرضا واليقين والحب والخوف والرجاء، وكمال الصدق مع الله، وترك سؤال الناس، وهذه مرتبة الأنبياء والصدّيقين، وسموا صدّيقين لكمال تصديقهم وكمال صدقهم مع الله، ولما أحب إبراهيم الخليل ولده إسماعيل عليهما السلام امتحنه الله بذبح ابنه، ليكون أثبت في صفاء الخلَّة، ونقاء اليقين.

قال ابن القيم[1]:

فلواحدٍ كن واحدًا في واحدٍ
أعني سبيل الحق والإيمان
هذي ثلاث مسعدات للذي
قد نالها والفضل للمنان
فإذا هي اجتمعت لنفسٍ حُرَّة
بلغت من العلياء كل مكان

- ١٢ -

التوحيد شواهد ومشاهد

■ **فمن شواهد التوحيد:**

(١) قال تعالى في أعظم سورة في القرآن: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

(١) «شرح القصيدة النونية لابن القيم»، شرحها د. محمد خليل هراس (٢/ ١٣٣) ط. دار الكتب العلمية.

فبعد أن يحمد العبدُ ربَّه، ويُثني عليه ويُمجِّده في هذه السورة؛ تأتي هذه الآية الكريمة العظيمة لتكون قاعدة من قواعد الملة، ومبدأً راسخًا من مبادئ التوحيد يقوم بها المؤمن في صلاته مُتوضِّئًا مُتخشِّعًا مُتذلِّلًا مُتعبِّدًا لخالقه ورازقه سبحانه، وما ذاك إلا لعظمتها وسموها وجلالة معانيها، وإحاطتها بمقاصد التوحيد والدين. فالعبادة لله وحده لا شريك له، ولا تتم العبادة إلا بتوفيق وتأييد من الله ذي القوة المتين؛ فلا يستعين العبدُ بأحدٍ سواه، ولذا قدَّم المعمول على العامل، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، ولم يقل: «نعبدُ إياك، ونستعين بك»؛ إذ التقديم لما حقُّه التأخير في اللغة: يفيد الحصر، فلا عبودية إلا لله وحده لا شريك له، ولا استعانة إلا به.

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ
وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ
وَلَا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

قال ابن تيمية: فإذا تدبر الإنسان حال نفسه، وحال جميع الناس؛ وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين: لا بُدَّ للنفس من شيء تطمئن إليه وتنتهي إليه محبتها وهو إلهها، ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها، هو مستعانها. ثم قال: تبين أنَّ قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، كلامٌ جامعٌ محيطٌ[1]. اهـ

(١) «مجموع الفتاوى»، (١/ ٣٥، ٣٦).

(٢) قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢].

فبعد أن أعلن إبراهيم عليه السلام عداوته ومقاطعته لآلهتهم التي يعبدونها من دون الله -وإن عبدها الآباء وتعلقت بها النفوس- اتجه إلى ربه وحده لا شريك له، فاستثناه من هذه العداوة، وأظهر من صفاته العظيمة ما يقتضي أن تتعلق به القلوب دون غيره، فهو الذي يملك الدنيا والآخرة، وله التصرف الكامل فيها، بالخلق والهداية، والإحياء والإماتة، والإطعام والسقاية، ومغفرة الذنوب، والشفاء من الأمراض والأسقام والعيوب.

(٣) قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩].

فالله -جل شأنه- هو وحده الذي يُتَوَكَّلُ عليه، ويُفَوَّضُ الأمرُ إليه: افتقارًا وعجزًا؛ ولهذا قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، أي: كافينا الله وحده، ولم يقل: «ورسوله»، كما أنَّه سبحانه هو الذي يرغب إليه وحده، فقال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، ولم يقل: «ورسوله»؛ لأنَّ التوكُّل والرغبة من العبادة التي يجب توحيد الله بها.

وأمَّا التفضُّل والعطاء والإيتاء؛ فقال فيهما: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾؛ لأنَّها

ليست من مقامات التعبد والتذلل التي يجب إفراد الله تعالى بها، وإنَّما العطاء يُسنَدُ إلىٰ الله -وهو أكرم مَن أعطى-، ويُسنَدُ إلىٰ غيره.

(٤) قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

فالطاعة لله ورسوله؛ لأنَّها ليست كلها عبادة، فمنها ما هو عبادة، ومنها ما هو امتثال؛ والمراد هنا الامتثال ولهذا قال: ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾، وأمَّا الخشية والتقوى؛ فهي عبودية لله رب العالمين، يجب توحيد الله بها؛ ولهذا لم يقل: «ورسوله».

(٥) قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام: ١٧]، وقال: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

(٦) قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد، قد سلم كله له؛ فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟! فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؛ لا يستويان[١].

(١) «مدارج السالكين»، (١/ ٢٤٠).

■ ومن مشاهد التوحيد:

(١) ما ذكره الله ﷻ في قصة إبراهيم ﵇ لما قال قومه: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ﴾ فقال إبراهيم: حسبي الله ونعم الوكيل. قال ابن عباس: وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. رواه البخاري عن ابن عباس.

وذكر بعض المفسرين[١]: أن إبراهيم ﵇ عَرَضَ له جبريلُ وهو في الهواء فقال له: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا وأما من الله فبلىٰ. فقال الله ﷻ: ﴿يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ قال ابن كثير: وروىٰ الحافظ أبو يعلىٰ -فذكر سنده- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لما أُلقي إبراهيم ﵇ في النار قال: اللهم إنك في السماء واحدٌ، وأنا في الأرض واحدٌ أعبدك**». ويروىٰ أنهم لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك اهـ[٢].

(٢) ومن ذلك ما وقع لسحرة فرعون وقولهم له: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾، وفي قصة غلام الأخدود كما رواها مسلم في صحيحه، وفيها: «**فَقَالَ: اذهَبُوا بِهِ فَاحمِلُوهُ فِي قُرقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ**

---

(١) «تفسير البغوي» سورة الأنبياء، (٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٤) ط. دار المعرفة.

البَحرَ فَإن رَجَعَ عَن دِينِهِ وَإلا فَاقذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكفِنِيهِم بِمَا شِئتَ. فَانكَفَأَت بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمشِي إلَىٰ المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللَّهُ، فَقَالَ لِلمَلِكِ: إنَّكَ لَستَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصلُبُنِي عَلَىٰ جِذعٍ، ثُمَّ خُذ سَهمًا مِن كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهمَ فِي كَبِدِ القَوسِ، ثُمَّ قُل: بِاسمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلامِ، ثُمَّ ارمِنِي، فَإنَّكَ إذَا فَعَلتَ ذَلِكَ قَتَلتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهمَ فِي كَبِدِ القَوسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلامِ. ثُمَّ رَمَاهُ، فَوَقَعَ السَّهمُ فِي صُدغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدغِهِ فِي مَوضِعِ السَّهمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ» الحديث.

(٣) ومن ذلك: ما جاء في قصة هاجر عندما رَحَلَ بها إبراهيم عليه السلام هي وابنها إلىٰ مكة؛ قال ابن عباس: ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبرَاهِيمُ عليه السلام وَبابنِهَا إِسمَاعِيلَ وَهِيَ تُرضِعُهُ حَتَّىٰ وَضَعَهُمَا عِندَ البَيتِ، عِندَ دَوحَةٍ فَوقَ زَمزَمَ فِي أَعلَىٰ المَسجِدِ، وَلَيسَ بِمَكَّةَ يَومَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِندَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّىٰ إِبرَاهِيمُ مُنطَلِقًا، فَتَبِعَتهُ أُمُّ إِسمَاعِيلَ فَقَالت: يَا إِبرَاهِيمُ؛ أَينَ تَذهَبُ وَتَترُكُنَا بِهَذَا الوَادِي الَّذِي لَيسَ فِيهِ إِنسٌ وَلا شَيءٌ؟ فَقَالت لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لا يَلتَفِتُ إِلَيهَا، فَقَالت لَهُ: آللهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قال: نَعَم. قالت: إِذَن لا يُضَيِّعُنَا. -وفي رواية: رَضِيتُ بِاللهِ- ثُمَّ رَجَعَت، فَانطَلَقَ إِبرَاهِيمُ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ عِندَ الثَّنِيَّةِ حَيثُ لا يَرَونَهُ استَقبَلَ بِوَجهِهِ البَيتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيهِ فَقَال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن

ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ حتىٰ بلغ: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ رواه البخاري.

(٤) ومن ذلك: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، لما أمر الله إبراهيم بذبحه: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾. أي استسلما لأمر الله تعالىٰ وانقادا.

(٥) ومن ذلك: موسىٰ عليه السلام لما أدركهم فرعون: ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾.

(٦) ومن ذلك: ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه؛ أَنَّ أَبَا بَكرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ قَالَ: نَظرتُ إِلَىٰ أقدَام المُشرِكِينَ عَلَىٰ رُؤوسِنَا وَنَحنُ فِي الغَارِ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لَو أَنَّ أَحَدَهُم نَظرَ إِلَىٰ قَدَمَيهِ أَبصَرَنَا تَحتَ قَدَمَيهِ، فَقَالَ ﷺ: «**يَا أَبَا بَكرٍ؛ مَا ظَنُّكَ بِاثنَينِ، الله ثَالِثُهُمَا**». متفق عليه.

(٧) ومن ذلك: ما رواه مسلم عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ يَومُ بَدرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ المُشرِكِينَ وَهُم أَلفٌ وَأَصحَابُهُ ثَلاثُ مِائَةٍ وَتِسعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاستَقبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ القِبلَةَ ثُمَّ مَدَّ يَدَيهِ فَجَعَلَ يَهتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ أَنجِز لِي مَا وَعَدتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدتَنِي، اللَّهُمَّ إِن تُهلِك هَذِهِ العِصَابَةَ مِن أَهلِ الإِسلام لا تُعبَد فِي الأَرضِ**». فَمَا زَالَ يَهتِفُ بِرَبِّهِ مَادًّا يَدَيهِ، مُستَقبِلَ القِبلَةِ، حَتَّىٰ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَن مَنكِبَيهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلقَاهُ عَلَىٰ مَنكِبَيهِ، ثُمَّ التَزَمَهُ مِن وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ؛ كَفَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ. فَأَنزَلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٍ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾، فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالمَلائِكَةِ.

- ١٣ -

فضل التوحيد وتكفيره للذنوب

قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

الظلم هنا الشرك، كما جاء مفسرًا في الحديث الصحيح المتفق عليه عن ابن مسعود قَالَ: لَمَّا نَزَلَت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ شَقَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لا يَظلِمُ نَفسَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَيسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقمَانُ لابنِهِ**: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

والتوحيد له فضائل عظيمة، فمن **فضائل التوحيد والإيمان** وثمرته في الدنيا والآخرة:

١- رفعة درجات صاحبه عند الله في الجنة، ونيله رضاه، وما يمنحه الله لأهله من الشرف والرفعة والكرامة في الدنيا والآخرة

٢- توفيق الله وفتحه ونصره للمؤمنين الموحدين، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾

٣- أنه يُحَبِّب الإيمان إلىٰ صاحبه ويزيِّنُه في قلبه، ويُكَرِّهُ إليه الكفر والفسوق والعصيان، وييسر للعبد مسلك الطاعة ويضيق عليه مسلك المعصية.

٤- الطمأنينة وانشراح الصدر وثبات القلب عند الشدائد، واليقين والصبر في مسالك الابتلاء، قال تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾.

٥- الأمن التام والاهتداء التام لأهله في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ عنهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

٦- يجعل الله في قلبه من البصيرة والنور ما يحول بينه وبين الفتن، فيرزق بصرًا نافذًا عند ورود الشبهات، وعقلًا واعيًا عند ورود الشهوات، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، وتوحيد الله ﷻ من أعظم التقوىٰ إذ يتقي به العبد أعظم الذنوب وهو الشرك.

٧- أن الله يدافع عن أهله ويكفيهم ما أَهَمَّهُم في الدنيا والآخرة، قال جل شأنه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾. قال ابن القيم: هذه سُنَّة الله في عباده، فما دفعت شداد الدنيا بمثل التوحيد، ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد ودعوة ذي النُّونِ التي ما دعا بها مكروبٌ إلا فرَّج الله كربه بالتوحيد، فلا يلقي في الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها[١].

(١) الفوائد (٦١) ط. دار الكتب العلمية.

٨- أن الموحدين هم أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، وأقرب الناس منه كما ثبت في البخاري عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَن أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قال رسول اللَّهِ ﷺ: «**لَقَد ظَنَنتُ يَا أَبَا هُرَيرَةَ أَن لا يَسأَلُنِي عَن هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنكَ؛ لِمَا رَأَيتُ مِن حِرصِكَ عَلَىٰ الحَدِيثِ، أَسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ مَن قال: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ خَالِصًا مِن قَلبِهِ أَو نَفسِهِ**».

٩- أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها علىٰ التوحيد.

١٠- أن الله يدخل صاحبه الجنة وإن قَصُر عمله، كما في الحديث المتفق عليه: «**من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شرك له، وأن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وأن عيسىٰ عبدُ اللهِ وابنُ أَمَتِهِ وكلمتُهُ ألقَاهَا إلىٰ مريم وروحٌ مِنهُ، وأنَّ الجنَّةَ حَقٌّ وأن النَّارَ حَقٌّ، أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من عمل**». فهذا من أعظم حسنات التوحيد، ومن تمام توفيق الله للعبد أن يوفق لهذا التوحيد في آخر أنفاسه، ويودع به أنفس لحظاته، ولايوفق له في تلك اللحظات إلا من وفقه الله له في حال قوته ونشاطه ورخائه، قال النبي ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» رواه أبو داود (٣١١٦) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

١١- أن الله يحرم وجهه علىٰ النار، فلا يدخلها، وإن دخلها لكثرة معاصيه فلا يُخَلَّد فيها، كما صح من حديث أنس عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قَالَ: «**مَا مِن عَبدٍ يَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ إِلا حَرَّمَهُ الله عَلَىٰ النَّارِ**» متفق عليه.

وفي هذا المعنىٰ قاعدة جليلة، وهي:

- أن ما جاء في النصوص: أنه من أتىٰ بالشهادتين حرمه الله علىٰ النار أو أدخله الله الجنة، أي حَرَّمَهُ الله من الخلود الدائم في النار، وأنه سيدخل الجنة إما ابتداءً، أو بعد أن يدخل النار ويُطهَّر من المعاصي.

- وما ورد فيها: أنه لايدخل الجنة لارتكابه بعض الكبائر، فالمراد: أنه لا يدخلها ابتداء، وإلا فمآله إلىٰ الجنة.

- وما ورد فيها: أنه يخلد في النار لمن وقعت منه بعض الكبائر فالمقصود به خلود دون خلود، وإلا فمآله إلىٰ الجنة.

- قال ابن رجب: المراد من هذه الأحاديث أن (لا إله إلا الله) سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومقتضٍ لذلك، ولكن المقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه وانتفاء موانعه، فقد يتخلف عنه مقتضاه بفوات شرط من شروطه أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن ووهب بن منبه وهو الأظهر اهـ[(١)].

- ما ذكره ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[(٢)]، وملخصه:

أ- أن المؤمن إذا أخلص لله وصدَّق وتيقن فإنه لا يُصِرُّ علىٰ ذنبٍ أصلًا لكمال إخلاصه ويقينه، فإذا قالها علىٰ وجه الكمال المانع

---

(١) «كلمة الإخلاص» (٩-١٠).

(٢) ينظر: «تفسير آيات أشكلت علىٰ كثير من العلماء» لابن تيمية (٣٦٠-٣٦٣)، و«تيسير العزيز الحميد» (٨٧-٨٩) ط. مكتبة العلوم والحكم

من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مُصِرٍّ علىٰ ذنب أصلًا، فيغفر الله له الذنوب ويحرمه علىٰ النار.

ب- وإن قالها علىٰ وجه خَلُصَ به من الشرك الأكبر وحصل له يسير من الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه حسنات راجحة لا يقاومها شيءٌ من السيئات، فالأصغر إذا كان قليلًا في جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث صاحب البطاقة، فيحرم علىٰ النار ويدخل الجنة، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر هذه الذنوب.

ج- وإن قال: لا إله إلا الله، وخلص بها من الشرك الأكبر، وحصل له كثير من الشرك الأصغر، فهذا قد أتىٰ بسيئات رجحت علىٰ حسنة توحيده، هذا مع تلبسه بالأصغر، فهذا يدخل النار حتىٰ يُنَقَّىٰ من سيئاته ثم يخرج منها إلىٰ الجنة؛ لأن سيئاته رجحت فأضعفت إيمانه وتوحيده، ومن كثر منه الأصغر كثرت ذنوبه فأوهنت توحيده، وضَعُف إخلاصه ويقينه، فلم يتأت عليه الوصف المذكور في الأحاديث، كقوله: «**خالصًا من قلبه، دخل الجنة**»، وقوله: «**فإن الله حرم علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله**».

١٢- أنه أعظم حسنة يلقىٰ بها المؤمن ربه، قال تعالىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، الحسنة هي التوحيد، وهي: لاإله إلا الله، والسيئة الشرك، ذكره ابن جرير في تفسيره (٥/٤١٦) ورواه عن سعيد بن جبير وقتادة وعطاء وغيرهم.

١٣- أن المعاصي الكبار تتلاشىٰ أمام حسنة التوحيد، فقد روىٰ مسلم عن أبي ذرٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يقول الله** ﷻ: «**من جاء بالحسنةِ فله عشر أمثالِهَا وأَزِيْدُ**»، وفي آخر الحديث: «**ومن لَقِيَني بِقُرَابِ الأرض خَطِيئةً لا يُشرِكُ بي شيئًا لَقِيتُهُ بمثلِهَا مغفِرَةً**». وقد ثبت في سنن الترمذي (٢٦٣٩) عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْل مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: بَلَىٰ؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ**».

فحسنة التوحيد إذا قويت تنجي صاحبها من دخول النار، فمن نقص إيمانه بسبب معصيته وهو موحِّد، فإنه يشفع له توحيده وحبه لله ورسوله، روىٰ البخاري في صحيحه؛ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أن رجلًا علىٰ عهد النبي ﷺ كان اسمه عَبدُ اللهِ، وكان يُلقَّبُ حِمَارًا، وكان يُضحِكُ رَسولَ الله ﷺ، وكان النبيُّ ﷺ قد جَلَدَهُ في الشَّرابِ، فأُتي به يومًا، فأُمِرَ بِهِ فَجُلِدَ، فقال رجلٌ من القومِ: اللهمَّ العَنهُ، ما أكثر ما يُؤتىٰ به؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**لَا تَلْعَنُوهُ، فواللهِ مَا عَلِمتُ إلا أَنَّهُ يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ**». مع أن شارب الخمر قال فيه النبي ﷺ: «**لا يزني**

الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يَشْرَبُ الخَمْرَ حِين يَشْرَبُهَا وهو مُؤمنٌ». متفق عليه.

كما أن الحسنات العظام تتلاشىٰ وتتهاوىٰ أمام سيئة الشرك، قال الله ﷻ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ وقال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾. وحبط: أي بطل وفسد، فالشرك أعظم السيئات، وسيئته تحيط بصاحبه قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ روىٰ ابن جرير (١/٤٢٨) عن أبي وائل ومجاهد وقتادة وعطاء والربيع: السيئة هي الشرك. وهو مروي عن ابن عباس.

قَالَت عائشة رضي الله عنها: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ ابنُ جُدعَانَ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطعِمُ المِسكِينَ، فَهَل ذَلكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لا يَنفَعُهُ، إِنَّهُ لَم يَقُل يومًا: رَبِّ اغفِر لِي خَطِيئَتِي يومَ الدِّينِ**». خرجه مسلم.

ولكن الله تعالىٰ لعدله يجازي من عمل الحسنات بحسناتٍ يُعطاها في الدنيا إذا كان كافرًا، وما له في الآخرة من نصيب، وقد يعطي اللهُ الكافرَ في الدنيا ما لايعطي المؤمن، لا لكرامة الكافر عنده، ولكنَّ الله شاء أن تكون الدنيا للمؤمن وللكافر، ولأن الكافر قد تكون له أفعالُ خيرٍ يجازيه الله بها في الدنيا ولا حظ له في الآخرة، فعَن أَنَسٍ رضي الله عنه؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنَةً، يُعطَىٰ بِهَا فِي الدُّنيَا وَيُجزَىٰ بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِله فِي الدُّنيَا، حَتَّىٰ إِذَا أَفضَىٰ إِلَىٰ الآخِرَةِ لَم تَكُن لَهُ حَسَنَةٌ يُجزَىٰ بِهَا**». رواه مسلم.

وأما الآخرة فهي خالصة للموحدين المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ وقال ﷺ: «**لا يدخل الجنَّة إلا مؤمن**». رواه البخاري من حديث أبي هريرة وأصله متفق عليه.

وقال الله تعالىٰ: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

- ١٤ -

الدعوة إلى التوحيد

أولًا: الدعوة إلىٰ التوحيد طريق الأنبياء، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾،

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾.

فمن سار علىٰ طريق الأنبياء فعليه بالدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته والإخلاص له وتعظيمه، وإلىٰ تزكية النفس وتطهيرها، ووصلها بالله ﷻ، وصدق التوكل عليه والخشية منه والإنابة إليه ومحبته المحبة الخالصة، وتطهير الاعتقاد، وتنقية الأعمال من شوائب الكفر والشرك والبدع والمعاصي.

وإمام الحنفاء والداعية إلىٰ التوحيد نبي الله إبراهيم عليه السلام دعا قومه إلىٰ التوحيد، وحاور أرباب الكفر والشرك، وأسلم وجهه لله رب

العالمين: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، قال قتادة -في معنىٰ الكلمة-: الإخلاص والتوحيد، لايزال في ذريته من يوحد الله ويعبده اهـ رواه ابن جرير (١١/ ١٧٩).

ومن ذريته يوسف ﷺ، وكان من أمره العجب، فقد كان في أشدِّ الظروف وأقساها، غريب طريد سجين، ومع ذلك يحمل همَّ الدعوة إلىٰ التوحيد والإخلاص، فيقول: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثانيًا: أول ما يبتدأ به الداعية في الدعوة هو الدعوة إلىٰ التوحيد وأصوله، والإيمان وركائزه، وإخلاص الدين لله تعالى مع كمال التعظيم والمحبة لله تعالى وحده لا شريك له، وعلىٰ هذا الطريق سار أنبياء الله ورسله، والنبي ﷺ في أول مبعثه في العهد المكي كان غاية اهتمامه بإرساء قواعد التوحيد والإيمان ومحبة الله وطاعته، والصدق مع الله، والتعلق به، وطلب مرضاته، وإخلاص العمل له ونبذ الشرك، وكان القرآن ينزل بتقرير هذه المعاني العظيمة، حتىٰ لقد مكث ثلاث عشرة سنة وهو يدعو إلىٰ التوحيد، ولم ينزل بعد حلالٌ ولا حرامٌ، ولا فضائل ولا رغائب، وكان إيمان أصحابه يقوىٰ يومًا بعد يوم، فكان يذكرهم الجنة وما أعد الله للصابرين المؤمنين المخلصين الثابتين علىٰ الحق القائمين بالصدق من النعيم الذي لا يحول، والنزل الذي لا يزول، فكانوا في أعلىٰ مقامات الصبر، وكان يمر بآل ياسر وهم يعذبون فيقول: «**ابشروا آل عمار وآل ياسر فإن موعدكم**

الجنة»[1]. ولما قال له عمر رضي الله عنه: فارس والروم فيما هم فيه، وأنت رسول الله. قال له: «**أما ترضىٰ أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة**». متفق عليه.

ولما بعث النبيُّ ﷺ معاذًا رضي الله عنه إلىٰ اليمن قال له: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ..**» متفق عليه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فأول ما يدعو إليه الداعي هو التوحيد والإيمان، وبيان حق الله عز وجل من الإيمان به وحده لا شريك له والإخلاص له ونبذ الشرك بأنواعه وصوره، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والتصديق بكل ما أخبر به النبي ﷺ، وتقرير هذا المبدأ العظيم قبل الدعوة إلىٰ أنواع العبادات وقبل الدعوة إلىٰ الأخلاق والآداب الشرعية، ولا يعني هذا أن الداعي لايبين بعض الواجبات أو بعض محاسن الدين في العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب، وإنما يكون الأهم والأساس في بداية الدعوة تثبيت معالم التوحيد وقضاياه في قلوب المدعوين وحياتهم، ليسهل بعد ذلك الاستجابة لمسائل الحلال والحرام، فإذا ثبت التوحيد وقامت معالم الإيمان في القلب سهل علىٰ الجوارح الاستجابة والانقياد، فالتوحيد شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فكلما كانت أعمق أصلًا، وأقوىٰ جذرًا، آتت أكلها بإذن ربها، وكان ذلك أثبت لها.

---

(١) خَرَّجَهُ الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٣٨٨) من حديث جابر وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٩٣): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

ولذا كان أول ما نزل من الوحي آيات الإيمان والتوحيد وتعظيم الباري جل وعلا والوعد والوعيد، حتىٰ إذا استقر الإيمان في القلوب نزل الحلال والحرام، ففي صحيح البخاري؛ تقول عائشة رضي الله عنها: إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنهُ سُورَةٌ مِن المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّىٰ إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَىٰ الإِسلامِ نَزَلَ الحَلالُ وَالحَرَامُ، وَلَو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: لا تَشرَبُوا الخَمرَ، لَقالوا: لا نَدَعُ الخَمرَ أَبَدًا، وَلَو نَزَلَ: لا تَزنُوا، لَقالوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا. لَقَد نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وَمَا نَزَلَت سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلا وَأَنَا عِندَهُ.

ومن تأمل في آي العهد المكي وجد ذلك ظاهرًا، فلقد كان القرآن يُثَنِّي ويعيد في بيان القضايا الكبرىٰ في العقيدة والإيمان والتوحيد، بتعظيم الله تارة وبقضايا الإيمان وقصص الأنبياء والموحدين تارة وبمشاهد القيامة وإثبات البعث تارة أخرىٰ.

والدعوة إلىٰ كلمة التوحيد مُقَدّمَةٌ علىٰ الدعوة إلىٰ توحيد الكلمة، وإن كانت الدعوة إلىٰ توحيد الكلمة من أهم مقاصد الشريعة، فتوحيد الله تعالىٰ والقيام بشريعته أوجب الواجبات وعليه يجتمع شمل المسلمين وتتوحد كلمتهم ورايتهم، ولن تقوم للمسلمين قائمة ولن يستقيم لهم سبيل إذا كانت دعوتهم إلىٰ توحيد الكلمة والاتفاق والاجتماع مقدم علىٰ الاتفاق علىٰ مبدأ التوحيد والدعوة المحمدية والرسالة الخاتمة ونهج سلف الأمة وصحابتها الكرام، **فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها**، وهذا الإصلاح يبدأ بإصلاح الاعتقاد.

وقد يجد الداعية عند أرباب الضلال من البدع العظام ما يجد في نفسه غضاضة وتكلفًا في دعوتهم ومصادمة ما هم فيه من الشركيات والضلالات، فيأنس ويستروح لأن تكون دعوته في مجال الفضائل والأخلاق والآداب والفقه الذي لا يتصادم مع ما يكون عليه أرباب الباطل من ضلال في الأصول وانحراف في المعتقد، إلا أن أمر الدعوة إلىٰ إصلاح الاعتقاد وإنقاذ الناس من ضلالة الشرك ووحل النفاق ومنحدر البدعة ومستنقع الكفر والإلحاد يجب أن يكون من أولوياته وأصول دعوته، ويتخذ في ذلك من الأساليب والوسائل مايكون أقرب إلىٰ المعروف والحكمة، وأقرب إلىٰ مراعاة مصلحة الدعوة، لئلا تجتث الدعوة إلىٰ العقيدة الصحيحة من جذورها وأصولها بسبب مجازفة بعض من لا يعقل الحكمة في الدعوة، ولا يعقل أهمية الجمع بين فقه المسألة وفقه الواقع.

والمؤمن الداعية إلى التوحيد في بعض الأحوال قد يضطر إلى إخفاء إيمانه أو بعض ما يعتقده، وفي بعض الأحوال قد يضطر إلى تأجيل الدعوة إلى بعض قضايا التوحيد والاعتقاد، فعليه أن يجتهد وينظر إلى ماهو الأصلح لدعوته إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة التي أمر الله بها ورسوله، وأن يجتهد في ذلك، فيغلب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ويقدم المصالح التي تتعلق بالإسلام والمسلمين علىٰ المصالح الشخصية والذاتية.

وقد كان النبي ﷺ بمكة يأمر من أسلم أن يكتم إسلامه حتىٰ يظهر الدين لئلا يؤذىٰ، قال ﷺ: «**يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلىٰ بلدك فإذا بلغك ظهورنا فأقبل**». رواه البخاري، وبنحوه قال لعمرو

بن عَبَسَة رضي الله عنه، رواه مسلم وفي التنزيل: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨].

وقد يبتلى المؤمن في أحوال أخرى ويضطر إلى السكوت عن بعض معتقدات الكفر ومعالمه في الظاهر ومسايرة الواقع المفروض عليه أو قد يظهر منه شيء من ذلك من غير أن يطمئن له قلبه، لدفع مفسدة هي من باب الضرورات، ففي هذه الحالة يجب عليه أن ينظر إلى حقيقة المفسدة وأثرها، فيغلب جانب دفع المفسدة العامة على دفع المفسدة الخاصة، وهذه المفسدة لابد لها من قيود: **أحدها**: أن تكون من باب الضرورات، **الثاني**: أن تكون حقيقية لا متوهمة. **الثالث**: أن تكون عامة، فإن كانت خاصة وذاتية، فيشترط ألا يترتب عليها مفسدة عامة تتعلق بالإسلام والمسلمين، فتدفع المفسدة العامة بارتكاب الخاصة.

فهذا النجاشي لما قدم عليه المسلمون المهاجرون من أذى قريش، ولما دخل الإيمان قلبه لم يهاجر إلى المدينة، وبقي في الحبشة يرعى حال المهاجرين عنده ويحميهم ممن يؤذيهم، فكان أمانا لهم بعد الله عز وجل، فقدم درء المفسدة التي تحيق بالفئة المسلمة التي آواها على مفسدة ترك الهجرة وإخفاء الإيمان وإظهار موافقة نصارى الحبشة، وقد خفيت عليه بسبب ذلك كثير من الشرائع التي كانت تنزل والنبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، وكان في ذلك معذور، ولما توفي النجاشيُّ صلَّى عليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم صلاة الغائب، ولم يصح عنه أنه صلى على غيره هذه الصلاة.

وهذا الإمام أحمد لما حصلت له الفتنة وابتلي بالمحنة لم يستجز لنفسه أن يقول ما لا يعتقده من القول بخلق القرآن، ولو كان ذلك سيؤذيه ويعرضه للعقوبة البالغة من السجن والضرب المجيز للترخص، فقام في ذلك مقام الأنبياء، فالنبي لا يترخص، ولو أخذ بهذه الرخصة لانتشرت الضلالة وظهرت البدعة وخفيت معالم السنة، لأن المفسدة هنا تتعلق بثبات الدين، والإمام أحمد يقول لمن يأمره بالتورية والاعتذار: انظروا إلى من خلف الأبواب. وإذا هم جموع الناس معهم الأقلام يكتبون ما يقول أحمد. فلذلك لم ير الإمام أحمد الأخذ بالرخصة للمصلحة العظيمة التي تتعلق بعموم المسلمين، فكان له أثر في ثبات الدين، حتى قيل عنه: إمام أهل السنة.

وقريب من ذلك ماوقع في قصة غلام الأخدود وثباته حتى قتل، فآثر الوقوع في المفسدة الخاصة والتي فيها قتله وإزهاق روحه على مفسدة إعراض الناس عن دين الله والاستسلام له، فلما أخذ الملك سهما من كنانته وقال: باسم رب الغلام، عرف الناس دينهم وربهم المعبود، وأظهر الله الحق، وإن ذهبت في ذلك نفسه.

فالأصل هو الثبات على التوحيد، والدعوة إليه، والقيام بواجبه، إلا أن الأحوال التي تحيط بالمؤمن والداعية إلى التوحيد قد تتغير فتتغير معها الأساليب والوسائل.

وكم ساوم المشركون رسول الله ﷺ علىٰ ترك بعض ما يدعو إليه، أو إيجاد الحل الوسط -كما يزعمون- لكي تلتقي كلمتهم مع الدعوة التي دعا بها النبي ﷺ ولكنه لم يجبهم إلىٰ ذلك، وقالوا له: إن ما جئت به فرَّق بين القوم وبين الوالد وولده، والأخ وأخيه، وهو

لا يلتفت إلىٰ ما يقولون؛ لأن الاجتماع علىٰ غير التوحيد غير مُراد في دعوته ولا مصلحة من ورائه.

ولله الحمد فإن مسائل التوحيد والعقيدة وقضاياها محل اتفاق بين الصحابة والسلف وأئمة الإسلام في القرون المفضلة، لايختلفون فيها كما يختلفون في مسائل الفقه والفروع، وكانت أمة الإسلام أكثر اجتماعًا وأقل تفرقًا لما كانت مجتمعة علىٰ عقيدتها وأصول دينها، ولما حصلت البدع كالخوارج والسبئية وبعد ذلك المرجئة والجهمية، وتنامىٰ ظهورها، حصل المزيد من التفرق والشروخ في جسد الأمة الإسلامية، فاختلال ميزان الاعتقاد مؤذن بخلل في الاجتماع، ومن ثم حصل التفرق إلىٰ دويلات وافتراقات معلومة ظاهرة في التاريخ.

■ ثالثًا: الدعوة إلىٰ التوحيد تحتاج إلىٰ ركائز:

١- **البصيرة**، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. البصيرة هي: العلم والحكمة، والعلم مطلوب في كل داعية، لأنه يدعو لأمر عظيم، وفيه من يعارضه ويجادله ويثير الشبه في سبيله، فيتعلم الحق ومايضاده، وليكون علىٰ بينة فيما يدعو إليه.

٢- **الحكمة**، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. فهي عامة في الدعوة إلىٰ التوحيد وغيره، فالحكمة مطلوبة، والمقصود بالحكمة: وضع الشيء في موضعه، فلابد لمن يدعو إلىٰ التوحيد أن يتحلىٰ بالحكمة، كي يستجيب له الناس، فمقصود الدعوة أمران: **أحدهما**: إقامة الحجة،

والثاني: إصلاح الخلق. وكلاهما مطلوب، وعلىٰ الداعية أن يوازن بين الأمرين، فلا ينظر إلىٰ أحدهما ويهتم به علىٰ حساب الآخر.

وسيرة النبي ﷺ حافلة بهذا المعنىٰ، فهي مدرسة في الحكمة والوعي وبعد النظر في الدعوة، ولربما أَخَّرَ النبيُّ ﷺ بعض ماليس بواجب متحتِّمٍ لتحقيق مقاصد عظيمة في جمع الكلمة ودرء الفرقة، فمن ذلك:

ترك إعادة بناء البيت علىٰ قواعد إبراهيم لِحَدَاثَةِ عهد قريش بالإسلام فخشي أن تنكره قلوبهم. والحديث في الصحيحين.

ولربما أخر الدعوة والأمر بإزالة مفسدة لدرء مفسدة أعظم منها:

كما في الصحيحين في حديث الرجل الذي بال في المسجد فأمر أصحابه أن يَدَعُوه ولايزرموه، لئلا تحدث مفاسد هي أكبر من هذه المفسدة والتي منها نفور هذا الرجل من الإسلام وربما انتشرت النجاسة في المسجد.

وربما تصرف في المال العام بما يخدم المصلحة العامة من نشر الإسلام وكف أذىٰ الكائدين ومن قد يكون في قلبه مرض أو بقايا من الجاهلية؛ مقدما ذلك علىٰ المصالح الذاتية:

فلقد أعطىٰ المؤلفة قلوبهم من غنائم هوازن يتألف به قلوبهم، ليكونوا عونًا في نشر الإسلام أو كف أذاهم عنه، مع أن ذلك كان محل تعجُّبٍ من الأنصار وغضب من بعض المسلمين، وانتقاد شديد اللهجة من الخوارج.

٣- **معرفة حال المدعو**: فقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب ..**» فلا بدّ من العلم بحال المدعو، حتىٰ يتعرف الداعية علىٰ أفضل السبل في الدعوة، وفرق بين أن يكون المدعو من أهل الكتاب أو من عباد الأوثان.

فإذا علم حال المدعو علم مايحتاجه من أسلوب في الدعوة:

فالناس في الدعوة علىٰ أحوال:

١- من يتعلم الحق ويطلبه فهذا يُدعىٰ بالحكمة.

٢- من يعرف الباطل ولكنه يتبع هواه، فهذا يُدعىٰ بالموعظة الحسنة.

٣- من يعرف الباطل ويكابر ويعاند ويجادل عنه، فهذا يُجادل بالتي هي أحسن.

قال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

رابعًا: أن الداعية إلىٰ التوحيد يصيبه في الغالب أذىٰ من أهل الشرك والكفر ومن ناصرهم، قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، وقال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾.

وفي صحيح البخاري ومسلم أن ورقة بن نوفل قال للنبي ﷺ: لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي.

- ١٥ -

التربية على التوحيد والوصية به

في التنزيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الآيات، وفيها الأثر الجميل الذي يضعه إبراهيم عليه السلام في نفس ولده إسماعيل وهما يقومان بتشييد بيت الله الحرام، ويغرس في قلبه تعظيم الله والإخلاص له بهذا الدعاء العظيم، ومن آثار هذه التربية علىٰ التوحيد: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، ثم تنتقل الوصية بالتوحيد من جيل إلىٰ جيل: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، فتأمل عمق التربية وعظيم التوجيه في التمسك بتوحيد الله والثبات عليه، وعلىٰ هذا النهج سار الأنبياء.

فكان نبينا ﷺ يربِّي شباب الصحابة علىٰ معاني التوحيد والإيمان، ويغرِسُ في قلوبهم تعظيم الله جل وعلا، ويعتني ويستثمر المواقف التي يرىٰ فيها الشباب المؤمن وهو مقبل علىٰ الله ﷻ، فيوجهه إلىٰ طائفة من المعاني الإيمانية، ويُفرِغُهَا في صدره ويملأ بها جوانحه، لكي يكون بعد توفيق الله عمادًا للدين، ورأسًا في العلم، وأكثر ثباتًا علىٰ الحقِّ، ومن تلك المواقف:

١- ما جاء عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قَالَ: كُنتُ رِدفَ النَّبِيِّ ﷺ، لَيسَ بَينِي وَبَينَهُ إِلا مُؤخِرَةُ الرَّحلِ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ**». قُلتُ:

لَبَّيكَ رَسُولَ الله وَسَعدَيكَ. وفيه: قَالَ: «**هَل تَدرِي مَا حَقُّ الله عَلَىٰ العِبَادِ؟**» قَالَ: قُلتُ: اللّه وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَىٰ العِبَادِ أَن يَعبُدُوهُ وَلا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا**». ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، قَالَ: «**يَا مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ**». قُلتُ: لَبَّيكَ رَسُولَ الله وَسَعدَيكَ. قَالَ: «**هَل تَدرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ الله إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟**» قَالَ: قُلتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: «**أَن لا يُعَذِّبَهُم**». وفي رواية: قَالَ: «**مَا مِن عَبدٍ يَشهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ إِلا حَرَّمَهُ الله عَلَىٰ النَّارِ**». قَالَ: يَا رَسُولَ الله؛ أَفَلا أُخبِرُ النَّاسَ فَيَستَبشِرُوا. قَالَ: «**إِذًا يَتَّكِلُوا**». فَأَخبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِندَ مَوتِهِ تَأَثُّمًا. متفق عليه.

٢- وما جاء عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظْ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**». رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حديث حسن صحيح. ورواه أحمد (١/ ٢٩٣) وفيه: قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ**». فَقُلْتُ: بَلَىٰ. فَقَالَ: «**احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ**

كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ الله عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْه، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ الله عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

٣- جاء رجلٌ يقال جُندَبٌ إلىٰ ابن عباس ﵄ فقال: أوصِني. فقال: أوصيك بتوحيد الله والعمل له، وإقام الصلاة وإيتاءِ الزكاة، فإن كل خيرٍ أنت آتيه بعد ذلك مقبول وإلىٰ الله مرفوع[1].

- ١٦ -

وجوب إقامة التوحيد والدفاع عنه

عن أبي هريرة ﵁ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَاستُخلِفَ أَبُو بَكرٍ بَعدَهُ، وَكَفَرَ مَن كَفَرَ مِن العَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لأبِي بَكرٍ ﵄: كَيفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أُمِرتُ أَن أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، فَمَن قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ فَقَد عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفسَهُ إلا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَىٰ اللَّهِ**». فَقَالَ أَبُو بَكرٍ: وَاللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَن فَرَّقَ بَينَ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَو مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلتُهُم عَلَىٰ مَنعِهِ. فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إلا أَن رَأَيتُ اللَّهَ ﷻ قَد شَرَحَ صَدرَ أَبِي بَكرٍ لِلقِتَالِ فَعَرَفتُ أَنَّهُ الحَقُّ. متفق عليه.

---

(١) «البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/١٠٦) ط. دار هجر.

وروىٰ البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمِرتُ أن أُقَاتِلَ الناسَ حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قَالوهَا، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا، فقد حَرُمَتْ علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقِّهَا، وحسابهم علىٰ الله**».

قال سليمان بن عبد الله: وقد أجمع العلماء علىٰ أن من قال لا إله إلا الله وهو مشرك أنه يقاتل حتىٰ يأتي بالتوحيد اهـ(١).

قال ابن تيمية: كل طائفة ممتنعة من التزام شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم أو غيرهم، فإنه يجب قتالهم حتىٰ يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين ملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وعلىٰ ذلك اتفق الفقهاء بعدهم، قال: وهؤلاء عند المحققين من العلماء ليسوا بمنزلة البغاة الخارجين علىٰ الإمام أو الخارجين عن طاعته، قال: فهم خارجون عن الإسلام بمنزلة مانعي الزكاة اهـ(٢) . .

- ١٧ -

مقاصد التوحيد

معنىٰ المقاصد في اللغة: جمع مَقْصَد؛ من قَصَدتُ الشيء له وإليه: طلبتُهُ بعينِهِ، وإليه قصدِي ومقصَدي -بفتح الصاد-،

(١) «تيسير العزيز الحميد» (١٤٨) ط. مكتبة العلوم والحكم.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٥٠٢-٥٠٣-٥٠٤) وانظر السابق (١٤٩).

واسم المكان -بكسرها-[1].

والقَصْدُ: إتيان الشيء، والقصد: الاعتماد والأَمُّ، والقصد: استقامة الطريق، والقصد: العدل[2].

فيكون معنىٰ القصد: التوجه نحو الشيء في اعتدال واستقامة.

والمقصِد -بالكسر- هو الشيء الذي يُقصد ويُرادُ ويُطلب حسيًا كالمكان، أو معنويًا كالرأي والقول والمعتقد.

وأما في الاصطلاح: فقد عُرِّفت المقاصد بأنها: المعاني والحكم والغايات العامة الملحوظة في جميع أحوال التشريع أو معظمها.

أو هي الغاية من الشريعة، والأسرار التي وضعها الشارع وتُلحظ عند كل حكم من أحكامها[3].

ومن الألفاظ التي لها صلة بالمقاصد وقد يعبر بها عنها: المعاني، والغايات، والأهداف، والمصالح، والحِكَمُ، والأسرار، والعلل، والأوصاف المناسبة، والمنطلقات، والكليات.

وقد تتبع كثير من أهل العلم مقاصد الشريعة في الأحكام والقواعد والأصول، فتكلموا عنها، وعن قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد، وتكلموا أيضا عن المصلحة وأنواعها.

---

(١) «المصباح المنير» للفيومي (٢/ ٥٠٥).

(٢) ينظر: «لسان العرب» لابن منظور (٣/ ٣٥٣).

(٣) ينظر: «مقاصد الشريعة الإسلامية» د. محمد اليوبي (٢٥-٣٧) ط. دار الهجرة.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قومًا من الخائضين في أصول الفقه، إذا تكلموا في المناسبة -وأن ترتيب الشارع للأحكام علىٰ الأوصاف المناسبة يتضمن تحصيل مصالح العباد ودفع مضارهم ورأوا أن المصلحة نوعان أخروية ودنيوية- جعلوا الأخروية ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية ما تضمَّن حفظ الدماء والأموال والفروج والعقول والدين الظاهر، وأعرضوا عما في العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله تعالىٰ وملائكته وكتبه ورسله وأحوال القلوب وأعمالها؛ كمحبته وخشيته وإخلاص الدين له والتوكل عليه والرجاء لرحمته وغير ذلك من المصالح في الدنيا والآخرة، ثم قال: ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من المصالح[(١)].

فذكر رحمه الله جملة من مقاصد العبادات الشرعية التي تتعلق بالتوحيد والإيمان والإخلاص والمحبة والتوكل.

ويمكن أن نعطي مفهوما إجماليًا **لمقاصدِ التوحيد** بأنها: **الحِكَمُ والغايات والمصالح التي اشتملت عليها أدلة التوحيد وأصوله وأحكامه ومسائله.**

ومن خلال ذلك يمكن معرفة مقاصد التوحيد:

فأولًا: الحِكَمُ: وهي المعاني التي من أجلها أمر الله عز وجل بالتوحيد، ويتبع ذلك العلل والأسرار التي أودعها الله جل وعلا فيما أمر به ونهىٰ عنه في مسائل التوحيد وأحكامه.

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٣٢/ ٢٣٤).

وثانيًا: الغايات: وهي الأهداف والمقامات والمنازل التي يحققها التوحيد في أهله ومن قام به اعتقادًا وقولًا وعملًا، في الدنيا والآخرة، سواء كانت هذه الغايات قريبة -جزئية- أو بعيدة -كلية-، وكلما ابتعدت الغايات كانت أوسع في كليتها وشمولها، وكلما اقتربت كانت أضيق.

وثالثًا: المصالح: وهي مايحققه التوحيد من جلبٍ لمصالحِ الدنيا والآخرة ودرءٍ لمفاسدهما.

وهذه الأمور الثلاثة قد تتداخل في بعض معانيها ومايلحق بها ويتفرع عنها.

وتجتمع مقاصد التوحيد في نوعين من المقاصد عظيمين:

الأول: تحقيق الإيمان بالله تعالىٰ وطاعته ومحبته وخوفه ورجائه ودعائه والتوكل عليه والإيمان بما تدل عليه أسماؤه وصفاته فهذه هي أصول المقاصد، ومن فروعها التوسل والشفاعة والذبح والنذر.

النوع الثاني: البعد والحذر من نواقض التوحيد والإيمان، وأصول هذه النواقض هي: الشرك والكفر والإلحاد.

وثمة أمور تقدح في التوحيد والإيمان، وأمور تعتبر من وسائل النواقض والقوادح، جاء الشرع بالتحذير منها حماية للتوحيد.

ومقاصد التوحيد هي مقاصد كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله.

قال ابن رجب: قول العبد: لا إله إلا الله، يقتضي أن لا إله له غير الله، والإله هو الذي يُطاع فلا يُعصىٰ هيبةً له وإجلالًا، ومحبةً وخوفًا ورجاءً، وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه، ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ، فمن أشرك مخلوقًا في شئ من هذه الأمور التي هي

من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

ثم قال: ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك علىٰ كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه أو التوكل عليه والعمل لأجله، كما ورد في [حديث] صحيح إطلاق الشرك علىٰ الرياء، وعلىٰ الحلف بغير الله، وعلىٰ التوكل علىٰ غير الله والاعتماد عليه، وعلىٰ من سوَّىٰ بين الله وبين المخلوق في المشيئة، مثل أن يقول: ماشاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: مالي إلا الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقىٰ المكروهة.

ثم قال: ولهذا أطلق الشرع علىٰ كثير من الذنوب التي منشؤها من اتباع هوىٰ النفس بما هو كفر وشرك كقتال المسلم اهـ[(١)].

- ١٨ -

مقاصد التوحيد الكلية الإجمالية

■ **ينظر إليها بالاعتبارات التالية:**

الاعتبار الأول:

بالنظر إلىٰ المقصد الكلي للتوحيد والوحدانية وهو: إخلاص

(١) «كلمة الإخلاص» لابن رجب (١٨-١٩) ط. المؤيد.

الدين لله تعالىٰ، فالله تعالىٰ هو المقصود وهو المعبود، ومقاصد التوحيد تجتمع في قصده وحده لا شريك له والفرار إليه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ ولا يتم الإخلاص إلا بأمرين: أحدهما: الإيمان بالله، والثاني: إفراد الله تعالىٰ بهذا الإيمان فإذا اجتمع النفي والإثبات تحقق التوحيد، وهو معنىٰ شهادة التوحيد: «لاإله إلا الله».

فأعظم مقاصد التوحيد: إخلاص الدين لله.

وغايته: تعظيم الله تعالىٰ وتنزيهه وتقديسه.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾.

ولهذا وصفت كلمة التوحيد بأنها «كلمة الإخلاص»، وسُمِّيت سورةٌ هي من أعظم سور القرآن سورة الإخلاص، والتي تعدل ثلث القرآن.

ودلَّت سورة الإخلاص علىٰ هذا المقصد العظيم، حيث افتتح الله جل شأنه السورة بالأمر بالتوحيد: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذكر الله ﷻ أنه الواحد الأحد، وأنه الصمد الذي تتجه إليه الخليقة في حاجاتها، وحده دون غيره، فيرغب العبد إلىٰ ربه الذي ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ فهو لكماله وعظمته منزه عن الحاجة للوالد والولد، ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾، أي لا نظير له ولا ند له ولا مثيل.

وآية الكرسي أعظم آية في القرآن، لما فيها من التوحيد والإخلاص والثناء علىٰ الله بالوحدانية والقيومية وملكه وعلمه الشامل، وفي سورة الإخلاص نفي للوالد والولد وفي آية الكرسي نفي

للسِّنَةِ والنوم، لأن ذلك إنما يوصف به المخلوق الضعيف المحتاج، ويُنَزَّهُ عنه الخالق الكامل المعبود، فإذا أخلص العبد لله تعالىٰ في صفاته أخلص له في عبادته، وفي الحكم والتحاكم إليه، وأخلص له في الإيمان والشرع والقدر.

الاعتبار الثاني:

بالنظر إلىٰ المقصود بالتوحيد وهو الرب المعبود سبحانه، فمن مقاصد التوحيد:

١- إجلال الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته ونعوت كماله، وحمده وتمجيده والثناء عليه وإفراده بذلك.

٢- تنزيه الله ﷻ وتقديسه عن كل نقص بأي وجه من الوجوه.

٣- تعظيم الله ﷻ وحده التعظيم الذي يليق بكونه الإله المعبود، فلا يعظم غيره كتعظيمه ولا يستحق أحدٌ العَظَمَةَ المطلقةَ إلا الله تعالىٰ، فهو المتفرِّدُ بها.

٤- اعتقاد أن الله جل وعلا له الحكم المطلق في الشرع والقدر وله حق الطاعة والتشريع فلا يتحاكم إلىٰ غير شرعه.

٥- أنَّ الله تعالىٰ هو الرب وهو الخالق الملك المتصرف.

الاعتبار الثالث:

بالنظر إلىٰ الموحِّد وهو المكلف، فمن مقاصده:

١- تذلل العبد لربه سبحانه تذللا ينقاد معه لأمره ونهيه، وعبادته وحده لا شريك له.

٢- الخضوع لله جل وعلا، خوفا ورجاء ورغبة ورهبة.

٣- محبة الله جل وعلا ومحبة ما يحبه الله وبغض ما يبغضه الله.

٤- تَعلُّق العبد بربه جل وعلا فيما يخافه ويرجوه، وأن يسلم وجهه لله رب العالمين في كل أحواله، في حياته ومماته.

٥- الإقرار والإذعان والتسليم بكل ما جاء عن الله تعالىٰ.

الاعتبار الرابع:

بالنظر إلىٰ ما يحققه التوحيد من المصالح وما يدرؤه من المفاسد:

وفيه مقصدان:

المقصد الأول: توحيد الله ﷻ فيه جلب أعظم مصلحة ومنفعة في الدنيا والآخرة ألا وهي: هداية العباد لربهم ﷻ، وذلك بإيمانهم به واستسلامهم له، وذلهم وخضوعهم وانقيادهم له في الظاهر والباطن، وأن يسلم العبد وجهه لله رب العالمين، وتحقيق الغاية العظيمة والهدف السامي من خلق العباد.

وقد دلَّ علىٰ هذا المقصد العظيم سورة الفاتحة، التي هي أعظم سورة في القرآن، والتي افتتح الله بها كتابه العزيز، وافتتحها بربوبيته فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثم ثنىٰ بأسمائه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ثم ببيان ألوهيته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ثم بين المقصد العظيم من ذلك: وهو الهداية

لصراطه المستقيم وتجنب طريق المنحرفين المغضوب عليهم والضالين.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾.

فمن مصالحه الدنيوية والأخروية: الرفعة والأمن والاهتداء والطمأنينة، والفوز بالجنة والسعادة والرضا في الدنيا والآخرة ومحبة الله ﷻ، وغير ذلك مما سبق ذكره.

ولذا فإن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد، وأعظم مانهىٰ الله عنه هو الشرك.

المقصد الثاني: درء أعظم مفسدة في الدنيا والآخرة ألا وهي مفسدة الشرك والكفر والتعلق بغير الله وعبادة غير الله، أو التكذيب بالحق الذي جاء به الإسلام أو الشك فيه أو الإعراض عنه ونحو ذلك، فجاء التوحيد بقطع العلائق وتجنب العوائق والحذر من النواقض والقوادح التي تمنع من هذه الهداية وتقف حائلًا دونها.

ومن مفاسد الشرك والكفر والإلحاد: الذلة والهوان للمعبودات سوىٰ الله، وأسر النفس بأغلال الهوىٰ والشهوات، والخوف من الحرمان وانعدام الأمن النفسي والداخلي والخوف والقلق من مستقبل الحياة، والمعيشة الضنك، والشقاء في الدنيا والآخرة، وقتل الفطرة والخروج عن مسارها.

وقد دلَّ علىٰ هذا المقصد كثيرٌ من سور القرآن بذكر أحوال الأمم الماضية، وما كانت عليه من الشرك والكفر والتحذير من سلوك

سبيلها، وقد أدركهم العذاب، وأحاطت بهم خطاياهم، كما جاءت آيات أخر في بيان حال من أعرض عن ذكر الله ولم يشرح الله صدره للإسلام قال تعالى ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

الإيمان

- ١ -

الإيمان إقرار وإذعان

الإيمان هداية للقلوب، وطمأنينة للنفوس،

وقُربَةٌ يتقرب بها العبدُ لربه ومولاه،

فيذعن له حبًا وطاعةً، وينقاد لأمرِهِ طلبًا لرضاه بقلبه وجوارحه،

المؤمن من آمن بالله وأمِنَهُ الناس، وأسلم وجهه لله في مماته ومحياه،

نادىٰ الله بالإيمان أهله وأولياءه فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾،

ووصف به أهل النجاة فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

وعلَّق علىٰ وجوده أعمال القلوب، فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

فالإيمان من **الأسماء الشرعية** التي وردت في الكتاب والسنة كثيرًا، ويترتب علىٰ هذا الاسم أحكام عظيمة، قال ابن رجب: وهذه

المسائل -أعني مسائل الإسلام والإيمان والكفر والنفاق- مسائل عظيمة جدًا، فإن الله ﷻ علَّق بهذه الأسماء السعادة والشقاوة، واستحقاق الجنة والنار، والاختلاف في مسمياتها أول اختلاف وقع في هذه الأمة اهـ[(١)]، وقال ابن تيمية: فإن الخطأ في اسم الإيمان ليس كالخطأ في اسم مُحْدَثٍ ولا كالخطأ في غيره من الأسماء، إذ كانت أحكام الدنيا والآخرة متعلقة باسم الإيمان والإسلام والكفر والنفاق اهـ[(٢)].

وأوَّل خلاف وقع في أهل الإسلام كان في معنىٰ الإيمان، ونتج عن هذا الخلاف ظهور بعض البِدَع؛ كبدعة الخوارج والمعتزلة من جهة؛ وبدعة المرجئة والجهمية من جهة أُخرىٰ، فكلٌّ إفراطٍ يقابله تفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، قال مطرف بن عبد الله: الحسنة بين سيئتين اهـ[(٣)].

فلابد من توضيح **معنىٰ الإيمان في اللغة والشرع**، لأن هذا هو الأصل في معرفة ما تدل عليه ألفاظ الكتاب والسنة، ثم ينظر بعد ذلك فيما اصطلح عليه أرباب المعاني والفنون، ما لم تكن هذه المصطلحات مبنية علىٰ معتقداتهم وفهومهم ومناهجهم التي تخالف الكتاب والسنة، وإنما يحتاج مع ذلك إلىٰ الاستدلال لها بأدلة الكتاب والسنة.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١١٤) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٣٩٥).

(٣) ينظر: «الجامع» للقرطبي (٦/ ٢١)

قال جمهور أهل اللغة: الإيمان في لغة العرب هو التصديق، فتقول: آمن؛ أي صدّق.

والذي عليه المحققون من أهل اللغة والشرع: **أن الإيمان أَخَصُّ من مطلق التصديق، فهو تصديق خاص**[(١)]، مأخوذ من الأَمْنِ، وفيه معنىٰ الطمأنينة، فهو: إقرارٌ مع إذعانٍ وانقيادٍ، وإلا لم يكن صاحبه مؤمنًا مقرًا في الحقيقة[(٢)]، فمن آمن بشيء فهو آمِنٌ مطمئنٌ بما يؤمن به، فليس الإيمان مرادفًا للتصديق من كل وجه، فإن الفعل منه يتعدىٰ باللام والباء ولا يتعدىٰ بنفسه، فتقول: آمن له وآمن به، ولاتقول: آمنه. وأما التصديق فإنه يتعدىٰ بنفسه فتقول: صدقته، وفي قولنا: آمن له؛ تضمين لمعنىٰ: انقاد له، وآمن به: وثق به واطمأن. فَعُلِمَ من ذلك أن الإيمان ليس هو التصديق فقط، بل هو تصديق يجعل من صاحبه مُقِرًّا مذعنًا. قال في لسان العرب: حدَّ الزجاجُ الإيمان فقال: الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولِمَا أتىٰ به النبي ﷺ، واعتقاده وتصديقه بالقلب، فمن كان علىٰ هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شاكٍّ، وهو الذي يرىٰ أن أداء الفرائض واجب عليه لا يدخله في ذلك ريب اهـ وفيه أيضًا: قالوا للخليل: ماالإيمان؟ قال: الطمأنينة اهـ[(٣)]

---

(١) ينظر: «شرح السفارينية» للسفاريني (١/ ٤٠٤) ط. المكتب الإسلامي، و«شرح الطحاوية» للبراك (٢٣٠) ط. دار التدمرية.

(٢) ينظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (١/ ١٥٧)، و«الإيمان» لأبي عبيد (٥٤-٥٥-٦٦) ط. دار الأرقم.

(٣) «لسان العرب» (١٣/ ٢٣-٢٤) مادة (أمن).

ثم إن الإيمان إنما يكون في الإخبار عن الأمور الغائبة التي يؤتمن عليها المخبر، وهي أمور يدخلها الشك ويصاحبها الريب فيجيء الإيمان قاطعًا لهذا الريب والشك، بخلاف الأمور المشاهدة، فتقول -لمن قال: طلعت الشمس-: صَدَّقتك، ولا تقول آمنتك.

ويدل علىٰ ذلك أيضًا: أن التصديق يقابله التكذيب، وأما الإيمان فيقابله الكفر، ولهذا لا يمكن أن يفسر التصديق بالإيمان فلا يقال: صدقه، أي آمنه.

ثم إن التصديق إنما يكون للخبر فقط، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب التصديق، والأمر يستوجب الانقياد.

- ٢ -

معنى الإيمان في الشرع

وأما معنىٰ الإيمان في الشرع فهو: قول وعمل واعتقاد.

قول: اللسان، **واعتقاد**: القلب، **وعمل**: القلب والجوارح.

ويؤيده ما سبق في اللغة، وقد اتفق السلف علىٰ أن الإيمان: قول وعمل، حكىٰ إجماعَهُم الشافعيُّ فقال: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدِهِم وممن أدركناهم أن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحدٌ من الثلاثة بالآخر اهـ[(١)] وحكاه أبو ثور أيضًا[(٢)]،

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنه والجماعة» للالكائي (٥/ ٨٨٦-٨٨٧).

(٢) «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن رجب (١/ ٥).

وقال الأوزاعي: كان من مضىٰ لايفرقون بين الإيمان والعمل اهـ[(١)]

وقد ذكر ابن عبد البر في التمهيد إجماع أهل الفقه والحديث علىٰ ذلك إلا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه، فإنهم ذهبوا إلىٰ أن الطاعات لا تسمىٰ إيمانا، قال: وأما سائر أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر، قالوا: الإيمان قول وعمل، قول باللسان، وهو الإقرار، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح اهـ[(٢)]

وعليه؛ فالإيمان: إقرار وإذعان، إقرار بالقلب واللسان بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وبالملائكة والنبيين والكتب المنزَّلَة واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وإذعان واستسلام وانقياد لله تعالىٰ بالطاعة والعبادة والتسليم.

- ٣ -

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾

إن المتأمل في أركان الإيمان وركائزه الستة يجد أن معظمها من الإيمان بالغيب الذي امتحن الله به عباده وأثنىٰ علىٰ المتصفين به، فلما ذكرالله المتقين وصفاتهم بدأ بهذه الصفة فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ وماذاك إلا لعظم شأنها، ولأن من اتصف بها فهو أعظم يقينًا وإيمانا بما سواها، فهي

(١) السابق.

(٢) «التمهيد» (٩/ ٢٣٨).

أصل الإيمان والفارقة بين الكائنات وبني الإنسان، فالإنسان ركب الله فيه من العقل والفكر ما يدرك به ما وراء المحسوسات، وهذا من التكريم الذي كرم الله به بني آدم، ولذلك امتحنهم الله بالإيمان بالغيب.

- ٤ -

أركان الإيمان وركائزه

قد بيَّنها النبي ﷺ في حديث جبرائيل المشهور في الصحيحين عن أبي هريرة، وفي صحيح مسلم عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ وهي:

أولًا: وهو أعظمها، الإيمان بالله تعالىٰ، ويتضمن: الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته.

ثانيها: الإيمان بالملائكة، إيمانًا مجملًا، وإيمانًا مفصَّلًا وبما ورد من أسمائهم وأعمالهم وصفاتهم ونحو ذلك.

ثالثها: الإيمان بالكتب المنزلة، إيمانًا مجملًا ومفصَّلًا وبما ذكر من أسمائها، وأنها مُنَزَّلَةٌ من عند الله وأنها حقٌّ وصدقٌ، وأما العمل بها فإن القرآن العظيم جاء ناسخًا لما قبله من الرسالات والكتب ومهيمنًا عليه؛ أي مشتملًا عليه، فلا عمل صحيح ومقبول عند الله إلا بشريعة محمد ﷺ.

رابعها: الإيمان بالرسل والأنبياء، إيمانًا مجملًا، وإيمانًا مفصَّلًا وبما ورد من أسمائهم وأقوامهم ومعجزاتهم ونحو ذلك.

خامسها: الإيمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت، وما جاء من أخبار الساعة وما بعدها، إيمانًا بكل ما ورد في ذلك وصحَّ من أخبار.

سادسها: الإيمان بقضاء الله وقدره؛ المشتمل علىٰ المراتب التالية: الإيمان بعلم الله، وخلق الله للخلق، ومشيئة الله التي فوق كل مشيئة، وأن الله كتب ذلك قبل خلق السموات والأرض.

وقد فصَّل أهل العلم في بيان هذه الأركان، وآثارها.

- ٥ -

الإيمان قول وعمل

وعلىٰ هذا أجمع سلف الأمة، وسبق ذكر ذلك.

و«**القول**» هنا المُراد به أمران:

١- **قول اللسان**، بأن ينطق بالشهادتين وما يتبعها.

٢- **قول القلب**، وهو الإقرار والتصديق بالقلب مع عدم الشك والريب، ومنهم من يعبر عنه بقوله: اعتقاد، فيقول: الإيمان قول وعمل واعتقاد. ومنهم من يعبر عنه بقوله: نية، فيقول: قول وعمل ونية.

و«**العمل**» المُراد به أمران:

١- **عمل القلب**، وهو انقياد القلب واستسلامه لأمر الله

ورسوله، ويدخل في ذلك أعمال القلوب كالمحبة والخوف والرجاء، والرضا والصبر.

٢ - **عمل الجوارح**، كالصلاة والزكاة وغيرها من الفرائض.

وقد روىٰ البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلىٰ صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تَخفُرُوا الله في ذمته**». أي: لاتغدروا.

والإيمان متضمنٌ لعمل الجوارح من وجوه:

أحدها: أنه إذا لم يوجد عنده جنس العمل الصالح فصاحبه ليس بمؤمن أصلًا، كمن لايصلي ولايزكي ولايعمل من الصالحات شيئًا.

الثاني: من حيث الترك، فإن من الأعمال ما ينقض أصل الإيمان -كما سيأتي في النواقض العملية- فقد يترك عملًا أُمِر بفعله كالصلاة فيكفر، أويعمل عملًا أُمِر بتركه فيكفر، مثل فعل الشرك والاستهزاء والسحر.

الثالث: أن العمل يزيد الإيمان وينقصه، فيزيد بفعل الطاعات والصالحات، وينقص بفعل المعاصي والسيئات.

الرابع: أن الإيمان يتعلق ظاهره بباطنه، وباطنه بظاهره، فإذا ضعف القول والعمل الباطن المتعلق بالقلب ضعف القول والعمل الظاهر المتعلق باللسان والجوارح.

- ٦ -

علاقة الظاهر بالباطن

فأهل السنة والجماعة يرون أن الظاهر والباطن كله داخل في مسمىٰ الإيمان، وأن هنالك علاقة بين الظاهر والباطن:

فالظاهر هو قول اللسان وعمل الجوارح.

والباطن هو قول القلب وعمل القلب.

ولذا فإن الباطن يتأثر بالظاهر، والقلب تصدقه الجوارح، وكذا الظاهر يتأثر بالباطن، والباطن وقود الظاهر، فبينهما علاقة وارتباط في زيادة الإيمان ونقصانه، وهذا هو الحق الذي تدل عليه النصوص الشرعية ولا تختلف فيه، فأي تغيِّر في الباطن يظهر علىٰ الجوارح كما أن أي تغير في الظاهر يدل علىٰ الباطن، والتصديق الذي هو قول القلب يتفاوت كمالًا ونقصانًا، فليس تصديق الصديقين كالصالحين، وليس تصديق الصالحين كالغافلين، وهذا يظهر ويتجلَّىٰ عند الفتن؛ فتن السراء والضراء، فتنة الشبهات والشهوات، قال النووي: التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوىٰ من إيمان غيرهم بحيث لاتعتريهم الشُّبَه، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لاتزال قلوبهم منشرحة نيَّرة وإن اختلفت عليهم الأحوال، وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك، فهذا مما لايمكن إنكاره ولايتشكك عقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لايساويه تصديق آحاد الناس، ولهذا قال البخاري في صحيحه: قال

ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، مامنهم أحد يقول إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل، قال النووي: وأما إطلاق اسم الإيمان علىٰ الأعمال فمتفق عليه عند أهل الحق اهـ[(١)].

قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب. قال ابن تيمية: فلابد فيه من عمل القلب وقوله، ثم قول البدن وعمله لابد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله وخشية الله، قال: ثم القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرىٰ ذلك إلىٰ البدن بالضرورة، لايمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب اهـ[(٢)].

يبين ذلك: ما جاء في الصحيحين من حديث الشبهات عن النعمان ابن بشير رضي الله عنهما مرفوعًا وفي آخره: «**أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضغَةً إِذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلبُ**».

ولا يخفىٰ أثر المعاصي علىٰ ضعف اليقين، والإيمان، وسبق حديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . . .**».

يوضح ذلك: أنه كلما قوي النفاق المتعلق بأعمال القلب قوي النفاق المتعلق بأعمال الجوارح، والعكس، وكان لذلك أثرٌ علىٰ قول القلب، ولذلك كان أهل النفاق هم أكثر الناس شكًا وحيرة واضطرابًا، وفي قبره يُسأل فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته.

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ١٠٥) ط. دار المعرفة.

(٢) «الإيمان» لابن تيمية (١٧٦) ط. المكتب الإسلامي.

وإذا قوي الإيمان المتعلق بأعمال القلب قوي الإيمان المتعلق بأعمال الجوارح، وكان لذلك أثرٌ كبيرٌ علىٰ قول القلب ويقينه، فكلما عظم الإخلاص والخشوع والخشية في قلب العبد كلما زاد إخباته لربه، وتعلقه به وانقادت له الجوارح بالعمل الصالح، وكلما زاد يقينه كلما زاد صبره وثباته، فهو يجمع بين العلم الإلهي والعمل الصالح كالصدقة وبر الوالدين وصلة الرحم ونفع الخلق وتعليم الناس، وغيرها من أعمال الجوارح، ومن تأمل حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله -كما في الصحيحين- وجد عمق العلاقة بين الظاهر والباطن، فالشاب الذي نشأ في عبادة الله انقاد لربه مع أن نفسه تدعوه في زمن الشباب إلىٰ التصابي، وإمام عادل اختار العدل وقسر نفسه عليه، رغم أن نفسه بحكم ظهوره وقوته وسلطانه تدعوه إلىٰ شهوة البطش والقوة والظلم، ورجل معلق قلبه في المساجد فأحب المسجد وأحب البقاء فيه متعبدا متخشعًا متبتلًا، رغم أن النفس تميل إلىٰ اللهو وغيره، ورجل منعه الخوف من الله أن يواقع معصية يدعوه داعي الهوىٰ إليها وتأزه النفس الأمارة بالسوء إلىٰ مقارفتها؛ فكيف وقد تهيأت له أسبابها، ورجل أخفىٰ صدقته رغم حب النفس لإشهارها وإظهارها، وحب ثناء الناس علىٰ بذل المال أمر محبوب للنفس، ويأنس به أهل الثراء ويرجوه أرباب الغنىٰ، وأما السابع فرجل خاف الله، ووجل منه، وامتلأ قلبه بحبه فأسعدته عينه ببريق الدمع يفيض من مآقيه لما ذكر الله خاليًا، فهؤلاء لما انقادت نفوسهم للحق وكان الإيمان قائدها ودليلها انقادت جوارحهم رغم منازعتها النفس وشهواتها، وكان الإيمان والإخلاص والخوف والخشية التي هي من عمل القلب هي

الحَكَمُ في هذه المنازعة، فأسلمت وجهها واستسلمت جوارحها لله رب العالمين.

بل حتىٰ الجوارح الظاهرة تستكين للقلب وتخشع لخشوعه، رأىٰ ابن المسيب رجلًا يعبث بلحيته في الصلاة، فقال: إني لأرىٰ هذا لو خشع قلبه خشعت جوارحه. رواه عبد الرزاق **(٣٣٠٨)** عن معمر عن أبان عنه.

- ٧ -

الإرجاء في معنى الإيمان

الإرجاء هو التأخير، وسمي المرجئة بذلك لأنهم أرجأوا العمل؛ أي أخروه وأخرجوه عن مسمىٰ الإيمان، **وهو من الأقوال البدعية**، وقد ظهرت المرجئة بعد منتصف القرن الأول.

ومقصدهم في ذلك مقابلة بدعة الوعيدية من المعتزلة والخوارج، فجاءوا ببدعة أخرىٰ، فالخوارج كفروا أهل الذنوب، وجعلوا الإيمان شيئًا واحدًا يزول بالكبيرة ولا ينقص، وهؤلاء قالوا: الإيمان شيء واحد، لا يزول ولا ينقص بفعل الكبائر أو ترك الفرائض ولو كانت المعصية مكفرة، فأرادوا إثبات الإيمان لأهل الذنوب، ولكنهم أسرفوا في القول فأضعفوا جانب الوعيد، ولم يكفروا بالذنوب التي ثبت في الشرع التكفير بها، واحتاجوا مع ذلك أن يخرجوا الأعمال عن مسمىٰ الإيمان، وأيدوا مقولتهم، وأصلوا مذهبهم فقالوا: الإيمان في اللغة مجرد التصديق، قالوا: وكذلك هو في الشرع: تصديق القلب.

هذا هو حقيقة كلام المرجئة، وقالوا: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لا يتفاضل ولا يتبعض، إيمان أحدهم كإيمان جبريل وميكال وكإيمان الرسل وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، لا يكفر أحد بذنب -أيَّ ذنب- مالم يستحِلَّهُ، ونصوص الوعيد محمولة علىٰ التهديد الذي لا حقيقة له، ولا يضُرُّ مع الإيمان معصية، كما أنه لاينفع مع الكفر طاعة. هذا مجمل قولهم، وهم في ذلك مراتب وطوائف.

وهذا كله مخالف لنصوص الشريعة المتكاثرة، ولمنهج السلف الذي تظاهرت عليه أقوالهم.

■ والمرجئة طوائف:

الأولىٰ: مرجئة الفقهاء، وقد نقل ابن عبد البر عنهم أنهم يقولون: إن الطاعات -كالصلاة والصيام وغيرها- لا تسمىٰ إيمانًا، فأخرجوا أعمال الجوارح عن مسمىٰ الإيمان، وهؤلاء هم أقرب الطوائف لقول السلف، وهو ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه، وهو قول حماد بن أبي سليمان، شيخ أبي حنيفة، وخالف في ذلك شيخَهُ إبراهيمَ النخعي فقد كان من أشد الناس قولًا في الإرجاء، وخالف أيضًا أصحَابَهُ؛ قال معمر: قلت لحماد: كنت رأسا وكنت إمامًا في أصحابك، فخالفتهم فصرت تابعًا؟! قال: إني لأن أكون تابعًا في الحق خيرٌ من أن أكون رأسًا في الباطل. قال الذهبي: يشير معمر إلىٰ أنه تحول مرجئًا إرجاء الفقهاء، وهو أنهم لا يعدُّون الصلاة والزكاة من الإيمان، ويقولون: الإيمان إقرار باللسان ويقين في القلب، والنزاع علىٰ هذا لفظي إن شاء الله، وإنما غلوُّ الإرجاء من قال:

لا يضرُّ مع التوحيد ترك الفرائض اهـ[(١)]. وذهب شارح الطحاوية إلىٰ أن الخلاف بين هؤلاء وقول السلف خلاف لفظي صوري[(٢)]، والنزاع هنا مع طائفة من أهل السنة في فهم حقيقة الإيمان.

ومع أن الخلاف قد يكون لفظيًا مع هذه الطائفة من المرجئة إلا أن السلف ذموا هذا القول ذمًّا شديدًا، وأشتدَّ نكيرهم له لما علموا من أنه يفتح بابًا أمام أهل الباطل، قال ابن تيمية: ولهذا دخل في إرجاء الفقهاء جماعة هم عند الأئمة أهل علم ودين، ولم يكفِّر أحدٌ من السلف أحدًا من مرجئة الفقهاء، بل جعلوا هذا من بدع الأقوال والأفعال لا من بدع العقائد، فإن كثيرًا من النزاع فيها لفظي، نعم اللفظ المطابق للكتاب والسنة هو الصواب فليس لأحد أن يقول بخلافه، ولاسيما وقد صار ذلك ذريعة إلىٰ بدع أهل الكلام من أهل الإرجاء وغيرهم إلىٰ ظهور الفسوق، فصار ذلك الخطأ اليسير في اللفظ سببًا لخطأ عظيم في العقائد والأعمال، فلهذا أُعظِم القولُ في ذم الإرجاء، قال إبراهيم: لفتنتهم -يعني المرجئة- أخوف علىٰ هذه الأمة من فتنة الأزارقة، يعني الخوارج. وقال الزهري: ما ابتدع في الإسلام بدعة أَضَرَّ علىٰ أهله من الإرجاء[(٣)].

ولذلك ظهر من أتباعهم من يُخرِج العملَ كلَّه: عمل القلب وعمل الجوارح عن مسمىٰ الإيمان، وقالوا: هو تصديق القلب وقول اللسان فقط. وقالوا: إن أهله لا يتفاضلون فيه، وأن مرتكب الكبيرة

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٣٣) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) «شرح الطحاوية» (٤٦٢-٤٧٠) ط. مؤسسة الرسالة.

(٣) «الإيمان» (٣٧٧-٣٧٨).

لا ينقص إيمانه، وأن إيمانه كإيمان جبريل والرسل، وهذا من غلو متأخريهم[(١)].

ثم ظهر من أتباعهم من يقول: إن الإيمان هو التصديق فقط، وقالوا: لا نكفر أحدًا بذنب مالم يستحله، فلم يكفروا إلا بالاستحلال -وهو اعتقاد أن المحرَّمَ حلالٌ- ونص بعضهم علىٰ أنه لا يكفر العبد إلا بالجحود أي التكذيب.

ومرجئة الفقهاء المتقدمون وإن خالفوا السلف فيما ذهبوا إليه إلا أنهم قريبون منهم، فهم وافقوا السلف في كثير من المآلات، فلا خلاف بينهم أن الله أراد من العباد القول والعمل، ومتفقون علىٰ أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ولا يخلد في النار، وأن هناك من الأعمال ما يكفر بها الشخص، وأن العمل يكون به الإيمان، ويكون به ضده وهو الكفر، حتىٰ إن الأحناف لهم مباحث في التكفير بالأقوال والأفعال وافقوا فيها الجمهور، وتوسعوا في ذلك[(٢)].

ولهذا اضطربوا في التقعيد والتفريع، فهم عند التقعيد يرون أن الإيمان هو قول اللسان وتصديق الجنان دون ذكر الأعمال، لكن قال الطحاوي: وأهله في أصله سواء اهـ ولو أراد حقيقة قول المرجئة

---

(١) ينظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العز (٤٦٣).

(٢) قال بعض الحنفية: فقد ضُمَّ إلىٰ التصديق بالقلب أو بالقلب واللسان في تحقيق الإيمان أمورٌ الإخلال بها إخلال بالإيمان اتفاقًا كالسجود لصنم وقتل نبي والاستخفاف به وبالمصحف والكعبة. وقال بعضهم: لابد في حقيقيْة الإيمان من عدم ما يدل علىٰ الاستخفاف من قول أو فعل. ينظر: «حاشية ابن عابدين» (٤/ ٢٤٠-٢٤١) ط. البابي الحلبي.

لقال: وأهله فيه سواء. وقال: لا نقول: لايضر مع الإيمان ذنب اهـ وهذا يخالف حقيقة قول المرجئة: أن أهله لا يتفاضلون فيه. فإذا كانت الذنوب تضر الإيمان، فهذا يعني أنه ينقص.

وهم يجعلون العمل من ثمرة الإيمان ولوازمه، فالخلاف والله تعالىٰ أعلم: هل الإيمان دالٌّ علىٰ العمل بالتضمن أو باللزوم؟ والأول هو قول السلف قاطبة وهو الصحيح.

قال ابن تيمية: فإذا عُرِف أن الذم والعقاب واقعٌ في ترك العمل كان بعد ذلك نزاعهم لافائدة منه، بل يكون نزاعهم لفظيًا مع أنهم مخطئون في اللفظ، مخالفون للكتاب والسنة، وإن قالوا: إنه لايضره ترك العمل. فهذا كفرٌ صريح، وبعض الناس يحكي هذا عنهم، وأنهم يقولون: إن الله فرض علىٰ العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها، ولا يضرهم تركها، وهذا قد يكون قول الغالية، قال: لكن ما علمت معينًا أحكي عنه هذا القول اهـ[١].

الطائفة الثانية: غلاة المرجئة والجهمية:

فمنهم من فسر الإيمان بالتصديق فقط وهو قول الماتريدية وطائفة من محققي الأشاعرة؛ وهؤلاء قالوا: الإيمان هو تصديق القلب فقط، ويلزم منه أنه لو أتىٰ بالمكفرات القولية والعملية فلا يكفر بها إلا بالاستحلال أو الجحود، وعليه فلا ينتقض الإيمان بقول أو عمل، ولو استهزأ أو سب الله ورسوله، ولو عادىٰ أولياء الله ووالىٰ أعداء الله وهدم المساجد وأحرق المصاحف، ونحو ذلك، حتىٰ يستحلَّهُ.

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٨١).

ومنهم من فسر الإيمان بالمعرفة فقط، كما هو قول الجهمية، وأنه لايزول اسم الإيمان إلا بزوال المعرفة من القلب؛ قالوا: الإيمان هو العلم، ولا يكفر إلا بالجهل فقط، وهذا القول شرُّ أقوال المرجئة[(١)]. قال ابن تيمية: وإنما كفَّر وكيعٌ وأحمد وأبو عبيد من قال بقول الجهمية: إن النية تجزئ عن العمل، وأن الإيمان المعرفة فقط اهـ[(٢)]. وعلىٰ هذا القول فإبليس من أهل الإيمان، وكذا من دونه من الكفرة، لأن عندهم هذه المعرفة، فإبليس يقسم بعزة الله، ويعلم أن الله ربه ورب كل شيء.

الطائفة الثالثة: من فسر الإيمان بقول اللسان فقط وهم الكرامية

وهذا قول لم يسبقوا إليه، ويكفي في بطلانه أنه يقتضي إيمان المنافق الذي يظهر الإيمان ويبطن الكفر.

وقول المرجئة كله باطل مخالف لقول السلف من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، فهذا أبو طالب كان مقرًا بنبوة النبي ﷺ ويقول في ذلك[(٣)]:

لقد علموا أن ابننا لا مُكذَّبٌ
لدينا ولا يعنىٰ بقول الأباطل

---

(١) «الإيمان» لابن تيمية (١١٥-١٣٨) ط. المكتب الإسلامي. و«شرح السفارينية» للسفاريني (١/٤٠٨). وانظر في الرد عليهم «كتاب الإيمان» لأبي عبيد القاسم بن سلام (٧٩-٨٠) ط. دار الأرقم.

(٢) «الإيمان» (١٧٩) وانظر «كتاب الإيمان» لأبي عبيد القاسم بن سلام (٧٩-٨٠) ط. دار الأرقم.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٤/١٤٢) ط. دار هجر.

فهذا منه تصديقٌ وإقرارٌ صريح، ومع ذلك مات علىٰ الكفر، لأنه لم يذعن ولم ينقد، وإبليس يعرف ربه بل ويقسم بعزته وهو أكفر أهل الأرض.

ومذهب السلف هو ما مضىٰ؛ أن الإيمان في الشرع يدخل في مسماه العمل، وعليه تدلُّ النصوص دلالة واضحة، ومن ذلك:

١- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾. والمراد: صلاتكم، دلّ علىٰ ذلك سبب نزولها[(١)]، فأطلق علىٰ الصلاة اسم الإيمان.

٢- وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بِضْعٌ وستون أو بضع وسبعون شعبة؛ فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ من الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**». متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

٤- عن ابن عباس رضي الله عنه: إِنَّ وَفدَ عَبدِ القَيسِ أَتَوا رَسُولَ الله ﷺ، وفيه: قَالَ: فَأَمَرَهُم بِأَربَعٍ وَنَهَاهُم عَن أَربَعٍ. قَالَ: أَمَرَهُم بِالإِيمَانِ بِالله وَحدَهُ، وَقَالَ: «**هَل تَدرُونَ مَا الإِيمَانُ بِالله؟**» قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعلَمُ. قَالَ: «**شَهَادَةُ أَن لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَومُ رَمَضَانَ، وَأَن تُؤَدُّوا خُمُسًا مِن المَغنَمِ**». متفق عليه.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٢).

٥- وعنه ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**». متفق عليه.

والآيات والأحاديث في هذا المعنىٰ كثيرة جدًا، وقد بسط القول في الرد عليهم أبوعبيد القاسم بن سلام في «كتاب الإيمان»، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة»، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الإيمان».

ولما كان مستقرًا عند السلف أن الإيمان قول وعمل، كان لهذا عظيم الأثر في حياتهم، وفي ثباتهم علىٰ هذا الدين والعمل به والوقوف عند حدوده وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وبذل النفس والنفيس من أجله وفي سبيله، حتىٰ ظهرت آثار التربية الإيمانية في أقوالهم وأعمالهم، وضحّوا من أجله، وباعوا أنفسهم لله، وكانوا وقَّافين عند حدود الله، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، ذاكرين لله مخبتين منيبين له، فكان فهمهم للإيمان أعمق، وتمسكهم به أعظم، قال ابن مسعود: من كان مُستَنًّا فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، أبرُّ هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلُّها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم اهـ[1].

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٤١)، وقد أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (١٨١٠) ولفظه: من كان منكم متأسيًا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا . . . ويشهد له ما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٥-٣٠٦) من طريق عمر ابن نبهان عن الحسن عن ابن عمر ﵄ بلفظ: من كان مستنًا فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد . . .

ثم إنه ظهرت بعدهم خلوف زعموا أن الإيمان مجرد معرفة القلب وتصديقه، أو تصديق اللسان فقط، أو اللسان والقلب فقط، وجافوا العمل عن معناه، وأخرجوه عن لوازمه ومسماه، فكان من فتنة هذه الأقوال: ترك العمل المشروع، وتسويغ البدع والسكوت عنها، والتهاون في المعاصي الكبار، وتضييع الواجبات ومواقعة المحرمات، ومنهم من يزعم أن إيمانه تَامٌّ، وأَنَّه كإيمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وذهبت طائفة منهم تَشْرَعُ بالأمة في مجاري الفلسفة وعلم الكلام، ظنًّا منها أن هذا هو مقصود الشرع وغايته، وأن مجرد التصديق والمعرفة هو غاية إيمان العبد وتسليمه، فكان لهم اهتمام بالغ بالعلوم الكلامية، لأن هذه العلوم الكلامية في ظنهم هي الطريق الأمثل في إثبات وجود الله والتصديق بالنبوة، وأنها طريق إلى اليقين، ومنهم من جزم بأن العبد لا يمكن أن يصل إلىٰ اليقين حتى يمرَّ بمرحلة الشكِّ، ولهذا سمىٰ المتكلمون «علم العقيدة»: علم الكلام. ظنا منهم أنها قارب النجاة، وميزان العدل والقسط، وسلم إلىٰ الحق.

ووجد في تاريخ الأمة من أشغل أروقة العلم وطلابه بهذه العلوم الكلامية، وجعلها من العلوم التي يُتنافس فيها، ومن يبرز فيها فهو إمامٌ، مع أن غالبها وغايتها إثارة المسائل التي لا يُرجىٰ منها إلا مجرد اللفظ لا العمل فأوتوا الجدل وحرموا العمل، وكان من ثمرتها ما قاله الشهرستاني:

لعمرك قد طُفتُ المعاهدَ كلها
وسَيَّرتُ طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كفَّ حائرٍ
علىٰ ذَقَنٍ أو قارعًا سنَّ نادم

وعلم الكلام والفلسفة يمكن أن يستفاد منها في العلوم البشرية لا العلوم الإلهية الربانية، لأنَّ العلوم الإلهية مبناها علىٰ الوحي والتسلم والخوض فيها بلا علم إلهي ووحي رباني يفضي إلىٰ الحيرة والاضطراب، ولذا فإن ثمرة العلوم الإلهية الربانية هو اليقين والصدق والعمل والانقياد والخضوع والتعبد لله رب العالمين، ولما اشتغل الفلاسفة والمتكلمون بالعلوم الفلسفية اليونانية وخاضوا بها في الإلهيات والنبوات والمعاد حصل عندهم خلط عظيم تسبب في إشغال الأمة بموروث لا علاقة لهم به، وأما العلوم البشرية فمبناها علىٰ البحث والتجربة والعقل حاكم فيها.

- ٨ -

الإيمان يزيد وينقص

أجمع سلف الأمة[١] وأئمتها علىٰ أن أهل الإسلام يتفاضلون في الإيمان، فمنهم كامل الإيمان، ومنهم ناقص الإيمان، وبينهما مراتب ودرجات.

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة ظاهرة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾. وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) راجع «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٦٤-٦٥)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»، للالكائي.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن**». متفق عليه.

وروىٰ مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». وعن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخرُجُ من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخيرِ ما يَزِنُ شعيرَةً ... ما يزن بُرَّةً، ... ما يزن ذَرَّةً**». متفق عليه، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقا**». رواه الترمذي (١١٦٢) وقال: حديثٌ حسن صحيح.

وقال عمير بن حبيب الخطمي رضي الله عنه: الإيمان يزيد وينقص، قيل: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبَّحناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فذاك نقصانه[(١)]. وجاء عن عمر وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم ما يدل علىٰ ذلك[(٢)].

---

(١) «شرح أصول اعتقاد أهل السنه والجماعة» (٥/ ٩٤٩) ط. دار طيبة.

(٢) ينظر: السابق (٥/ ٨٩٢) وما بعدها، و«الإيمان» (٢١٠) وما بعدها. ط. المكتب الإسلامي.

وقالت المرجئة: إن الإيمان لا يزيد ولاينقص، مع إقرارهم بأن الناس يتفاضلون في أعمال القلوب والجوارح ولكنهم لايدخلونها في مسمىٰ الإيمان، لأن الإيمان عندهم لا يزيد ولاينقص، والتفاضل في أعمال الجوارح أمرٌ ظاهر.

وسبب الخلاف بينهم وبين ما ذهب إليه أئمة السلف: أن هؤلاء نزعوا إلىٰ تفسير من فسَّر الإيمان بالتصديق، ولما رأو أن التصديق لا يزيد ولاينقص أخرجوا منه عمل القلب والجوارح، وأما أئمة السلف فكانوا مع نصوص الكتاب والسنة التي تدل دلالة واضحة علىٰ أن الإيمان ليس مجرد التصديق وأنه يزيد وينقص، يوضح ذلك ما نقله النووي عن أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الشافعي قوله: الإيمان في اللغة هو التصديق، فإن عني به ذلك فلا يزيد ولا ينقص، لأن التصديق ليس شيئًا يتجزأ حتىٰ يتصور كماله مرة ونقصه أخرىٰ، والإيمان في لسان الشرع هو التصديق بالقلب والعمل بالأركان وإذا فسر بهذا تطرق إليه الزيادة والنقص وهو مذهب أهل السنة اهـ(١).

وقد جاء عن بعض السلف -كرواية عن مالك- التوقف في لفظة: نقصان الإيمان، وتوقفهم في ذلك لكون هذه اللفظة لم تأت في السنة والقرآن، إنما جاءت لفظة الزيادة، وقيل: لأن التصديق إذا نقص صار شكًّا، وذلك كفر وخروج عن مسمىٰ الإيمان(٢).

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ١٠٣) ط. دار المعرفة.

(٢) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ١٠٣).

وقطعًا أن من قال بالزيادة لابد وأن يقول بالنقصان لفظا أو معنىٰ، ولهذا جاء الإجماع عنهم علىٰ أن أهله يتفاضلون فيه.

والصواب أن التصديق يتفاضل، وأن نقص التصديق لايعني الشك فيه، فإن الناس يتفاضلون فيه، ولهذا سمي أبو بكر بالصديق، ودرجة الصديقين أعلىٰ من غيرهم، وقال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ثم قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ فلم يكن شاكًا وإنما أراد زيادة اليقين.

وقد شبه بعض أهل العلم الإيمان بالإبصار؛ يتفاوت فيه الناس وأصل الإبصار يتساوىٰ في وجوده كل مُبصِرٍ، لأنه إذا ذهب البصر لم يبق سوىٰ العمىٰ.

والمقصود من ذلك أن يحرص المؤمن علىٰ زيادة إيمانه، فتزكية الإيمان وتقويته وتنقيته من شوائب الشرك والبدعة والمعصية من الأمور التي حرص عليها السلف الصالح، وذلك بالعمل الصالح وتلاوة القرآن وعبادة التفكر والدعاء والتوبة والاستغفار، فيرتقي المؤمن بنفسه في مراتب الإيمان وشعبه، ومما يزيد في الإيمان التأمل في سيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام، وفي القرآن آيات كثيرة تذكر أحوال أهل الإيمان وقصصهم وثباتهم، وصفاتهم وما يقابلها من صفات أهل الكفر والنفاق.

- ٩ -

كمال الإيمان

■ للإيمان مع أصحابه أحوال:

الحال الأولىٰ: الإيمان الكامل، والمراد به: كمال الإيمان المستحب، أو الإيمان المطلق، وذلك بأن يكمل المسلم إيمانه بكمال شعبه ومراتبه، ودفع ما يضاده، ووقوفه عند الأمر والنهي، وهذه سبيل السابقين إلىٰ الخيرات، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]، وقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

والمقصود: من قام بالواجبات، وجمهور السنن، واجتنب المحرمات وكثير من المكروهات، وتورَّع عن المشتبهات. قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢]، واللَّمَمُ صغائر الذنوب، التي لا يكاد ينفك عنها البشر، وهؤلاء غير معصومين، ولكنهم يسارعون إلىٰ التوبة والاستغفار، وهدم السيئات بالحسنات، وهذه درجة الصِّدِّيقين، وهم المقربون السابقون.

الحال الثانية: الإيمان الناقص، فيكون معه أصل الإيمان -أي مطلق الإيمان- وأركانه، ولم يقع فيما ينافيه نفيًا ينقضه من أصله، ومعه من الإيمان ما يمنعه من الخلود في النار، وهذا متفق عليه بين

أهل السنة، وأهله متفاوتون ويمكن إرجاعهم إلىٰ هذين القسمين كما وردت به الآية:

الأول: المُقْتَصِد، والمراد به من نقص إيمانه المستحب بسبب ترك فعل المسنونات أو مواقعة المكروهات، واكتفىٰ صاحبه بالقيام بالواجبات وترك المحرمات، وإن وقع في الصغائر والمشتبهات، فهذا حسناته تهدم سيئاته، وهذا الصنف هم أهل اليمين.

الثاني: الظالم لنفسه، وهو الذي وقع في شيء من المحرمات والكبائر، وفرَّطَ في شيء من الواجبات، فمنهم أصحاب الكبائر، ومنهم من يقع في الشرك الأصغر، فهو ضعيف الإيمان، معرض للوعيد، ولكنه موعود بالجنة، وإن دخل النار فلايخلد فيها، وإنما اختُلِف فيه: هل يسمىٰ مؤمنًا أو مسلمًا؟ والصحيح أنه مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ولكونه بقيت عليه ذنوب فهو إما أن يدخل الجنة ولا يعذب، أو يُطَهَّر في النار حتىٰ تذهب سيئاته، وقد يحصل له من البلاء في الدنيا مايكفرها أو سكرات الموت أو عذاب البرزخ، أوعرصات القيامة، أوشفع له شافع عند الله، أو أدركته رحمة الله، أو عُذِّبوا بقدر ما عندهم حتىٰ يُطَهَّروا وينقلوا إلىٰ الجنة، والله هو أرحم الراحمين.

قال ابن القيم: وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلىٰ أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمىٰ مؤمنا عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه اهـ[(١)].

---

(١) ينظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية»: (٣/ ٤٥٠).

وقال: قد اختلف في قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾، هل ذلك راجع إلىٰ الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما: المقتصد والسابق دون الظالم؟ علىٰ قولين، ذهبت طائفة إلىٰ أن الأصناف الثلاثة كلهم في الجنة، وهذا يروىٰ عن ابن مسعود وابن عباس وأبي سعيد وعائشة اهـ[1]. وساق الأدلة علىٰ ذلك فأطال، وروىٰ علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ قال: هم أمة محمد ﷺ ورَّثَهُمُ الله تعالىٰ كل كتاب أنزله، فظالمهم يغفرله، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب[2]. وكذا روي عن غير واحد من السلف أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين علىٰ مافيه من عوج وتقصير، وهذا القول هو المشهور وصححه ابن كثير واختاره ابن جرير وساق في ذلك أحاديث[3].

هناك قولٌ آخر لبعض السلف؛ فقد روىٰ ابن أبي حاتم عن ابن عباس: فمنهم ظالم لنفسه، قال: هو الكافر. وروي عن الحسن وقتادة: هو المنافق[4].

الحال الثالثة: الإيمان المنفي من أصله، وهو الكافر الذي لم يسلم أصلًا، أو المسلم الذي أتىٰ بأصل الإيمان ومجمله لكن وقع في

(١) السابق.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥٥) ط. دار المعرفة.

(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥٥)، و«تفسير الطبري» (١٠/ ٤١٣).

(٤) ينظر: «الدر المنثور» السيوطي (٧/ ٢٦-٢٦) ط. دار الفكر.

الكفر المنافي للإيمان، وأتىٰ من الأقوال والأفعال والمعتقدات ما ينقل عن ملَّةِ الإسلام، أو أشرك مع الله غيره في العبادة، فهذا منفي عنه الإيمان في أصله، وسيأتي بيان نواقض الإيمان في الكلام عن الكفر بحول الله تعالىٰ.

- ١٠ -

نفي الإيمان في الكتاب والسنة

■ **وينبني علىٰ هذه الأحوال النظر في نفي الإيمان في الكتاب والسنة:**

فإن نفي الإيمان بترك بعض الأعمال يدل علىٰ أن فعلها واجب، كما أنه إذا نفىٰ الإيمان بفعل بعض الأعمال، دل ذلك علىٰ أن فعلها محرم، فيحمل النفي علىٰ نفي الإيمان الواجب، ولايصح حمله علىٰ نفي الكمال المستحب، وكذا قوله: «ليس منا» كنفي الإيمان.

وأما إن ذكرها وذكر أن فاعلها مؤمن، أو ذكر فضل إيمان صاحبها، فهذا لايدل علىٰ الوجوب إلا إذا دلَّ دليلٌ آخر عليه فيؤخذ به، قرره ابن تيمية.

■ **وعليه فنفي الإيمان له حالتان:**

١- تارة يكون نفيًا لصحة الإيمان، أي نفي مطلق الإيمان.
وهذا مخرج من الملة كما في قوله تعالىٰ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ

وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

٢- أو يكون نفيًا لكمال الإيمان الواجب، فيكون ناقصًا، كما في قوله ﷺ: «**والله لايؤمن ... قال: الذي لايأمن جاره بوائقه**». رواه البخاري عن أبي هريرة.

وحمل النفي علىٰ نفي الكمال الواجب يعلم من الفعل الذي نُفِي الإيمان من أجله فعلًا أو تركًا، فإن كان من نواقض الإيمان حُمِل علىٰ الأول، وإن كان دون ذلك حمل علىٰ الثاني.

ومثل هذا يعرف بالأدلة، ومعرفة أحكام الشرع وأصوله وقواعده، ويعرف بالقرائن، وأهل العلم الراسخون فيه هم من يتكلم في هذه المسائل العظيمة، ويوقع تلك الأحكام.

وهل يمكن أن يحمل علىٰ نفي الإيمان المستحب؟ نفىٰ ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية(١) وابن رجب في شرح الأربعين(٢)، وأطال ابن تيمية الكلام في نفيه، وأنه لو حُمِل عليه لكان في ذلك نفي للإيمان عن عموم المسلمين، واستبعده.

كقوله ﷺ: «**لايؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**». متفق عليه. وقوله: «**ولاتؤمنوا حتىٰ تحابوا**». رواه مسلم، وقوله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه**». متفق عليه. وقوله: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**». رواه

---

(١) «الإيمان» لابن تيمية (١١) ومابعدها.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٠٢) شرح الحديث (١٣).

البخاري، فظاهر هذه الأحاديث الوعيد، فدلَّ ذلك علىٰ الوجوب.

والأصل الذي تدل عليه النصوص واتفق عليه سلف الأمة: أن الإيمان مراتب وشعب وأنه يزيد وينقص، وأن أهله متفاضلون فيه.

وقد ضلّ في هذا الأصل طائفتان، **وأصلهم الذي تفرعت عنه بدعتهم في الإيمان هو**: أنهم ظنوا أن الإيمان شيء واحد؛ متىٰ ذهب بعضه ذهب كله ولم يبق منه شيء:

فالطائفة الأولىٰ: **الخوارج والمعتزلة**، زعمت أن الإيمان المطلق -الذي يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله- شيءواحد، فإذا ذهب منه شيء لم يبق مع صاحبه منه شيء فيخلد في النار، فأما الخوارج فكفرت مرتكب الكبيرة، وأخرجته من ملة الإسلام، وأما المعتزلة فقالوا هو في منزلة بين الإيمان والكفر، وكلاهما قضت عليه بالخلود في النار، ولقد سَرَىٰ نهجُ الاعتزالِ في عددٍ من الفرق والطوائف كالرافضة والزيدية وغيرهم، كما أن الإباضية تعتبر إحدىٰ فرق الخوارج.

الطائفة الثانية: **المرجئة والجهمية**، وقد رأت أن الإيمان شيء واحد، يستوي فيه البر والفاجر، وأنه لا تفاضل لأصحابه فيه، لأنه لو ذهب منه شيءٌ بفعل الكبائر وترك الواجبات الظاهرة لم يبق منه شيءٌ، وهذا عندهم غير صحيح، فقالوا: يبقىٰ كله ولا يضر مع الإيمان ذنب.

وجاءوا إلىٰ نصوص الوعيد فحملوها علىٰ أن المراد بها هو مجرد التغليظ والترهيب، وغلبوا جانب نصوص الوعد، قال أبوعبيد: فمن أفظع ما تُؤوِّل علىٰ رسول الله ﷺ وأصحابه أن جعلوا الخبر عن

الله وعن دينه وعيدًا لاحقيقة له، وهذا يؤول إلىٰ إبطال العقاب، لأنه إن أمكن ذلك في واحد منها كان ممكنا في العقوبات كلها[1].

وأما الخوارج والمعتزلة فجاءوا إلىٰ نصوص الوعيد فحملوها علىٰ كفر الردة، فكفروا الناس بالذنوب، وأن مثل قوله ﷺ «**ليس منا**» هو الردة والكفر والخروج من الملة، أي ليس من المسلمين، ومثله قوله: «**أنا بريء من كذا**» وكل ما ذكر فيه الخلود في النار أو كان من كبائر الذنوب، وأما نصوص الوعد فلم يلتفتوا إليها.

والصواب الذي يقطع به أهل السنة أن تأويله: ليس من المطيعين لنا ولا من المقتدين بنا ولا من المحافظين علىٰ شرائعنا، لا يعني التبرؤ من رسول الله ﷺ ولا من ملته كما تقول الخوارج[2].

وقول الخوارج والمعتزلة شر من قول المرجئة، ولذا ذمهم السلف قاطبة، وقول الجهمية -المرجئة الغلاة- شرٌّ من قول الخوارج[3].

واعتقادهم أن الإيمان لا يكون علىٰ مراتب بل شيء واحد إما أن يبقىٰ كلُّه أو يذهب كله غير صحيح ومخالف للنصوص.

وقد بين الله تعالىٰ ما يغفره ومالا يغفره، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] فما كان من الشرك الأكبر والكفر الأكبر فهو كفر وشرك لايغفر لصاحبه

(١) «كتاب الإيمان» لأبي عبيد القاسم بن سلام (٧٩-٨٠) ط. دار الأرقم.
(٢) «كتاب الإيمان» لأبي عبيد القاسم بن سلام (٩٢-٩٣) ط. دار الأرقم.
(٣) ينظر «الإيمان» لابن تيمية (١١٥-٢٠٩).

ويخلد في النار، وما كان دون ذلك فهو تحت المشيئة والمغفرة ولايكفر صاحبه.

وفي هذه الآية ردٌّ علىٰ الخوارج والمعتزلة، وذلك في قوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾. فلو كان لا يغفر لأحد لما صح قوله: ويغفر ما دون ذلك.

وفيها: ردٌّ علىٰ المرجئة والجهمية في قوله: ﴿لِمَن يَشَآءُۚ﴾، فلو كان يغفر لكل أحدٍ لما قال: لمن يشاء.

ولذا فقد توسط أهل السنة والجماعة، فلا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، بل ما أطلق عليه الشارع من الذنوب كفر فهو كفر، وما وصفه بوصف يعلم من دلالة الكتاب والسنة أنه كفر كحبوط الأعمال حبوطًا مطلقا فهو كفر، ومن لم يكفره فلا يقال بكفره، بل تكون معصيته من جملة المعاصي التي يغفرها الله إذا شاء أو يعذب عليها إذا شاء، فالإيمان مراتب، كما أن الكفر مراتب، والجنة درجات والنار دركات.

ومثال الأول -من كفره الشارع بذنب-: كذنب دعاء غير الله دعاء عبادة أو مسألة فيما لايقدر عليه إلا الله في قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾، فهذا لا يغفره الله يوم القيامة، لأنه سماه شركًا في قوله: (بشرككم) قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]. فالشرك في الألوهية أو الربوبية

أو الأسماء والصفات مخرج من الملة، موجب لدخول النار، ولا يغفر الله لصاحبه ولا يتجاوز عنه.

ومثله الاستهزاء بالله وآياته، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، فوصفهم بالكفر.

ومثال الثاني -من لم يكفره-: قوله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»، ونفي الإيمان عنه لا يدل علىٰ الكفر، لأن النفي -كما سبق- قد يكون نفيًا كليًا، وقد يكون بمعنى النقصان، ويدل علىٰ أن المراد الثاني قوله تعالىٰ: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، والزنا دون الشرك فهو داخل تحت مشيئة الرحمن، فالزاني لا ينتفي عنه أصل الإيمان، بل ينتفي كماله، ولذا فهو مؤمن ناقص الإيمان، فاسق بكبيرته.

وقد أثبت الله تعالىٰ الأخوة الإيمانية للمسلم الذي يقتل مؤمنًا؛ فقال: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨] مع أن القاتل مرتكب لكبيرة عظيمة شنيعة، وقال عن الباغي: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾، فأثبت لهم الإيمان والأخوة، مع وقوع التقاتل.

أصول المقاصد

- الطاعة
- العبادة
- المحبة
- الخوف والرجاء
- الدعاء
- التوكل

الطاعة

- ١ -

معنى الطاعة

الطاعة: هي موافقة الأمر، والانقياد له[(١)]، وهي الاستجابة للأمر والنهي.

والمراد بها هنا: التسليم لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ في الأمر والنهي، والحلال والحرام، والقبول بحكمه وشرعه، وألا ينازع الشرع بشرع آخر.

وفُسِّرت الطاعة بالعبادة، كما جاء في حديث عدي بن حاتم -وسيأتي قريبًا- قال تعالىٰ ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾. قال الزجاج: أي أطاعه، يعني: الشيطان. وقال في قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي: نطيع الطاعةَ التي يُخضَعُ معها اهـ[(٢)]. والطاعة منها ما هو عبادة، ومنها ما هو امتثال وموافقة للأمر.

(١) ينظر: «لسان العرب» (٨/ ٢٤٠) ط. دار الفكر، و«المجموع شرح المهذب» للنووي (١/ ٣١٣) ط. دار الفكر، و«أنيس الفقهاء» للقونوي (١٠٢). ط. دار الوفاء.

(٢) ينظر «لسان العرب» (٣/ ٢٧٣).

والدين والإسلام والطاعة كلها تدور حول مقصد واحد؛ هو الاستسلام لله تعالىٰ والانقياد له والتذلل له، والتسليم لأمره ونهيه وحكمه وشرعه، قال الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، فالدين هو الطاعة والعبادة.

- ٢ -

الطاعة والتسليم

يجب التسليم والانقياد لأمر الله وأمر رسوله وهذا من مقتضىٰ الإيمان، وذلك بالموافقة والقبول والاستسلام للشريعة ظاهرًا وباطنًا، والاستسلام والانقياد لله وحده لا شريك له دون غيره، والتسليم لأمره ونهيه وإخلاص الدين له من أعظم مقاصد التوحيد، وذلك يشتمل علىٰ ما يلي:

أولًا: القبول التام والتسليم الكامل بكل ما جاء به الشرع المنزل، والشرع المنزل هو ماجاء في الكتاب والسنة الصحيحة، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وأما الشرع المؤول والذي

هو أقوال المجتهدين وآراؤهم، فتلك قابلة للأخذ والرد كما قال مالك وغيره: كلٌّ يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر. وهو مروي عن ابن عباس(١).

ثانيًا: تحكيم الشرع والتحاكم إليه والصدور عنه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلىٰ غيره، فلا يتحاكم إلىٰ الشرع المبدل، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الآية، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

- ٣ -

ترك التسليم للشرع المنزل وأحكامه

عدم التسليم للشرع المنزل له صور ومراتب تتفاوت خطورتها، وهي:

الصورة الأولىٰ: ترك القبول والتسليم للشرع المنزل كله

(١) خرجه البيهقي في «المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ» (١/ ٤٠) ط. أضواء السلف بسنده إلىٰ مجاهد قال: ليس أحدٌ إلا يُؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ اهـ قال: وروينا معناه عن عامر الشعبي. وفي «مجمع الزوائد» للهيثمي (١/ ١٧٩) ط. دار الكتاب العربي، قال: عن ابن عباس رفعه قال: ليس ... فذكره. رواه الطبراني في الكبيرورجاله موثقون اهـ.

أو بعضه بلا تأويل سائغ، ورده بصريح القول أو الفعل، فهذا كفرٌ وخروج عن ملة الإسلام، كمن ينكر الحدود الشرعية، ويقول: إنها لاتصلح لهذا الزمن، أو يكذب بصريح القرآن، فهذا تكذيب وإعراض عما أنزل الله ﷻ، ولا يسلم المعتقد ولايصح الإيمان ولاتستقيم الطاعة إذا كان صاحبه يؤمن ببعض ويكفر ببعض، قال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

الصورة الثانية: تبديل شرع الله المنزل بشرع مبدَّل، ومن ثمَّ التحاكم إليه، وترك حكم الله جل وعلا، فهذا كفر أكبر مخرج من الملة.

ويبوء بإثم ذلك ويدخل في حكمه صنفان:

الأول: المشرِّعُ المبَدِّلُ الذي يَسَنُّ القوانين التي تضاهي حكم الله تعالىٰ، أو ما يُعرف بالسلطة التشريعية التي تحل محل الشرع ولو في بعض أحكامه.

قال الله تعالىٰ: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]؛ أي لايشاركه في حكمه وتدبيره وقضائه أحد، وفي قراءة: (ولا تُشْرِكْ في حكمه أحدا)[(١)] خطاب للنبي ﷺ ولأمته ألا يشركوا في حكمه أحدًا. وحكمه هو قضاؤه، وهو كوني وشرعي. وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) ينظر: «تفسير البغوي» (٧٧٥) و«الجامع للقرطبي» (١٠/ ٣٨٨).

الثاني: التابع المتابع علىٰ هذا التبديل، وهو يعلم أنهم بدلوا دين الله، فيعتقد تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله اتباعًا لهم مع علمه أنهم خالفوا شرع الله، فهذا شرك أكبر، وذلك لأنه جعل لله تعالىٰ شريكًا في الطاعة، وجعل لهذا الشريك حقًا في التشريع كحق الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وأخرج الطبري (٦/ ٣٥٤) عن مصعب بن سعد، عن عدي بن حاتم، قال: أتيت رسولَ الله ﷺ وفي عُنُقي صليبٌ من ذهب، فقال: «**يا عديّ، اطرح هذا الوثنَ من عنقك**». قال: فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في «سورة براءة»، فقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. قال: قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم! فقال: «**أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟**» قال: قلت: بلىٰ! قال: «**فتلك عبادتهم**». ورواه الترمذي (٣٠٩٥) وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام ابن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث اهـ. وحسنه ابن تيمية[1]. وله شاهد عند ابن جرير (٦/ ٣٥٤) عن حذيفة موقوفًا.

فإن كانت طاعتهم واتباعهم لهم عن غير اعتقاد وإيمان، بل يعتقدون ويؤمنون بأن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله، فهذا

(١) «الإيمان» (٦٤). ط. المكتب الإسلامي.

كالمعاصي التي يفعلها المسلم ويعلم أنها معصية، فلهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب[1].

وكل من يضع مصدرًا آخر للتشريع بديلًا عن الوحي، يتلقىٰ منه الشرع وينقاد له ويسلم له من قانون أو عرف أو عادات، فإن هذا من الشرك في الطاعة والحكم.

وأما الأنظمة المدنية والعرفية التي تنظم أحوال الناس ولا تتعلق بالحلال والحرام ولا تكون شرعًا تُرَدُّ به أحكام الإسلام ولا بديلًا عنها، فهذه الأصل فيها الجواز، إذا لم تخالف الشرع، وكانت تحقق مصلحة أو تدفع مفسدة، وهي من المصالح المرسلة، وأما الأحكام والمصالح التي اعتبرها الشارع أو ألغاها فلايجوز بحال: سَنُّ القوانين التي تلغي ما اعتبره الشارع أو تقرُّ ما ألغاه الشارع، فذلك من التطاول علىٰ الشرع والمضاهاة له.

الصورة الثالثة: ترك التسليم والطاعة التامة المطلقة للشرع المنزَّل، وردِّه بقواعد وأصول مبتدعة لا دليل عليها:

فمن ذلك: عدم التسليم لما جاء في السنة وردها بالمعقولات وتقديم العقل عليها بحجة أنها ظنية وهو قطعي، أو ردها بالذوق والمكاشفات والمنامات، أو بقول من يعتقد فيه العصمة كالإمام المعصوم أو الولي أو شيخ الطريقة.

والسنة في الحجية مثل القرآن قال تعالىٰ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡىٞ يُوحَىٰ﴾. وفي سنن أبي داود (٤٦٠٤) عن المقدام بن معدي كرب عن

(١) ينظر: السابق (٦٧).

رسول الله ﷺ قال: «**ألا إني أُوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان علىٰ أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه**»، الحديث.

ومن ذلك: رد خبر الآحاد لمجرد أن دلالته ظنية، أو كونه يعارض العقل أو يخالف الذوق، أو رده إذا كانت دلالته تتعلق بقضايا العقيدة، أو تخالف أصول المذهب وقواعده، دون أن يكون ردُّه لمعنىٰ صحيح معروف عن السلف، كضعفٍ في راويه، أو نكارة في متنه، أو عارضه دليل آخر مثله أو أقوىٰ منه، أو صرف العمل بدلالته مقتضٍ آخر دلت عليه أصول الكتاب والسنة كالنسخ أوالتخصيص ونحوه.

وأشهر من نقل عنهم ترك العمل بخبر الواحد في الاعتقاد هم المعتزلة والماتريدية والرافضة والخوارج والجهمية، وإنما لجأوا إلىٰ هذه الطريقة في الرد لكون هذه الأحاديث تخالف منهجهم العقدي الباطل، فهم يعتقدون ثم يستدلون، فإذا جاءت النصوص بذلوا جهدهم في ردها حتىٰ لا تلزمهم، والله تعالىٰ قد ذمَّ النصارىٰ لمَّا نسوا حظًّا مما ذُكِّروا به.

والآحاد قسيم المتواتر، فالخبر ينقسم إلىٰ متواتر وآحاد، والتواتر هو أن يرويه جماعة عن جماعة إلىٰ منتهىٰ الإسناد، ويستحيل تواطؤهم علىٰ الكذب، ويسندوه إلىٰ الحس، وخبر الواحد في اللغة: مايرويه راوٍ واحدٍ، وفي الاصطلاح: مايرويه واحدٌ أو اثنان أو ثلاثة أو أكثر ولم يبلغ حد التواتر، وعند بعضهم هو آحادٌ مالم يشتهر، والمشهور ثلاثة فأكثر مالم يتواتر، أو ما كان آحادًا في الأصل متواترًا في عصر التابعين ومن بعدهم.

وخبر الواحد حجة يجب العمل به كما هو اتفاق السلف وعامة أهل السنة والجماعة، في العقيدة والعبادة وغيرها، فمنهم من ذهب إلىٰ أنه حجة يفيد العلم والعمل قال به الحارث المحاسبي والحسين بن علي الكرابيسي والخطابي وروي عن مالك وأحمد وقال به ابن حزم[(١)]، ومنهم من يقول إنه حجة يفيد الظن ويجب العمل به، وهو قول الجمهور، ومنهم من يقول إنه لا يفيد الظن إلا إذا احتفت به قرائن تقويه فيفيد العلم، كما لو كان الحديث في الصحيحين ولم ينتقده الأئمة الحفاظ، لتلقي الأمة لها بالقبول، ووقوف العلماء عليها دون اعتراض، وكذا الأحاديث التي تروىٰ بأصح الأسانيد كمالك عن نافع عن ابن عمر، وغيرها، قال ابن كثير: ثم وقفت بعد هذا علىٰ كلام لشيخنا العلامة ابن تيمية مضمونه: أنه نُقِل القطعُ بالحديث الذي تلقته الأمة بالقبول عن جماعات من الأئمة منهم ... فذكرهم، ثم قال: وهو مذهب أهل الحديث قاطبةً ومذهب السلف عامةً اهـ[(٢)].

وتقسيم الحديث إلىٰ متواتر وآحاد تقسيم حادث لا أصل له في عصر الصحابة والتابعين، فإن أشهر من عُرِفَ عنه اشتراط العدد في صحة الحديث هو إبراهيم بن إسماعيل بن علية، توفي (٢١٨هـ) وهو «جهمي هالك يناظر في خلق القرآن». قاله الذهبي[(٣)]، وقد ناظره

(١) «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (١/ ١١٢)، وارشاد الفحول للشوكاني (٩٢) ط. دار الفكر.

(٢) «الباعث الحثيث» لابن كثير (١/ ١٢٧-١٢٨) ط. دار العاصمة.

(٣) ينظر: «لسان الميزان» لابن حجر (١/ ٣٤) ط. دار الكتاب العربي.

الشافعي[1] في الاحتجاج بخبر الواحد وحَجَّهُ بالإجماع، وذكر ابن حزم[2] أن جميع أهل الإسلام بما في ذلك الفِرَق كانوا علىٰ قبول خبر الواحد الثقة حتىٰ حدث متكلمو المعتزلة بعد المائة من التاريخ فخالفوا الإجماع وكذا الخوارج.

ثم إن هذا التقسيم وإن صحَّ في الذهن لا ثمرةَ له في الواقع، لأنه لا بُدَّ من النظر في أسانيد الحديث للوصول إلىٰ الحكم عليه، ولأن عدد التواتر غير منضبط ولا محدود حتىٰ يتمكن الشخص من بناء الحكم عليه، وإن كان اليقين والعلم يحصل بكثرة الرواة، إلا أن القطع فيه أمرٌ متفاوت، فهو يتعلق بالراوي تارة وبالسامع تارة أخرىٰ، فمن الناس من يحصل له اليقين والقطع بعدد محدود لايبلغ حد التواتر كما لو رواه أئمة ثقات فيكون مقطوعا به عند أهل هذا الفن وإن لم يبلغ الكثرة، ومن أحاديث الصحيحين ماهو مقطوع بنسبته إلىٰ النبي ﷺ وهو حديث غريب آحاد فرد، كحديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وهذا الحديث لايكاد يخلو منه باب من أبواب العلم أو كتاب، وكحديث: نهىٰ عن بيع الولاء وهبته. متفق عليه.

ومن الناس من لا يحصل عنده القطع إلا بالعدد الكثير الذي يفوق حد التواتر.

ثم إن هذا التقسيم بنىٰ عليه بعض أرباب البدع أصولًا في تقوية باطلهم، وجعلوه ذَرِيعةً إلىٰ رد السنة المخالفة لباطلهم بزعم أنها

(١) ينظر: «الماتريدية» للدكتور أحمد الحربي (١٨٠)، و«مناقب الشافعي» للبيهقي (١/ ٢١١-٢١٢).

(٢) «الإحكام في أصول الأحكام» لابن حزم (١/ ١١٢)، ط. دار الجيل.

آحاد، وأنه يتطرق الشك إلىٰ صحتها، وأنها لا تستقل بإثبات مسائل في أبواب الاعتقاد.

وقد حكىٰ الشافعي[(١)] الإجماع علىٰ حجية خبر الواحد، وساق جملة من الأدلة علىٰ ذلك في كتابه «الرسالة»، وأن القول بحجيته هو عمل النبي ﷺ وأصحابه، في بعث السعاة والولاة والفقهاء يعلِّمُون الناسَ، وهو إجماع الصحابة والتابعين، كما عقد الإمام البخاري صاحب الصحيح كتابًا في صحيحه في الاحتجاج لخبر الواحد.

وقد جاء في الصحيحين بعث النبي ﷺ معاذا إلىٰ اليمن يدعوهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وفي الصحيحين؛ عن ابن عمر قال: بَينَمَا النَّاسُ فِي صَلاةِ الصُّبحِ بِقُبَاءٍ، إِذ جَاءَهُم آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَد أُنزِلَ عَلَيهِ اللَّيلَةَ، وَقَد أُمِرَ أَن يَستَقبِلَ الكَعبَةَ. فَاستَقبَلُوهَا، وَكَانَت وُجُوهُهُم إِلَىٰ الشَّامِ، فَاستَدَارُوا إِلَىٰ الكَعبَةِ.

ثم إنه وإن قيل إنه يفيد الظن فإن العمل بالظنِّ واجب للإجماع علىٰ أن المجتهد يجب عليه العمل بما أداه إليه اجتهاده. وقد تواتر عن الصحابة العمل بخبر الواحد وما ردوه أو توقفوا فيه فذلك لأمور عارضة.

والرواية تختلف عن الشهادة، فالشهادة يشترط لها شاهدان، وذلك لايشترط للرواية، كما أن الرواية تقبل فيها رواية المرأة ولا تقبل في الشهادة، وشُدِّدَ في الشهادة لتعلقها بحقٍ خاصٍ لمعين، أما الرواية فهي خبر مطلق.

---

(١) «الرسالة» للشافعي (٤٥٧) ط. دار الكتب العلمية.

وأما القول بأنه يقع الشكُّ في روايته ويحتمل الغفلة والنسيان، فهذا وإن أمكن إلا أن الأصل عدمه، وقبول روايته أرجح من عدمها، فإذا كان الناقل ثقةً عدلًا ضابطًا، تضاءلت نسبة الخطأ في روايته.

وأمَّا كونه يفيد الظن، فإن الظنَّ يكفي من سَمِعَ الرِّوَايَةَ وَرَوَاهَا، وقد قال النبي ﷺ: «**نضرَّ الله امرأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا وحفظها وبلَّغها، فرُبَّ حامل فقهٍ إلىٰ من هو أفقه منه**»، وفي رواية: «**فربَّ مُبلَّغٍ أوعىٰ من سامع**». خرجه الترمذي (٢٦٥٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح اهـ ولا يكفي لِرَدِّ روَاية الراوي تفرده بالرواية، وإنما يحتاج مع ذلك إلىٰ قرائن وشواهد تدل علىٰ أن تفرده لايحتمل، وأنه لم يحفظه، مما يعرفه أئمة هذا الشأن.

وأئمة الإسلام جميعهم متفقون علىٰ قبول خبر الواحد، وإن رَدَّهُ بعضهم في بعض المواضع، فذلك لاعتبارات أخرىٰ وليس لكونه خبر واحدٍ أوكونه في الاعتقاد، أما أبوحنيفة فإنه بريء من رَدِّ خبر الواحد، وإن كان ذلك قد نقل عن طائفة من أتباعه، فإن طائفة من الحنفية أخذوا بقول الماتريدي في هذا الباب وفي أبواب الاعتقاد، وخالفوا أبا حنيفة، وهذا يقع في بعض المنتسبين إلىٰ المذاهب من الأخذ بقولٍ مخالفٍ لقول إمامهم، فلا يُنسب إليه، كما أن طائفة من الشافعية والمالكية قد تابعوا الأشعري في أقواله، وخالفوا مالكا والشافعي في أبواب من الاعتقاد.

وإنما كان أبو حنيفة يتحرز في نقل الأخبار لكثرة الكذب، والتحرز في رواية الحديث يقع أحيانا من أئمة الصحابة كأبي بكر

وعمر رضي الله عنهم وغيرهم، فربما شَدَّدوا في الرواية واشترطوا راويين، ليبينوا للناس أهمية الاعتناء والتثبت في نقل السنة، ولم يكن مرادهم رد خبر الواحد، فإن هذا لم يكن في كل الأحوال، والشواهد علىٰ ذلك كثيرة لطالب الحق، كما قَبِلَ عمر رضي الله عنه خبر عبد الرحمن بن عوف في أخذ الجزية من مجوس هجر، وفي عدم دخول البلد الذي يكون فيه الطاعون، وهذه الأحاديث رواها البخاري.

والقول بأن خبر الآحاد يوجب العمل هذا باتفاق أهل السنة لم يختلفوا في ذلك، والثابت الذي لاشك فيه أن الصحابه عملوا بخبر الآحاد وتواتر عنهم ذلك[(١)]. والذي عليه أهل السنة أن كونه يفيد العلم أو الظن لايمنع العمل به في العقائد أو في غيرها، وإفادة العلم ليست في الخبر المتواتر فقط بل الحديث الذي يروية أئمة كبار يقطع به.

قال حافظ المغرب ابن عبد البر -بعد حكايته الخلاف في خبر الواحد وهل يوجب العلم والعمل جميعًا- قال: وكلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعًا ودينًا في معتقده، علىٰ ذلك جماعة أهل السنة اهـ[(٢)]. وقال حافظ المشرق الخطيب البغدادي: وعلىٰ العمل بخبر الواحد كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين في سائر أمصار المسلمين إلىٰ وقتنا

(١) ينظر: «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» د. مصطفىٰ السباعي (١٧٠)، و«الإحكام» للآمدي: (١٧٧).

(٢) «التمهيد» لابن عبد البر (١/ ٨).

هذا، ولم يبلغنا عن أحد منهم إنكارٌ لذلك ولا اعتراض عليه، فثبت أن من دين جميعهم وجوبه اهـ[1].

الصورة الرابعة: تقديم الشرع المؤول -أقوال ومذاهب العلماء والمجتهدين- علىٰ الشرع المنزل -الكتاب والسنة-:

لا يصحُّ ولايجوز بحال أن تُجعل أقوال العلماء وآراء المجتهدين وكتبهم كالشرع المنزل؛ يُتحاكم إليه، ويُفصَل فيه بين الحق والباطل دون النظر في الأدلة الشرعية مع إمكان ذلك، والله أمر عند التنازع بالرجوع إلىٰ أمره وأمر رسوله ﷺ، فكيف بمن يحاكم النصوص الشرعية إليها ويجعل هذه الأقوال معيارًا لصحة النص أوشذوذه أوتأويله، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾.

والمقصود في هذه الصورة: التعصب الممقوت لأقوال المجتهدين وآرائهم بعد أن يتبين الحق وتستبين السنة ويظهر الدليل ودلالته.

فيجب التسليم لأمر الله وأمر رسوله، قال الشافعي[2]: أجمع المسلمون علىٰ أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس اهـ.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾.

---

(١) «الكفاية» للخطيب (٧٢). ط. دار الكتب الحديثة القاهرة.

(٢) ينظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (٦/١) ط. دار الكتب العلمية.

وروىٰ أحمد في المسند (١/ ٣٣٧): عن ابن عباس قال: تمتع النبي ﷺ. فقال عروة بن الزبير: نهىٰ أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس: ما يقول عُرَيَّةُ؟! ثم قال ابن عباس: أُراهم سيهلكون؛ أقول قال النبي ﷺ ويقول: نهىٰ أبو بكر وعمر. وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رَدَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك اهـ(١). قال الشيخ سليمان بن عبد الله: ومراد أحمد الإنكار علىٰ من يعرف إسناد الحديث وصحته ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره، ويعتذر بالأعذار الباطلة إما بأن الأخذ بالحديث اجتهاد والاجتهاد انقطع من زمان، وإما بأن هذا الإمام الذي قلدته أعلم مني فهو لا يقول إلا بعلم، ولايترك هذا الحديث مثلا إلا عن علم، وقال: وفي كلام أحمد إشارة إلىٰ أن التقليد قبل بلوغ الحجة لايُذَمُّ، إنما المذموم المنكر الحرام الإقامة علىٰ ذلك بعد بلوغ الحجة اهـ(٢).

وقال أبوحنيفة: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلىٰ الرأس والعين، وقال: اتركوا قولي لكتاب الله، وقال: اتركوا قولي لخبر رسول الله ﷺ. وقال مالك: كلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. وقال الشافعي: إذا صحَّ الحديث فاضربوا بقولي

---

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٥٥١) ط. مكتبة العلوم والحكم

(٢) السابق.

الحائط. وهذه الأقوال مشهورة عنهم[(١)].

وأما أقوال العلماء وآراؤهم والكتب المؤلفة في المذاهب فهي اجتهادات أهل العلم وفق منهج أهل السنة والجماعة في التلقي والاستدلال، وإن كان في بعض أصول المذاهب مايخالف الكتاب والسنة ونهج الصحابة، فهذا لا يقبل.

وهي في الجملة ينظر إليها من وجوه:

الأول: الاستفادة منها في فهم الكتاب والسنة، وتصوير المسائل، ومعرفة الفروع، والقواعد والأشباه والنظائر، والحكم في النوازل.

الثاني: أن هذه الكتب وهذه الأقوال لا تكون شرعا منزلًا يحكم به علىٰ الكتاب والسنة، وإنما يحكم بالكتاب والسنة عليه، فالشرع المنزَّل هو الحاكم علىٰ الشرع المؤول، فإذا ظهر الدليل وجب الأخذ به ولايتحاكم بعده إلىٰ أي كتاب أو رأي يخالفه.

وواجب علىٰ المجتهد والفقيه المتأهل في العلم أن ينظر في الأدلة.

قال ابن تيمية: التقليد المحرم بالنص والإجماع أن يعارض قول الله ورسوله بما يخالف ذلك كائنًا من كان المخالف لذلك[(٢)].

وقال: ولهذا نقل غير واحد الإجماع علىٰ أنه لا يجوز للعالم أن يقلد غيره إذا كان قد اجتهد واستدل وتبين له الحق الذي جاء به

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٥٥٤-٥٥٥)، و«المدخل إلىٰ السنن» للبيهقي (٢٤) (٣٠) (٤٠).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ٢٦١-٢٦٢).

الرسول ﷺ، فهنا لا يجوز له تقليد من قال خلاف ذلك بلا نزاع اهـ
وقال: فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، أو ترده لأجل هواك، أو انتصارًا لمذهبك، أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو الدنيا، فإن الله لم يوجب علىٰ أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله والأخذ بما جاء به، بحيث لوخالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ماسأله الله عن مخالفة أحد، فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعًا للرسول، وإلا لو أمر بخلاف ما أمر به الرسول ما أطيع، فاعلم ذلك واسمع وأطع واتبع ولاتبتدع[(١)].

الثالث: إذا لم يتبين للفقيه أوالمجتهد أوالقاضي أوالمفتي شرعُ الله المنزل ولم يقف علىٰ نص في المسألة من كلام الله وكلام رسوله، فإنه يجوز له الرجوع إلىٰ أقوال من سبقه، والأولىٰ أن يرجع إلىٰ قول أصحاب النبي ﷺ وخصوصًا الخلفاء الراشدين، وقد احتج بقولهم جماعة من الأئمة إذا لم يختلفوا، ولم يخالفوا السنة، فإنه قد تخفىٰ علىٰ بعضهم السنة، وله أن يرجع إلىٰ رأي من بعدهم من القرون المفضلة ورأي الأئمة المجتهدين، وهو في هذا معذور غير مذموم[(٢)].

قال ابن القيم: وأمَّا تقليد من بذل جُهدَهُ في اتباع ما أنزَلَ اللهُ وخَفِي عليه بعضُهُ فَقَلَّد فيه من هو أعلمُ منه، فهذا محمودٌ غير مذمُومٍ، ومأجورٌ غير مأزورٍ اهـ[(٣)]

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٥٢٨-٥٢٩)

(٢) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ١٠٣٧) ط. دار ابن الجوزي. و«إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ٤٢) و(١/ ٦٧)، وقد أطال في ذلك.

(٣) «إعلام الموقعين»: (٢/ ١٣٠).

الرابع: أما العامي العاجز عن الاستدلال وعن فهم النص وصحته فهذا جائزٌ له تقليد أهل العلم بالاتفاق، ولو لم يعلم الدليل ولا يُلزم بطلبه والسؤال عنه، حكىٰ الإجماع عليه[(١)] ابن عبد البر وأبو محمد ابن قدامة والغزالي وغيرهم، قال الشنقيطي: أما التقليد الجائز الذي لا يكاد يخالف فيه أحد من المسلمين فهو تقليد العامي عالمًا أهلًا للفتيا في نازلة نزلت به، وهذا النوع من التقليد كان شائعًا في زمن النبيﷺ ولا خلاف فيه اهـ[(٢)]. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور، وفي صفة من يجوز له التقليد تفصيل ونزاع، وقال: والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة، والتقليد جائز في الجملة، لا يوجبون الاجتهاد علىٰ كل أحد ويحرمون التقليد، ولا يوجبون التقليد علىٰ كل أحد ويحرمون الاجتهاد، وأن الاجتهاد جائز للقادر علىٰ الاجتهاد، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد اهـ[(٣)].

---

(١) ينظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ٩٨٩) ط. دار ابن الجوزي. و«روضة الناظر» لابن قدامة (٣/ ١٠١٨) و«المستصفىٰ» للغزالي (٢/ ١٢٤).

(٢) «أضواء البيان» للشنقيطي (٧/ ٤٨٧).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ٢٦٢) (٢٠/ ٢٠٤).

العبادة

- ١ -

عبودية المخلوقات

كل ما في الكون مخلوق، والله هو الخالق،

لم يخلق الخلق سدىٰ، ولا أوجدهم عبثًا، تعالىٰ الله عن ذلك،

خلق الخلق لغاية عظيمة تليق بعظمته،

وبِقَدْرِ عِظَمِ شَأنِهِ تعظُم حكمته،

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

فسبحان من تسبح له الكائنات

في البراري والبحار، والحقول والأنهار

وتسجد تعظيمًا له المخلوقات، في الأرض والسموات،

الطيور السابحة في الفضاء، والحيتان الغارقة في المحيطات،

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾

ومن كان من بني آدم مسلمٌ وجهه لله، مستجيب لمولاه،

فهو يسير بفطرته علىٰ صراط الله المستقيم،

يقوم بالعبودية لله تعالىٰ، التي قامت بها المخلوقات واستقامت عليها الكائنات،

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾

فهو عابدٌ لله، ساجدٌ لله، خاضعٌ لله، خاشعٌ لله،

كما الشمس والقمر، والنجوم والجبال والدواب وكثير من الناس،

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ﴾

والعبودية نوعان[1]:

الأولىٰ: عبودية عامة وهي عبودية التَّسْخِير، وهذه تكون لأهل السموات والأرض كلهم، عبودية الإنس والجان والنبات والحيوان، والأفلاك والمجرات وساكنيها، عبودية جميع المخلوقات، عبودية القهر والملك والتسخير، قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، والعبد هنا بمعنىٰ المُعبَّد، وقال: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]. وقال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

الثانية: عبودية خاصة، وهي عبادة الاختيار، فهذه تكون للإنس والجان -الثقلين- يعبدون الله باختيارهم وإرادتهم، ويتقربون إليه بما

(١) ينظر: «المفردات» للراغب الأصفهاني (٣١٩)، و«مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١٠/ ١٥٤-١٥٥)، و«مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ١٤٥) ط. دار الكتاب العربي، و«عبودية الكائنات» فريد إسماعيل التوني (٤٢-٤٣). ط. مكتبة الضياء.

شرعه علىٰ ألسنة الرسل، وهي المأمور بها في نحو قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]، وهي عبادة الطاعة والمحبة واتباع الأمر، قال تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

وأما ما سواهم من المخلوقات فله من هذه العبودية نصيب، لكنها في الغالب تسخيرية، وكلُّ كائن يعبد الله بحسبه[١].

ففي القرآن يذكر ربنا جل في علاه: سجود الكائنات، وتسبيحها، كالجبال والطير؛ قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ ومنها ما يحمد الله علىٰ عدله وحكمه: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ومنها ما يستغفر الله لعباده، ففي سنن الترمذي (٢٦٨٢) قال ﷺ: «**وإن العَالِمَ ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتىٰ الحِيتَان في الماء**».

ومن الكائنات من يعلم أن محمدًا رسول الله، قال ﷺ: «**إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس**». رواه أحمد (٣/ ٣١٠)

ومنها ما يشهد يوم القيامة للمؤذن، قال ﷺ: «**لا يسمع مدىٰ صوت المؤذن جِنٌّ ولا إنسٌ ولا شيءٌ إلا شَهِدَ له يوم القيامة**». رواه البخاري.

---

(١) ينظر: «عبودية الكائنات» فريد إسماعيل التوني (٤٢-٤٣). ط. مكتبة الضياء.

قال جل شأنه: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾، وقال ﷺ: «**إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم علي قبل أن أُبعَثَ إني لأعرفه الآن**». رواه مسلم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. رواه البخاري.

وفي صحيح البخاري: لما صُنع للنبي ﷺ المنبر، قال جابر: فَلَمَّا كَانَ يَومُ الجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ المِنبَرِ الَّذِي صُنِعَ؛ فَصَاحَت النَّخلَةُ الَّتِي كَانَ يَخطُبُ عِندَهَا حَتَّىٰ كَادَت تَنشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيهِ، فَجَعَلَت تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ حَتَّىٰ استَقَرَّت، قال: بَكَت عَلَىٰ مَا كَانَت تَسمَعُ مِن الذِّكرِ.

ومنها ما يحب المؤمنين؛ فهذا جبل أحد يقول عنه النبي ﷺ: «**جبل يحبنا ونحبه**». متفق عليه.

ومن هذه الكائنات من يخلص لله الدعاء، فعن أبي هريرة مرفوعًا: «خَرَجَ سُلَيْمَانُ عليه السلام يَسْتَسْقِي، فَرَأَىٰ نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَىٰ ظَهْرِهَا رَافِعَةً قَوَائِمَهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ تَقُولُ: اَللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ، لَيْسَ بِنَا غِنًىٰ عَنْ سُقْيَاكَ، فَقَالَ: ارْجِعُوا لَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ». رواه الدارقطني (٢/ ٦٦)، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهري مرسلًا.

ومنها ما يغار علىٰ حرمات الله إذا انتهكت، فهذا الهدهد يقف أمام سليمان عليه السلام منكرًا علىٰ قوم سبأ عبادتهم للشمس من دون الله، يقول الله تعالىٰ عنه: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

ومن الكائنات ما قد يمتنع عن الطاعة، كالوزغ سمَّاه النبيُّ ﷺ فاسقًا، وأمر بقتله، وأخبر أنه كان ينفخ النار علىٰ إبراهيم عليه السلام، وأخبر النبي ﷺ عن خمس من الكائنات الحية أنهن فواسق يُقتَلنَ في الحل والحرم، وكذا شجر الغرقد فإنه من الشجر الذي يمتنع عن إخبار المسلم بأن اليهودي خلفه ليقتله في آخر الزمان عندما يقاتل المسلمون اليهود. وهذه الأحاديث في الصحيحين.

- ٢ -

العبادة في اللغة

العبادة مصدر عبد يعبد، **وأصل معنىٰ العبادة: الخضوع والتذلل**، والتعبد: التذلُّل، والمُعَبَّد: المُذلَّل[١].

ومن معاني العبادة في اللغة: الخضوع والانقياد[٢]، وفي لسان العرب: قال ابن الأنباري: فلان عابد، وهو الخاضع المستسلم المنقاد لأمره. قال الزجَّاج: ومعنىٰ العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، ومنه طريق مُعبَّدٌ، إذا كان مُذَلَّلًا بكثرة الوطء، واستدل لذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ [المائدة: ٦٠] أي: أطاعه. قال: وقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]، أي نطيع الطاعة التي يُخْضَعُ معها، وقيل: إياك نوحّد اهـ[٣].

---

(١) ينظر: «لسان العرب» لابن منظور (٣/ ٢٧١)، و«تفسير ابن جرير» (١/ ٩٩).

(٢) ينظر: «المصباح المنير» للفيومي: (٢/ ٣٨٩) ط. مكتبة الباز.

(٣) ينظر: «لسان العرب» لابن منظور (٣/ ٢٧١).

وعبده يعبده عبادة: تألَّه له، وسميت الأعمال والأقوال الصالحات عبادات لأن العباد يقومون بها خاضعين متذلِّلين لله تعالىٰ.

- ٣ -

العبادة في الاصطلاح

العبادة في الاصطلاح لها إطلاقان[(١)]:

أحدهما: المُتَعَبَّدُ به: وهو العمل الصالح كالصلاة والصيام والحج، وهذا كما قال ابن تيمية[(٢)]: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وهذا الذي ذكره يصلح بيانًا للعبادة الصحيحة، وهو أشمل تعريف لها، لأنه اشتمل علىٰ مجالي العبادة؛ المجال الخاص الذي يُراد به الشعائر التعبدية التي جاء بها الإسلام علىٰ هيئة خاصة، والنية شرطٌ لصحتها: نية العبادة -أي فعلها- ونية المعبود -أي إخلاصها- لله تعالىٰ، وهي التي عرفها بعض الفقهاء بقولهم[(٣)]: **ما أُمِرَ به شرعًا من غير اطِّرَادٍ عُرفي ولا اقتِضَاءٍ عقلي**، ويريدون بذلك ما لا دخل للتعليل فيه كالصلوات الخمس، فإن العقل لا مدخل له في كونها خمسًا أوكون عدد ركعاتها أربعًا أو نحو ذلك، وإن كانت هناك حِكَمٌ

---

(١) ينظر: «القول المفيد علىٰ كتاب التوحيد» (١/ ١٠).

(٢) ينظر: «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١٠/ ١٤٩).

(٣) ينظر: «كشاف القناع عن متن الإقناع» للبهوتي (١/ ٨٥) ط. مكتبة النصر الحديثة.

قد تظهر وقد يقصر عنها العقل البشري، ولهذا يقول الفقهاء إن هذا الحكم تعبدي، إذ لا مجال للقياس والنظر فيه، وهذا المجال من العبادات متوقِّفٌ علىٰ النص، وهو الذي تأتي عليه قاعدة: **الأصل في العبادات التوقيف، أو التحريم**، إذ كل من جاء بعبادة من هذا النوع فإنها محرمة حتىٰ يأتي النص بإثباتها.

المجال الثاني الذي يشمله التعريف: المجال العام الذي يشمل جميع شؤون الحياة، كالمعاملات والعادات وأحوال المرء في نومه ويقظته وعمله ورزقه وسفره ومسؤولياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فإنها تكون عبادة؛ لأنها مع النية الصادقة تكون مما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال، وهي داخلةٌ في حديث جابر ﵁ -في الصحيحين- عن النبي ﷺ قال: «**كل معروفٍ صدقةٌ**». وهي عامة شاملة ينطلق بها المسلم العابد لربه إلىٰ فضاء الحياة ليعمرها بالمعروف.

ثم إن من العبادة ما لا يحبها الله ولايرضاها لأحد أمرين:

١- أنها صرفت لغير الله، وأريد بها غير وجهه.

٢- أو لم تكن علىٰ هدي النبي ﷺ ولا علىٰ سنته ووفق شريعته.

فلا يتناولها التعريف، ولهذا لابد للعبادة من ضابط يشمل هذا وهذا.

الإطلاق الثاني: التَّعبد، وهو التَّذلل بفعل الأوامر وترك النواهي محبة وتعظيمًا.

قال ابن جرير[1]: معنىٰ العبادة: الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة.

وخرَّج ابن جرير (١/ ٩٩) عن ابن عباس قال: قال جبريل لمحمد ﷺ: قل يا محمد ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾: إياك نوحِّد ونخاف ونرجوا يا ربنا لا غيرك. خرَّجه من طريق بشر بن العمارة، قال حدثنا أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس به.

وخرَّج مسلم في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب في بيان مراتب الدين، قال: «ما الإحسان؟ قال النبي ﷺ: «**أن تخشىٰ الله كأنك تراه** . . .».

وفرَّق الراغب الأصفهاني بين العبودية والعبادة فجعل العبادة أبلغ من العبودية فقال[2]: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالىٰ، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ اهـ.

قال ابن كثير: وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف[3].

وهذا أجمع تعريف للعبادة وأجوده: فكل ما اجتمع فيه كمال المحبة وكمال الخوف وكمال الرجاء من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة فهو عبادة.

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١/ ١٩٦)، البقرة آية (٢٠) وينظر: «المجموع شرح المهذب» للنووي (١/ ٣١٣) ط. دار الفكر.

(٢) «المفردات» (٣١٩).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٢٥) ط. دار المعرفة.

فإن صرفه لله تعالىٰ خالصًا وفق هدي النبي ﷺ وسنته كان له الثواب والأجر، وإن صرفه لغير الله كان شركًا أكبر مخرجًا من الملة، وإن فعله علىٰ غير هدي النبي ﷺ فهو بدعة ومحدث في الدين.

ولا يقتصر معنىٰ العبادة في الشرع علىٰ: الذُّلِّ فقط، أو الذل والخضوع فقط، وإن كان هذا سائغًا في اللغة، إلا أنه قد ورد في الشرع ما يدل علىٰ أن المحبة أصل في العبادة، بل سِرُّها وروحها، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والخضوع: يجمع كمال الخوف وكمال الرجاء، الذي يجمعهما أيضًا كمال التعظيم، ومن نظر في القرآن وجد ذلك ظاهرًا، فيأتي بألفاظ الرغبة والطمع والرجاء التي تدل علىٰ الحبِّ، ويأتي بالخوف والرجاء الدَّال علىٰ التعظيم في مقام العبادة، ويريد بذلك العبادة ومعناها، قال تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] ونحوها كثير لمن تأمله.

قال ابن القيم(١): والعبادة تجمع أصلين؛ غاية الحبِّ بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد أي مذلّل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له، حتىٰ تكون محبًا خاضعًا، وقال أيضًا: وخاصة التعبد: الحب مع الخضوع والذل للمحبوب.

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٩٥) ط. دار الكتاب العربي.

وقال:

وعــبــادة الــرحــمــن غــايــة حــبِّــه
مــع ذلِّ عــابــده هــمــا قُــطــبَــانِ
وعــلــيــهــمــا فَــلَــكُ الــعــبــادة دائــرٌ
مــا دَارَ حــتــىٰ قــامــتِ الــقــطــبــانِ

ومما اشتهر من كلام السلف[1]: من عبد الله بالحبِّ وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروريٌّ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مُرجِيء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو موحِّد.

وكمال المحبة مستلزم للذل والخضوع، وكذا كمال الذل والخضوع مستلزم للمحبة.

ومنهم من ذكر في تعريف العبادة: الامتثال والطاعة[2]:

قال ابن تيمية: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به علىٰ ألسنة الرسل[3].

ويدل عليه ما سبق من كلام أهل اللغة، وما وقع في تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ أي: أطاعه اهـ.

والطاعة والامتثال يدلان علىٰ كمال المحبة والخضوع والتذلُّلِ،

(١) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١٠/٢٠٧) و«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٤٥٨) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) ينظر: «المجموع شرح المهذب» للنووي (١/٣١٣) ط. دار الفكر، ونقل عن الشيرازي تضعيفه لهذا التعريف.

(٣) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٤٧) ط. مكتبة العلوم والحكم.

فمن وقعت في قلبه هذه المعاني فلابد أن يكون مستجيبًا لمحبوبه، طائعًا له، بل ومقدمًا طاعته علىٰ كل أحد في عموم أحواله، وعلىٰ طاعة نفسه وهواه، فإن الإيمان الصادق يورث في القلب المحبة التي تجعل العبد ينقاد ويذعن لمن آمن به، قال ابن رجب: كل من أحب شيئًا وأطاعه وكان غاية قصده ومطلوبه، ووالىٰ لأجله وعادىٰ لأجله، فهو عبده، وكان ذلك الشئ معبوده وإلهه[1].

كما قال الأول:

إن هــواك الــذي بــقــلــبــي
صــيــرنــي ســامــعًــا مــطــيــعــا
أخــذت قــلــبــي وغــمــض عــيــنــي
حــرمــتــنــي الــنــوم والــهــجــوعــا
فــخــذ فــؤادي ودع رقــادي
قــال لا بــل هــمــا جــمــيــعــا

وقال الآخر:

تـعـصـي الإلـه وأنـت تـظـهـر حُـبَّـهُ
هـذا لـعـمـري فـي الـقـيـاس شـنـيـع
لـو كـان حـبـك صـادقًـا لأطـعـتـه
إن الـمـحـب لـمـن يـحـب مـطـيـع

(١) «كلمة الإخلاص» (٢١).

- ٤ -

أصول العبادة

وهي الثلاثة السابقة:

١- المحبة.

٢- الخوف.

٣- الرجاء.

والخوف والرجاء يجتمع في الذل والخضوع والتعظيم.

وسيأتي تفصيلها في قواعد مفردة.

- ٥ -

عتبة العبودية

قال ابن تيمية: ومن أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية اهـ[١].

فالعبادة شرف عظيم للمؤمن الموحّد لربه تعالىٰ، أن يكون عابدًا لله وحده، وذلك من أعظم مقاصد التوحيد، فقد جُبِلَت النفوس علىٰ التعلق بمعبود، وفطر الله الخليقة علىٰ ذلك، فإن هم عبدوا الله وحده

(١) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٤٢٩) ط. دار الكتاب العربي.

كان ذلك توجيهًا صحيحًا لهذه الفطرة الربانية فارتفعت روح الإنسان إلىٰ العلوّ، وعاشت الحياة الحقيقية، وكان ذلك أعظم سعادة لها:

وممـا زادنـي شـرفًـا وَتِـيْـهًـا
وكِـدتُ بـأخـمُـصِـي أطـأُ الـثُّـريَّـا

دخـولـي تـحـت قـولـك يـا عـبـادي
وأن صَـيَّـرتَ أحـمـد لـي نـبـيـا

وإلا تعلقت بالجسد ودنت من الأرض، وللروح لغة غير لغة الجسد، وحديث غير حديث الجسد، وغذاء غير غذاء الجسد، ونعيم غير نعيم الجسد ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

فالكرامة لهذا الإنسان أن يعبد الله فاطر السموات والأرض ومبدع الأكوان وخالق الإنسان، من بيده ملكوت كل شيء؛ من يملك السمع والبصر والنفع والضرّ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٢-٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١-٣٢].

وحثَّ جل وعلا عباده علىٰ المصابرة علىٰ عبادته، فقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، ومن عبد الله وحده وأخلص له أحبه اللهُ وتولاَّه، ففي الحديث القدسي: «**إنَّ الله**

تعالىٰ قال: مَن عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَد آذَنتُهُ بِالحَربِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افتَرَضتُ عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبطِشُ بِهَا، وَرِجلَهُ الَّتِي يَمشِي بِهَا، وَإِن سَأَلَنِي لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِن استَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدتُ عَن شَيءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَن نَفسِ المُؤمِنِ؛ يَكرَهُ المَوتَ وَأَنَا أَكرَهُ مَسَاءَتَهُ». خرجه البخاري.

فما أعظمها من عبودية، وما أشرفه من مقام.

ولما كان عليه الصلاة والسلام قد حقق أعلىٰ مقامات العبودية ووفىٰ بها، وصفه ربه جل شأنه بها في أعظم المواقف وأكرم المشاهد، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

وحين ينحرف الإنسان عن طريق العبودية لله رب العالمين تاركًا سبيلها؛ فإنه يرتكس في حمأة الضلالة، وتخبو منه جذوة النور الرباني ويتنكب طريق الفطرة وهدايتها، ويتسلط عليه سلطان الباطل فيضله ويرديه، ويحرفه عن الرِّقِّ السَّامي الكريم لله رب العالمين إلىٰ الرقِّ الساقط الرخيص لمخلوق مثله:

هربوا من الرِّقِّ الذي خلقوا له
فَبُلُوا برقِّ النفس والشيطان

قال الله تعالىٰ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ [مريم: ٤٤]، وقال: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [**الجاثية**: **٢٣**]. وقال تعالىٰ: ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ١٢ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ [**الحج**: ١٢-١٣].

وفي صحيح البخاري عنه ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة تعس عبد الخميلة تعس وانتكس . . .**». الحديث، تعس أي خرَّ علىٰ وجهه، وانتكس فلايقوم من سقطته حتىٰ يسقط ثانية هي أشد من الأولىٰ، فهو مشهد الانتكاسة والسقوط المتكرر المهين، مشهد يصور حال العبد المتعبد لغير الله، وهو يخر علىٰ وجهه إلىٰ الأرض ويهوي إليها في حال من الذلِّ والهوان والشقاء، ويصوِّر لنا القرآن روح المشرك التي تلطخت بأوحال الشرك والكفر كيف تهوي في أسفل سافلين: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾.

معبودات لا تعد ولا تحصىٰ، ظاهرة وباطنة، صريحة وخفية، تبدو حينًا ويخفيها أصحابها حينًا من البشر والحجر، والشجر والبقر والمال، والجاه والشهوة، والمادة والحضارة وغير ذلك.

يخضع لها البشر ويستجيبون، تسيطر علىٰ قلوبهم ومشاعرهم، مع أنها مخلوقات ضعيفة كضعف عابدها، محتاجة كحاجته، ذليلة كذُلِّهِ، مسخرةٌ لفاطر الأرض والسموات، والله جل شأنه يريد بعبده الرفعة والعلو وهو يدعوه إلىٰ عبادته ويأمره بإخلاص الدين له. فغاية الإهانة والذلة أن يتوجه العبد بالعبادة والخضوع والخشوع والخشية

لمخلوق مثله، لايملك لنفسه نفعًا ولايدفع عنها ضرًا، ثم هو يخافه ويرجوه، ويستكين له ويدعوه، قال تعالىٰ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾.

والله ﷻ هو الذي بيده النواصي، يحيي ويميت، يخفض ويرفع، ويعطي ويمنع: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وهوالذي تتوجه إليه الكائنات وتصمد له الخلائق وتسبِّح له المخلوقات ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾، وهو سبحانه المؤمنُ يؤمِّنُ عبادَه مما يخافون، وهو اللطيف يوصل لهم رحمته وهم لايشعرون، فتمتد إليهم رحماته، وتحيط بهم لطائفه وأسراره، وهو الودود الواسع في فضله وعطائه، المنان يجود بالنوال قبل السؤال، جميل يحب الجمال، القابض الباسط المعطي المهيمن الكبير المتعال.

فالمؤمن بالله قد علت نفسه بهذه العبودية وارتفعت، وتجاوزت حطام المعبودات وسمت، فروحه إلىٰ العلياء تصعد، وروحه بمناجاة الله وحبه تسعد، قد استمسك بالعروة الوثقىٰ ونفسه تتطلع إلىٰ جنة المأوىٰ، فهو يدين لربه الرزاق ذي القوة المتين، لايعبد غيره ولا يستكين، ولا يذل لمربوب سواه ولا يلين، وهذا من أعظم كرامة الله للإنسان، ومن أجل حقوقه التي جاء بها الإسلام ودعا لها القرآن.

فأين ماتدعيه أمم الكفر من رعاية حقوق الإنسان وحرية البشر، وهي تأذن بمثل هذه المعبودات أن تنتزع منه كرامته وتسلبه أعظم

شرف له، وتحول بينه وبين أعظم معبود وأجل مقصود، فلا ينال السعادة الحقيقية في دنياه ولا النجاة في أخراه.

لقد جاء الإسلام بتحقيق العبودية لله رب العالمين، ليطهر الإنسان من دنس الحياة وأوضارها، ويسمو به إلىٰ قمم المعالي وعليائها، وإلىٰ شرف العبودية ونقائها، وطهر المحبة وصفائها، يبين هذا المعنىٰ الجميل الصحابي الجليل، بأوجز عبارة وأدق إشارة؛ يقول ربعي بن عامر ﵁ لرستم قائد الفرس في معركة القادسية: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلىٰ عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلىٰ خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبىٰ قاتلناه أبدًا حتىٰ نفضي إلىٰ موعود الله اهـ وهذا كلام جليل القدر لايصدر إلا عن توفيق وتسديد وفقه وتأييد(١).

والمؤمن يحلِّق بالعبودية في سماء الحرية، فإذا مات عَلِقَت روحه بأشجار الجنة، وإن في الدنيا جنة من يذقها يذق جنة الآخرة، وفي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٥٥) عن الشافعي عن مالك عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما نَسَمَةُ المؤمن طائرٌ يعلُقُ في شجر الجنة، حتىٰ يَرجِعه الله تبارك وتعالىٰ إلىٰ جسده يوم يبعثه**».

وأما من أَسَرَتْ قلبَه شهوةٌ زائلةٌ أو شبهةٌ عالقةٌ فهو المأسور وإن

---

(١) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٦٢٢) ط. دار هجر، فقد ذكر هذه الرواية من طريق سيف بن عمر وهو عمدة في التارخ ضعيف في الحديث.

ادعىٰ الحرية، وهو الموثوق وإن انطلقت به قدماه، قال ابن تيمية: إن أَسْرَ القلبِ أعظم من أَسْرِ البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استُعْبِد بدنُهُ واستُرِقَّ لا يبالي ما دام قلبه مستريحًا من ذلك، مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو ملك الجسم رقيقًا مستعبدا مُتَيَّمًا لغير الله فهذا هو الذُّلُّ والأَسْرُ المحْضُ، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب اهـ[1].

- ٦ -

﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾

العبودية شعار المؤمن ودثاره، لا تفارقه في نومه ويقظته، في صبحه ومسائه، في حله وترحاله، فهو مع الله، يفيض عليه من رحمته، وينزل عليه سكينته ويشرح صدره، ويربط علىٰ فؤاده، ويجافي عنه هموم الحياة، ويصدر عن يقين يملأ قلبه، ومحبة صادقة، تخفق بها روحه، وإيمان يبهجُ حياته: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، فعبوديته ومحبته وخوفه ورجاؤه ملازم لقلبه، لا ينفك عنه.

المؤمن العابد قد ذَلَّ لله قلبه ولسانه وجوارحه، واستسلم لخالقه، وأخلص لربه ومولاه، فأعطاه سؤله وتولاه، فمن حفظ الله حفظه الله ورعاه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥].

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/١٨٦).

قال ابن القيم[1]: **ورحىٰ العبودية تدور علىٰ خمس عشرة قاعدة**، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية، وبيانها: أن العبودية منقسمة علىٰ القلب واللسان والجوارح، وعلىٰ كل منها عبودية تخصُّهُ، والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح . . . ثم بيَّنها؛ فذكر من عبودية القلب الواجبة: الإخلاص والتوكل والمحبة والصبر، وذكر الخلاف في الرضا؛ هل هو من العبادات الواجبة أو المستحبة؟

ومن محرماته: النفاق والشرك والشك والكفر والكبر والرياء والعُجْب والحسد؛ وتوابعها.

ومن واجبات عبودية اللسان: النطق بالشهادتين وقراءة ما يتوقف عليه صحة الصلاة، ومن محرماته: النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله.

وأما عبودية الجوارح فعلىٰ خمس وعشرين مرتبة؛ إذ الحواس خمسة، علىٰ كل حاسَّةٍ خمسُ عبوديات، فعلىٰ السمع: وجوب الإنصات لما أوجبه الله ورسوله، وتحريم استماع الكفر والبدع.

فالعبادة: ظاهرة وباطنة، فالباطنة: هي قول القلب وعمله وعبوديته، وهي أصل عمل الجوارح، فمن صحت له عبودية القلب انقادت له الجوارح وسهُل عليها ذلك، ومن ضعفت في قلبه العبودية ثقُل ذلك علىٰ جوارحه، حتىٰ كان من حال المنافقين في صلاتهم وزكواتهم وجهادهم ما يدل علىٰ انطفاء جذوة العبادة والفطرة في

(١) ينظر: «مدارج السالكين» (١/١٢٩-١٣٠) وما بعدها مختصرا، ط. دار الكتاب العربي.

قلوبهم، قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧] وقال: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ [النساء: ٨٨].

وقال ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**». خرجاه في الصحيحين.

فعبودية القلب هي أصل عمل الجوارح، ووقود العمل الصالح، فإذا صلحت الجوارح ولم يصلح القلب فلا اعتبار لها ولا شأن، وإذا صلح القلب استقامت الجوارح مظهِرَةً صحة التعبد وحقيقة اليقين وسلامة الأصل، لا تتخلَّف عن ذلك قال تعالىٰ: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، فظهر صلاحها، وبان أثر القلب فيها، هذه عبودية الظاهر والباطن عند أهل السنة والجماعة ومن سلك سبيل السلف الصالح وتدبر القرآن والسنة.

المحبة

- ١ -

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾

في هاتين الكلمتين الجامعتين تبدو عظم العلاقة وجمال الصلة بين العبد وربه، حين تلتقي هاتان المحبتان ليكون لهما الأثر الجميل في حياة المؤمن، في حِسِّهِ ونفسه ومشاعره وحركاته وسكناته، وهو يحمل الحب العظيم لرب عظيم يحبه، وينال رضاه، فتورث هذه المحبة طاعة وانقيادًا للمحبوب، وقربًا منه، فلا يعمل إلا ما يرضيه، ويصون جوارحه عما يسخطه، كما قال تعالىٰ عن نفسه: «**فَإِذَا أَحبَبتُهُ كُنتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبطِشُ بِهَا، وَرِجلَهُ الَّتِي يَمشِي بِهَا، وَإِن سَأَلَنِي لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِن استَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**». رواه البخاري

وإذا أحب العبد ربه: رضي بقضائه، وآثر محبوبه علىٰ محبوب نفسه، فيفعل مايحبه الله وإن كرهته النفس، ويترك مايكرهه الله وإن أحبته النفس، ويؤثر محبوب الله ﷻ وإن كرهه الناس، ويبغض ما يبغضه الله وإن أحبَّهُ الناسُ.

فالمحبة هي حقيقة العبودية وسِرُّهَا، وهي عنوان الطاعة وروحها:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ
وليتك ترضىٰ والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خرَابُ

إذا صحَّ منك الودُّ فالكل هَيِّنٌ
وكل الذي فوق الترابِ ترابُ

فإذا صحت هذه المحبة أشرقت لها الدنيا وسعدت بها القلوب وصفت لها النفوس، وكان المحبون أقرب لربهم إخلاصًا ولسنة نبيه ﷺ اتباعًا:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

والعبادة المأمور بها تتضمن غاية الذل وغاية الحب، فإن آخر مراتب الحب هو التَّتَيُّم، يقال: تَيْمُ الله، أي عبد الله، فالمتيَّمُ هو المتعبِّدُ لمحبوبه[(١)].

محبة الله هي محبة عبودية دائمة لا تنقطع بحياة ولا موت ولا يقظة ولا نوم ولا صحة ولا مرض، بل هي ملازمة للقلب، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾.

(١) «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١٠/ ١٥٣) وللمحبة مراتب وأنواع.

فما يقوم بالقلب من هذه المحبة لا ينقطع ولا يزول، إذ بزواله تزول العبودية، والعاصي الذي يعمل المعصية لايزول عن قلبه أصل المحبة، ولكنه في غفلة وجهالة كما قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾. روىٰ ابن جرير (٣/ ٦٤٠): حدثنا الحسن بن يحيىٰ أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال: اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عُصِيَ اللهُ به فهو جهالة، عمدًا كان أو غيره. وكذا رواه ابن جرير عن مجاهد وغيره، وروىٰ عن أبي العالية: أنه كان يحدث؛ أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون: كل ذنب أصابه عبد فهو بجهالة.

- ٢ -

معنى المحبة

المحبة مأخوذة من الحُبِّ، وهونقيض البغض، وأصله: اللزوم والثبات، أحبه إذا لزمه، ويمكن أن تكون مأخوذة من حبَّة القلب، قال ابن فارس: حبة القلب: سويداؤه، ويقال: ثمرته. والمحب: البعير الذي يحسر فيلزم مكانه. اهـ

فالمحبة هي ثمرة القلب وميل القلب للمحبوب ولزوم المحبوب قلب المحب.

- ٣ -

المحبة المشروعة

جعلها ابن القيم خمسة أنواع[١]، ويمكن جمعها في قسمين:

القسم الأول: المحبة المشروعة:

وهي التي دلت النصوص علىٰ مشروعيتها بل ووجوبها وهي نوعان:

النوع الأول: محبة العبودية، وهي المستلزمة كمال الطاعة والذل والتعظيم المتضمن لمعنىٰ الخوف والرجاء، وهي المحبة الكاملة الخالصة الخاصة بالله جل وعلا، فمن أعظم مقاصد التوحيد إفراد الله بهذه المحبة دون غيره، فلا يجوز أن تتعلق بغير الله.

وتحصل هذه المحبة بأمرين:

إخراج هذه المحبة من القلب إذا كانت لغير الله وقطع العلائق التي تُعَلِّقُ القلبَ بغير الله.

أن يُسقىٰ القلبُ بالإيمان والتفكر والنظر في أفعال الله تعالىٰ وألطافه ورحماته ومعرفته حق المعرفة، وبذكره وشكره وحسن عبادته، فإن المحبة منها ما ينشأ عن تعظيم المحبوب، ومنها ما ينشأ عن النظر في إحسان المحبوب ومطالعة نعمه.

---

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (٢٨١) ط. مكتبة المعارف.

ولهذه المحبة لوازم وعلامات ستأتي، ومن شروط (لاإله إلا الله): المحبة المنافية للبغض، فلابد من أمرين كل واحد منهما يستلزم الآخر: وجود المحبة، وانتفاء البغض.

وإذا صرفت المحبة لغير الله كانت محبة مع الله، وذلك شرك أكبر، وهي التي سوىٰ المشركون بين الله تعالىٰ وبين آلهتهم فيها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾

قال ابن القيم: الأول: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله اهـ(١). وقوله: لا تكفي، لأن محبتهم له لم تكن خالصة.

وضد هذا النوع من المحبة بغض الله تعالىٰ وهو كفر أكبر، ويدخل في معنىٰ ذلك: وصفه جل وعلا بصفات فيها معنىٰ البغض والتنفير والاحتقار والازدراء، كالظلم للعباد، أو أن الله لايقضي بالعدل والحق، أو سوء التدبير، أو أن الله يخذل رسله وأولياءه وعباده، أو مقارنته بما هو مبغض أو مكروه كالشيطان، ونحو ذلك مما ينافي محبة الله، ويدل علىٰ البغض.

النوع الثاني: محبة لأجل الله، وتشمل: محبة ما يحبه الله، ومحبة في الله، فتحب ما يحبه الله من الإيمان والعبادة والطاعة والبرِّ

---

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (٢٨١) ط. مكتبة المعارف. «تيسير العزيز الحميد» (٤٧٢-٤٧٣) ط. مكتبة العلوم والحكم

والصلاة والمساجد، وتحب السنَّة والشريعة المحمدية، كما تحب الأشخاص كالأنبياء والصالحين وكذا الأقوال والأفعال والأمكنة والأطعمة والأشربة، وتبغض ما يبغضه الله من الكفر والشرك كعقائد المجوس وعبدة الأوثان والصليب والتثليث، والمعصية والبدعة، كما تكره وتبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأقوال والأفعال والأمكنة والأطعمة والأشربة، كالخمر والميسر والأنصاب والأزلام والفواحش ماظهر منها وما بطن.

فشرط المحبة موافقة المحبوب، فتحب ما يحب، وتكره ما يكره، وتبغض ما يبغض، فهذه المحبة من محبة الله ولوازمها، وقد جعل ابن القيم[1] هذا النوع نوعين فقال: الثاني: محبة ما يحب الله، هذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلىٰ الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها، قال: الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحبه، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله اهـ.

ومن الأدلة علىٰ هذا النوع: حديث أنس؛ أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوةَ الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**» متفق عليه.

(١) السابق.

وعنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحبَّ إليه من ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين**». خرجاه في الصحيحين عن أنس، ومثله حديث عمر لما قال: لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**والذي نفسي بيده حتىٰ أكونَ أحبَّ إليك من نفسك**»، فقال له عمر: فإنك الآن والله أحب إلي من نفسي، فقال: «**الآن يا عمر**». رواه البخاري.

وفي الموطأ (١٨٤٣) عن معاذ رضي الله عنه قال: قال ﷺ: قال الله تعالىٰ: «**وَجَبَتْ محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالِسِين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمُتَبَاذِلينَ فيَّ**».

ومحبة ما يبغضه الله أوبغض مايحبه الله تارة يكون كفرًا أكبر، وتارة يكون معصية، فمن الكفر الأكبر أن يحب الكفر أو الكافرين جملة، أو يبغض الإسلام أو أهل الإسلام جملة، وكذا من يبغض النبي ﷺ، فمحبته إيمان وبغضه كفر ونفاق، ومثله من يبغض جملة الطاعات أو يبغض الطاعة لأنها طاعة، فهذا يدلُّ علىٰ بغضه جنس الطاعات، ومثله من يحب المعاصي جملة أو يحب المعصية لأنها معصية فهذا كفر ونفاق، فهو ما أحبها إلا لكونه يحب ما يبغض الله جملة، وذلك لا يجتمع مع الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

قال ابن رجب: ومن تمام محبته محبة مايحبه وكراهة مايكرهه، فمن أحب شيئًا مما يكرهه الله، أو كره شيئا مما يحبه الله لم يكمل

توحيده، ولا صدقه في قول: لاإله إلا الله، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ماكرهه مما يحبه الله وما أحبه مما يكرهه الله، قال: قال مجاهد في قوله ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾، قال: لا يحبون غيري اهـ[(١)].

ويدل لذلك أن من استهزأ بآيات الله أو دينه وشعائره فإنه يكفر ولو كان ذلك بشعيرة واحدة، وكذا من فرح بانتصار الكفار وهزيمة المسلمين، أو حزن علىٰ هزيمة الكفار وانتصار المسلمين، فهذا يفرح بجنس المعصية ويحب ظهورها، ويحزن علىٰ جنس الطاعة ويحب زوالها.

ومثله من سب الله تعالىٰ أو سب نبيه ﷺ أو سب صحابته الكرام جميعا أو جملتهم فهذا كافر بإجماع المسلمين، والسب هو الشتم وكل كلام قبيح يوجب الإهانة والنقص والاستخفاف، لأنه مناقض للمحبة والرضا والولاء.

ولا يكون كفرًا من يقع في شيء من المعاصي أو يحبها لكونه يعملها أو توافق شهوته وهواه، كمن يحب الخمر أو الزنا، فهذا لا يلزم منه أنه يحبها لأنها معصية، ولا يلزم منه أنه يحب جنس المعاصي، وكذا من يبغض أو يكره شيئا من الطاعات لا لكونها طاعةً، وإنما لكونها ثقيلة عليه، أو تمنعه شهوته وتقطع عنه لذته، فهذا

---

(١) «كلمة الإخلاص» (٢٣-٢٤)، وهذا الأثر لفظه عند ابن جرير في المطبوع (٩/ ٣٤٤): لا يخافون غيري. وكذا أخرجه عبد ابن حميد عن ابن عباس ﷺ موقوفًا، وأخرجه ابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر عن مجاهد مثل ما أخرجه ابن جرير، «الدر المنثور» (٦/ ٢١٦). فالله أعلم.

لا يكره الطاعة لذاتها أو لأنها طاعة ولا يكره جنس الطاعات، وإنما يكره فعلها الذي يمنعه شهوته وهواه، كمن يكره حَدًّا أو عقوبةً شرعيةً لأنها تؤذيه، كالجلد أو الرجم أو القتل، وكذا من يكره الطهارة في البرد، أو من يكره الجهاد خوفًا من القتل، وككره المرأة تعدد الزوجات، فهذا لم يكره ذات التشريع وإنما كره أثره ومشقته.

وقد تجتمع الكراهة الطبيعية مع المحبة الدينية كما في شعيرة الجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾. كما أنه قد تجتمع المحبة الطبيعية مع الكراهة الدينية، كما في محبة الوالدين الكافرين ومودة الزوجة الكتابية.

والمقصود هنا هو أن المحبة الدينية لما يحبه الله والكراهة الدينية لما يبغضه الله من أوجب الواجبات التي لايقوم التوحيد إلا بها، ولهذا جاء في الحديث: «**أوثق عرىٰ الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله**». رواه أحمد (٤/ ٢٨٦) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، وروىٰ أبو داود في سننه (٤٦٨١) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من أحب لله وأبغض لله، وأعطىٰ لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**».

روىٰ الترمذي (٢١٦٥) عن عمر رضي الله عنه مرفوعا: «**من سرته حسنته وساءته خطيئته فذلك المؤمن**».

فإذا أحبَّ المعصية طبعًا وكرهها دينًا، فهذا لا يزول إيمانه، بل هو ناقص ويتفاوت، وله أحوال بين الجواز والتأثيم والعصيان، ودونه من لم يكره المعصية أو لم يحب الطاعة لاطبعًا ولا دينًا، فإن المعصية

كما قال محمد بن نصرالمروزي: الفاسق يكرهها تدينًا. قال ابن تيمية: أي يعتقد حرمتها، وهو يحب دينه، وهذه من جملته، فهو يكرهها، أو يحب دينه مجملًا وليس في قلبه كراهة لها، فيكون قد عدم من الإيمان بقدر ذلك، كما في الحديث الصحيح: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». وقال: «**فمن جاهدهم بيده فهومؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**». فعلم أن القلب إذا لم يكن فيه كراهة ما يكرهه الله لم يكن فيه من الإيمان الذي يستحق به الثواب، وقوله: «**من الإيمان**»، أي من هذا الإيمان، وهو الإيمان المطلق اهـ[1].
والحديثان في صحيح مسلم.

فعندما لا يكره الشخص ما يبغضه الله من الأقوال والأفعال والشهوات المحرمة فإن هذا يكون من المعصية المنافية لكمال الإيمان ما لم تكن محبته للمعصية لأجل أنها معصية، فإنه كلما ازداد تعلقه وحبه للمعصية كلما ضعف إيمانه، حتىٰ ربما أَلِفَ ما يبغضه الله من الأشخاص والأقوال والأفعال وغيرها من المعاصي المحرمة، فيزداد حبُّهُ لها وولعه بها وولهه عليها، حتىٰ ربما أظهر من الحب والرغبة فيها ما ينشد من أجله الأشعار، ويهتك الأستار، ويعلن فسقه ومجاهرته وتعلقه بإثم وفاحشة، أوخمرة وغانية، أو ربًا وقمار، فإن زيادة الإمساس تضعف الإحساس، قال ابن رجب: وقد ورد إطلاق الإله علىٰ الهوىٰ المتبع، قال الله تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ

(١) «الإيمان» لابن تيمية (٤٨-٤٩).

هَوَىٰهُ﴾ قال الحسن: هو الذي لايهوىٰ شيئا إلا ركبه. وقال قتادة: هو الذي كلما هوي شيئا ركبه وكلما اشتهىٰ شيئا أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوىٰ، قال: ويشهد لذلك الحديث الصحيح: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميلة، تعس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقش**». اهـ[1]. رواه البخاري.

قد أمر النبي ﷺ بمفارقة أهل الباطل والكفر، والبعد عن مواطنها، فقد روىٰ النسائي (٢٥٦٨) عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ؛ وفيه: «**لا يقبل الله ﷻ من مشرك بعدما أسلم عملًا أو يفارق المشركين إلىٰ المسلمين**». وفي الصحيحين في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس حتىٰ أمره العالم بالانتقال إلىٰ قرية فيها قوم صالحون، ما يشهد لهذا وقد قال ﷺ: «**لاتصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**». رواه الترمذي (٢٣٩٥)، وابن حبان (٢/ ٣١٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن إنما نعرفه من هذا الوجه اهـ.

وقد يقود التعلق بالمعصية إلىٰ استحلال المحرم واستباحة الواجب، ولهذا فإن المعاصي بريد الكفر، وهذا من الكفر الخفي الذي هو أخفىٰ من دبيب النملة السوداء علىٰ صفاة سوداء، ومن كانت هذه حاله وقع في التفريط بترك الشعائر الظاهرة فلا يفعلها إلا مجاملة أو لمناسبة، وواقع المحرمات والكبائر دون أن يتيقظ لذلك قلبه فربما طمس علىٰ بصيرته وختم علىٰ قلبه وهو لايشعر، والأدلة علىٰ ذلك

---

(١) «كلمة الإخلاص» (١٩-٢٠).

كثيرة، قال ﷺ: «**لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله علىٰ قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين**». رواه مسلم من حديث ابن عمر وأبي هريرة، وقال تعالىٰ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾. وجاء عند ابن ماجه (٣٣٧٥) عن أبي هريرة مرفوعا: «**مدمن الخمر كعابد الوثن**». وسنده ضعيف.

وروىٰ مسلم عن حذيفة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ علىٰ القلوب كالحَصِيْرِ عُوْدًا عُوْدًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِتَ فيه نكتةٌ بيضاء، حتّىٰ تصيرَ علىٰ قلبين؛ علىٰ أبيضَ مثلِ الصَّفَا فلا تضرُّهُ فتنةٌ ما دامت السَّمواتُ والأرضُ، والآخرُ أَسْودُ مُرْبَادًّا، كالكُوْزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ معروفًا ولا ينكر مُنْكرًا إلاَّ ما أُشْرِبَ من هَوَاهُ**».

- ٤ -

المحبة المباحة

القسم الثاني: المحبة المباحة.

وهي محبةٌ لا تتعلق بالعبودية؛ فليس فيها ذلٌّ ولا خضوعٌ ولا تعظيمٌ، ولا هي من لوازم العبودية، وإنما تتعلق بأسباب فطرية ومصالح دنيوية، ولهذه المحبة صور:

أ- محبة طبيعية كمحبة الطعام والشراب ومحبة النكاح والنوم.

ب- محبة إشفاق كمحبة الوالد لولده.

جـ- محبة أنس كمحبة الصديق لصديقه، ومحبة من أسدىٰ إليه معروفا، ومحبة الزوج، ومحبة الشريك لشريكه، ومحبة التلميذ لمعلمه.

ووجه الفرق بين هذه المحبة والمحبة الدينية المشروعة ما يلي:

١- أن المحبة المباحة قائمة بقيام سببها الدنيوي، وهو العلاقة والمصلحة المتبادلة بين المحب والمحبوب، فمحبة الوالد لولده لأجل الأبوة ولولاها ما أحبه، وكذا الزوج لزوجته والصديق لصديقه، ومحبة الطعام للذته، وأما محبة المؤمن ومحبة الطاعة فهي محبة مطلقة، قائمة بقيام سببها الشرعي الديني؛ وهو كونها من لوازم محبة العبودية، ولولا محبة الله ما أحبها.

٢- أن المحبة المباحة غير دائمة بل منقطعة بانقطاع العلاقة والمصلحة، بخلاف محبة الله ومحبة ما يحبه الله فهي قائمة لا تنقطع ولا تزول، بل إن المؤمن ليحب المؤمنين ولو لم يرهم، ويحبهم ولو لم توجد بينه وبينهم علاقة أومناسبة، لأنها من محبة الله، فهو يحبهم في كل حال وقد وصف الله المؤمنين فقال: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال ﷺ: «**وددنا أنا قدر رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله، قال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذي لم يأتوا بعد**». رواه مسلم وقال ﷺ: «**من أشدِّ أمتي لي حُبًّا ناسٌ يكونون بعدي، يَوَدُّ أحدُهُم لو رآني بأهلِهِ ومالِهِ**» رواه مسلم.

وهي محبة مستمرة في الدنيا وفي الدار الآخرة، وغيرها ينقطع ويتحول إلىٰ عداوة، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

والأصل في هذا النوع الثاني من المحبة الإباحة والجواز، فإذا ما تعارضت محبة الله مع محبة غيره، وجب تقديم محبة الله، ومحبة ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله، فإن قام في القلب ما يستدعي محبة ذلك، وجبت مدافعته ومغالبته وتقديم محبة الله علىٰ محبة غيره.

فالكافر يجب بغضه في الله ولو كان أقرب قريب كما قال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾، وقال: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾. وقال تعالىٰ عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾، قال ابن تيمية: وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدىٰ عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك، قال: فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه اهـ[1].

والمقصود أن الكافر يجب بغضه في الله، ويجب ألا يُحبَّ المحبة الدينية وهي المحبة المطلقة الدائمة، فإن كانت محبته لسبب دنيوي قائم فهي المحبة الطبيعة ولا تتعارض مع المحبة الدينية، كأن يكون والدًا أو ولدًا أو زوجة كتابية، فالوالد قد يكون له ابن كافر، والولد له أب كافر، والشريك يكون له شريك كافر يعمل معه،

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/٢٠٨).

والرجل يتزوج امرأة كتابية، ونحو ذلك ممن تحصل بينه وبين المسلم علاقة دنيوية ظاهرة، فهذا أمر فطري مباح.

وظاهر القرآن -كما في الآيات السابقة- أنه لا يجتمع الإيمان ومودة الكافر مودة دينية، فيجب بغضه في الله، سواء ظهرت منه المعاداة والمقاتلة أو لم تظهر، فإن كان ممن لم يقاتل المسلمين ولم يظاهر عليهم جازت محبته محبة دنيوية وصلته والبر والقسط والإحسان إليه ومعاملته بالحسنىٰ، مع بغض ما فيه من الكفر، دلَّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾.

قال ابن حجر: البر والصلة والإحسان لا تستلزم التحابب والتوادد المنهي عنه في قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ ... الآية اهـ[(١)].

ومثله ورد في حديث أسماء رضي الله عنها قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول ﷺ فقلت: يا رسول الله إنَّ أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «**نعم، صلي أمك**». متفق عليه. وأهدىٰ عمر لأخ له مشرك، وحَزِنَ النبي ﷺ علىٰ وفاة عمه أبي طالب.

قال الخطابي: فيه أن الرحم تُوصَلُ من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة وإن كان

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٥/٢٩٣)، حديث رقم (٢٦٢٠) ط. دار الكتب العلمية.

الولد مسلمًا اهـ[١]. وقال ابن القيم: الذي يقوم عليه الدليل وجوب الإنفاق وإن اختلف الدينان لقوله تعالىٰ: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، قال: وصلة الرحم واجبة، وإن كانت لكافر؛ فله دينه وللواصل دينه، وقياس النفقة علىٰ الميراث قياس فاسد، فإن الميراث مبناه علىٰ النصرة والموالاة، بخلاف النفقة، فإنها صلة ومواساة من حقوق القرابة اهـ[٢].

وعليه فلا ينفق عليه وتحرم صلته إذا وقف في صف العدو وظاهر علىٰ المسلمين.

وكذا الزوجة الكتابية فإنها بعد الزواج تصبح زوجة لها حق المصاحبة بالمعروف والنفقة والبر، ولا يَحْرُم الزواج منها وقد أباحه الدليل، فيجوز الزواج منها، وتجوز محبتها المحبة الدنيوية المباحة، ويصحبها بالمعروف كوالديه الكافرين، وذلك لا يعني محبتهم محبة دينية، ولذا فهم يبغضون لكفرهم، ولا تلازم بين المحبتين، فتحصل المحبة الطبيعية مع بغضٍ في الله، فإن الإنسان بفطرته يحب والديه وولده وزوجه.

---

(١) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٥/ ٢٩٣)، و«الولاء والبراء» محماس الجلعود (٢/ ٧٨٠) وزاد في كلام الخطابي -بعد قوله: كما توصل المسلمة-: لكن تتميز الرحم المسلمة بالمحبة والمودة القلبية والرضا لأن المسلم قد تجرد من أقبح صفة يمكن أن يتصف بها إنسان علىٰ وجه الأرض ألا وهي صفة الكفر اهـ ولم أقف عليها في «الفتح».

(٢) «أحكام أهل الذمة» لابن القيم (٢/ ٤١٧-٤١٨)، وينظر: «الولاء والبراء في الإسلام» للدكتور محمد القحطاني (٣٥٣-٣٥٥).

ومحبة الولد الكافر والوالدين الكافرين وكذا محبة الزوجة الكتابية وإن قيل عنها إنها محبة فإنهم لا يساوون بالمسلمين الذين يحبون محبة الولاء والنصرة والتأييد والأخوة في الدين ولا ينزلون منزلة المسلمين في القرب والنصرة وطلب الرضا.

وقد ذكر ابن جرير وجهين في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾؛ أحدهما: لاتهدي من أحببت هدايته، قال: ولو قيل معناه: إنك لاتهدي من أحببته لقرابته منك ولكن الله يهدي من يشاء، كان مذهبًا اهـ[1].

ونص بعضهم علىٰ أن النبي ﷺ كان يحب عمَّه أبا طالبٍ حبًا طبيعيًا لاحبًا شرعيًا[2]. وذكره ابن عثيمين احتمالًا فقال: أو يقال: إنه أحبَّ عمَّه محبةً طبيعيةً، كمحبة الابن أباه ولو كان كافرًا، أو يقال: إن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين، والأول أقرب، أي من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره، قال: ويجوز أن يحبه محبة قرابة ولاينافي هذا المحبة الشرعية، وقد أُحِبُّ أن يهتدي هذا الإنسان ليس لأنه فلان، وإن كنت أبغضه شخصيًا لكفره، ولكن لأني أُحِبُّ أن الناس يسلكون دين الله اهـ[3].

وأما المسلم العاصي فيجتمع فيه حبٌّ وبغضٌ، حبٌّ لما فيه من أصل الإيمان، وبغض لما فيه من المعصية، ولذا تجب مجانبته حال المعصية ولا تحرم مجالسته إذا كان علىٰ غير معصية. والله أعلم.

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٨٧).

(٢) «تيسير العزيز الحميد» (٢٩٩).

(٣) «القول المفيد» (١/ ٣٥٢).

- ٥ -

من علامات محبة الله ﷻ

لمحبة الله في قلب المؤمن علامات يعرف بها فمن ذلك:

١- اتباع النبي ﷺ، روىٰ ابن جرير (٣/ ٢٣١) قال الحسن: قال قومٌ علىٰ عهد النبيِّ ﷺ: يا محمد؛ إنا نحبُّ ربنا. فأنزل الله: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ﴾، فجعل اتباع نبيه محمدًا ﷺ علمًا لحبه وعذابِ من خالفه اهـ ورجح ابن جرير أنها في وفد نجران، رواه عن محمد بن جعفر بن الزبير، ثم قال: ماروىٰ الحسن في ذلك مما قد ذكرناه فلا خبر به عندنا يصحُّ اهـ.

٢- الذلة والرحمة للمؤمنين.

٣- العزة علىٰ الكافرين.

٤- المجاهدة في سبيل الله وبذل النفس والمال من أجله.

٥- لا تأخذهم في الله لومة لائم، فهم صابرون علىٰ مخالفة الهوىٰ في سبيل الله، صابرون علىٰ ذمِّهم في الحق، يقيمون الحق والعدل ولو كثر أهل الباطل.

دلَّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. الآية. وقوله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

الخوف والرجاء

- ١ -

الخوف والرجاء والخشية

قال ابنُ فَارس: الخوف أصلٌ واحدٌ يدلُّ علىٰ الذُّعر والفَزَعِ اهـ.

والخوف مصدر خاف يخاف خوفًا، وهو انفعال يحصل في القلب من توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. وضده الأمن.

والخشية كالخوف، وقيل: إن اقترن بتعظيم سمي خشية.

وأما الرجاء: فهو في اللغة: الأمل. قال ابن فارس: ثم يتسع في ذلك فربما عبر عن الخوف بالرجاء، قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي لا تخافون له عظمةً، وناسٌ يقولون: ما أرجو أي ما أبالي، وفسروا الآية علىٰ هذا. قال: وأما المهموز فإنه يدل علىٰ التأخير يقال: أرجأت الشيء أخرته اهـ.

والرجاء في الاصطلاح: توقع محبوب عن أمارة مظنونة أو معلومة.

- ٢ -

جناحي الطائر

الرجاء في العبودية يستلزم الخوف، وكذا الخوف يستلزم الرجاء.

قال ﷺ: «**لا مَلجَأ ولا مَنجَىٰ مِنكَ إلا إليكَ**». متفق عليه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه، وقال: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِن سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِن عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنكَ، لا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيكَ، أَنتَ كَمَا أَثنَيتَ عَلَىٰ نَفسِكَ**». رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها.

قال أبو علي الرَّبَذَاوِي وهو منقول عن الإمام أحمد: الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا استويا استوىٰ الطير وتَمَّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حدِّ الموت اهـ[١].

فالخوف من الله ليس كالخوف من غيره، فلايُرَادُ منه إلقاء الرُّعب والذُّعر في قلب العاصي، ولا الهرب والبعد عنه، وإنما يراد منه التحرز من الذنوب والخوف من العقوبة والإقبال علىٰ الله والرجاء فيما عنده، فالإنسان إذا خاف من شيء هرب منه إلا الله جل وعلا؛ من خافه هرب إليه، ولذا فإن العبد إذا خاف من عذاب الله وجب

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العز (٤٥٦-٤٥٧).

عليه أن يفتح باب الرجاء وأن يرغب إلىٰ الله ويرجو رحمته وعفوه، لأن هذا هو مقصود الخوف.

قال النبي ﷺ: «**لو يَعْلَمُ المؤمنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِن العُقُوبَةِ ما طَمِع بجنَّتِهِ أحدٌ، ولو يَعلمُ الكافرُ ما عِنْدَ اللهِ من الرَّحْمَةِ ما قَنَطَ من جنَّتهِ أَحَدٌ**». متفق عليه من حديث أبي هريرة.

وذلك أن الخوف وحده يقود إلىٰ اليأس والقنوط، واليأس من رحمة الله والأمن من مكر الله، والرجاء وحده يقود إلىٰ الأمن من مكر الله، وهما من كبائر الذنوب، ولهذا أمر الشارع بالخوف والرجاء جميعًا.

قال الطحاوي: والأمن واليأس ينقلان عن ملة الإسلام وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة اهـ[(١)].

وروىٰ عبد الرزاق (١٩٧٠١) عن ابن مسعود قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله. ورواه ابن جرير وصححه ابن كثير[(٢)].

فالأمن من مكر الله يضاد الخوف، واليأس والقنوط من روح الله يضاد الرجاء فهما ينافيان التوحيد، قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

(١) السابق.

(٢) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٥١٤).

ومن المأثور عن السلف: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ.

فالعبد حاله بين الخوف والرجاء، فإذا أتىٰ بالطاعة أو ألَمَّ بالمعصية، فهو في كلا الحالين يخاف ربه ويرجوه، فلا يحمله حبُّ الطاعة ولذة المناجاة علىٰ تغليب جانب الرجاء، كما لايقنطه وقوعه في المعصية ولا الندم عليها علىٰ تغليب جانب الخوف، بل هو بينهما، كلٌّ منهما يقود إلىٰ الآخر ويلازمه، فتكون حاله معتدلة وإيمانه أكثر رسوخًا وثباتًا، وودَّ الشيطان لو ظفر بتغليب أحدهما والتيئيس من الآخر، فيقنطه من رحمة الله أو يأمنه من مكر الله، ولأبي نواس وأنشده الشافعي:

وَلَمَّا قَسَىٰ قلبِي وضَاقتْ مَذَاهِبي
جعلت الرَّجَا منِّي لعفوِكَ سُلَّما
تَعَاظَمَنِي ذنبي فلمَّا قَرَنْتُهُ
بِعَفوِكَ ربِّي كان عَفوُكَ أعظَمَا
إليك إله الحقِّ أرفعُ رغبتي
وإن كنت -ياذا المنِّ والجودِ- مُجرِما
فَمَا زِلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تَزلْ
تجودُ وتعفُو مِنَّةً وتكرُّمَا

وله أيضا:

خِفِ اللهَ وارجُوهُ لكلِّ عظيمةٍ
ولا تطعِ النفسَ اللَّجُوجَ فَتَندَمَا

وكنْ بين هاتين مِن الخوفِ والرجا
وأبشر بعفوِ اللهِ إن كنتَ مسلمًا

فالله تعالىٰ يحب من عبده أن يكون أواهًا منيبًا، إذا وقع في الذنب كان أقرب إلىٰ ربه، وإذا جدَّ في الطاعة واجتهد كان أكثر هيبة له وفرقًا منه، ووقارًا له، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾، خرج الترمذي (٣١٧٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يُقْبَلَ منهم، أولئك الذين يُسَارِعُونَ في الخيرات**».

فالمؤمن يوازن بينهما ولا يُرَجِّحُ أحدَهما علىٰ الآخر، فإن رَجَّحَ أحدهما علىٰ الآخر علىٰ الدوام كان ذلك مسلكًا من مسالك أهل البدع كالخوارج في ترجيح جانب الوعيد، والمرجئة في ترجيح جانب الوعد، وقد يحسُنُ بالعبد ترجيحُ أحدهما في بعض المواضع والأحوال فإن العاصي يغلب جانب الخوف حتىٰ يقلع عن معصيته، وكذا المريض والمحتضر يغلب جانب الرجاء، لكي يلقىٰ ربَّه وهو يحسن الظنَّ به، وقد يقال إن العاصي يغلب جانب الرجاء لعله يتوب ويستعتب، وأن الطائع يغلب جانب الخوف خشية أن يغترَّ ويُعْجَبَ بعمله فلا تقبل طاعته، وتغليب أحدهما في بعض الحالات صحيح إذا كان هو الأصلح لقلب صاحبه، مالم يفض إلىٰ محرم أو غلو.

- ٣ -

منزلتها من العبودية

قال تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾. وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ وقال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾.

والخوف يقع في العبودية ويقع في طبائع الناس، وكذا الرجاء يقع في العبودية ويقع في طبائع الناس، والخوف والرجاء من أصول العبادة، وكثيرًا ما يأتي في القرآن ذكر الرغبة والرهبة، والتعبُّدُ لله بالخوف والرجاء، لما يقترن بها من التعظيم والذُّلِّ، فالله جل شأنه يقرن بين الخوف منه ومن غضبه وناره، وبين الرجاء والرغبة في مرضاته وجنته.

فما جاء في القرآن من ذكر الجنة والنعيم والسعادة والاطمئنان والانشراح والبشارة بها ونحو ذلك، وإحياء ذلك في قلوب المؤمنين فهي من دلائل الرجاء والطمع فيما عند الله.

وما جاء فيه من ذكر النار والسخط والغضب والعذاب والضنك والتبديل والنقمة وغيرها فهي دلائل الخوف من الله تعالىٰ وإحياء ذلك في قلوب المؤمنين ليعبدوه وحده لا شريك له.

وأما التمني ففرقٌ بينه وبين الرجاء، فالرجاء أمل يصحبه عمل، وأما التمني فأملٌ بلا عمل. ولهذا قال الحسن البصري: إن الإيمان ليس بالتَّحَلِّي ولا بالتمني، إنما الإيمان ما وَقَرَ في القلب وصدَّقَهُ العمل اهـ[١].

والخوف والرجاء من أعظم أنواع العبادة بل هما أصل العبادة، ويجتمعان في المعنىٰ المقصود من التعظيم والخضوع والذل.

والخوف من الله يحمل العبد علىٰ اتباع أمره، والقيام بطاعته كما قال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، وقال ﷺ: «**من خاف أَدْلَجَ ومن أَدْلَجَ بَلَغَ المنزل**». الحديث رواه الترمذي (٢٤٥٠) وقال: هذا حديث حسَنٌ غريب.

والخوف من الله يمنع العبد من مواقعة المعاصي، ويسلك به سبيل الحذر من الغضب الإلهي كما قال ﷺ: «**ورجل دَعَتهُ امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال إني أخاف الله**» متفق عليه.

فمعرفة العبد ربه تقذف في قلبه المهابة والخوف، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف، فإذا علم العبد الخائف الوجل من ربه أنه

---

(١) خرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» موقوفًا علىٰ الحسن (٩٣) ط. دار الأرقم، وخرجه ابن عدي في «الكامل» مرفوعًا من حديث أبي هريرة وضعفه، ينظر: «الكامل» (٧/ ٥٤٧) ط. عباس أحمد الباز، وقال العلائي: وقد روي معناه بسند جيد عن الحسن من قوله وهو الصحيح اهـ «فيض القدير» المناوي (٥/ ٣٥٦) ط. دار إحياء السنه، قال المناوي: التمني أي التشهي، ولا بالتحلي أي التزين بالقول ولا بالصفة اهـ.

لا نجاة له منه إلا بالإنابة إليه خضع له قلبه واستكان، وكان مع الخوف تعظيم وذل وانقياد، فلا يجوز أن يُرجىٰ أو يُخَاف غيرُهُ، وتلك هي الخشية التي يقذفها الله في قلوب المتقين، ومن كان من أهلها فهو من أهل العلم بالله، قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ووعدهم بالأجر والثواب الجزيل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وجعل رضوانه عنهم جزاء خشيتهم له، فقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، وأما في الآخرة فأورثهم الجنان والنعيم المقيم فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

- ٣ -

أنواع الخوف

وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خوف العبودية؛ وهو أن يخاف خوف ذل وتعظيم وإجلال، فيه تَأَلُّهٌ وتعبُّدٌ يدعو إلىٰ طاعة باطنة وخوف سرِّي، لكونه يعتقد فيمن يخافه أن له مشيئة نافذة، وقدرة مطلقة، وأنه يملك النفع والضر، فهذا الخوف يجب أن لا يكون إلا لله وحده لا شريك له فإنَّ من أعظم مقاصد التوحيد إفراد الله بالخوف والرجاء والتعظيم، وذلك من إخلاص الدين له.

«فالمؤمن يعلم أن: كل ما يخاف ويرجىٰ من المخلوقات فأعلىٰ غاياته أن يكون غير مستقلٍ بالتأثير، ولا يستقل بالتأثير وحده دون توقف تأثيره علىٰ غيره إلا الله الواحد القهار فلا يجوز أن يُرجى أو

يُخَاف غيرُهُ، وهذا برهان قطعي علىٰ أن تعلق الرجاء والخوف بغيره باطل، فكيف يُخَافُ ويُرجىٰ من لا حول له ولا قوة، بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه، فإنه علىٰ قدر خوفك من غير الله يسلط عليك، وعلىٰ قدر رجائك لغيره يكون الحرمان فالمؤمن من خوفه متعلق بالله ورجاؤه متعلق بالله[(١)].

قال تعالىٰ عن أهل الإيمان: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وقال: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

فإذا خاف غير الله بمثل هذا الخوف فهذ شرك في الربوبية والألوهية:

(١) شرك في الربوبية، لكونه اعتقد في أحد من خلق الله أن له القدرة علىٰ التصرف والتدبير، والنفع والضر فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالىٰ.

(٢) أنه لما اعتقد ذلك وقع في قلبه تعظيم لمن يخافه فذلَّ له وخضع، كمن يخاف ويذل ويخضع للقبور كقبر الحسين والجيلاني والبدوي، أو يخاف من شجر أو حجر أو جبل أو جن أو إنس، يخاف من ضره ويرجو نفعه وبره وشفاءه، ويعتقد فيه أنه يدفع الشر أو يملك عذابا ونعيما، أو يملك من التدبير والتغيير مالا يملكه إلا الله تحى إن منهم من يدخل وهو يحبو على الركب من شدة التعظيم.

وكان أهل الجاهلية يعتقدون في معبوداتهم أن لا أحد يستطيع الانتصار عليها أو يغالبها إلا غلبته، وأنها تُهلِك من شاءت إذا أرادت وتُعِزُّ من شاءت، وأنها تملك من النفع والضر، ما يجعلهم يخافونها ويهابونها ويخيفون منها الناس.

---

(١) الفوائد لابن القيم (٦١).

أراد خالد بن الوليد ﷺ هَدَمَ صَنَمَ العُزَّىٰ وكانت بيتًا بنخلة تعظِّمه قريش وكنانة ومضر، فلما سمع حاجبها السُّلميُّ بمسير خالد بن الوليد إليها علَّق سيفه عليها، ثم اشتدَّ في الجبل الذي هي فيه وهو يقول:

أَيَـا عُـزَّ شُـدِّي شـدّة لا شَـوَىٰ لـهـا
عـلىٰ خـالـدٍ أَلْـقِي الـقـنـاعَ وشـمِّـري

أيـا عُـزَّ إن لـم تـقـتـلـي الـمـرءَ خـالـدًا
فـبـوئـي بـإثـمٍ عـاجـلٍ أو تـنـصَّـري

قال: فلما انتهىٰ خالد إليها هدمها، ثم رجع إلىٰ رسول الله ﷺ. ذكره ابن إسحاق[1]، وقيل: إنه علاها بالسيف وجعل يقول:

يـا عُـزَّىٰ كُـفـرَانـكِ لا سُـبـحـانـك
إنـي رأيـت الـلـهَ قـد أهَـانَـكِ

ذكره الواقدي[2].

رغم أن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن الملك التام والقوة الحقيقية لله تعالىٰ، إلا أنهم يشركون معه هذه المعبودات، روىٰ مسلم في صحيحه عَن ابن عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ الْمُشرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيكَ لا شَرِيكَ لَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**وَيلَكُم؛ قَدٍ قَدٍ**». فَيَقُولُونَ: إِلاَّ شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَملِكُهُ وَمَا مَلَكَ. يَقُولُونَ هَذَا وَهُم يَطُوفُونَ بِالبَيت.

---

(١) ينظر: «سيرة ابن هيشام» (٤/ ٧٩) ط. دار الريان.

(٢) ينظر: «البداية والنهاية» (٦/ ٦٠٨) ط. دار هجر.

لكنهم ربما تفاخروا بقوتهم واجترؤوا علىٰ ربهم وحاربوا من زعموا أنه سفَّه أحلامهم وسبَّ ءالهتهم:

زعـمـتْ سَـخِـيـنـةُ أن سَـتَـغـلِـبُ ربَّـهـا

فـلـيُـغـلَـبـنَّ مُـغـالِـبُ الـغـلَّاب

وما زال أولئك الذين يعظمون غير الله من الآلهة والمعبودات والقوىٰ الغالبة والأمم المتداعية في كل زمان ومكان يخافونها ويخوفون الناس منها، وتتجدد هذه الآلهة ويظن فيها الظنون، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾. وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾. وقال: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾. وقال عن إبراهيم ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنًاۚ﴾.

النوع الثاني: خوف محرم: وهو أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الواجبات كالأمر بالمعروف وفعل الطاعة أو إنكار المنكر وهجر المعصية لغير عذر، وإنما خوفًا من الناس، فهذا شرك منافي لكمال التوحيد(١).

قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾.

قال ابن القيم: ومن كيد عدوِّ الله أنه يخوِّف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم ولاينهوهم عن منكر، قال

(١) «فتح المجيد»: (٣٤٤).

قتادة: يُعظِّمُهم في صدوركم، فكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم اهـ[(١)].

فإن كان لعذر كمن يترك معروفًا فلايأمر به، تحصيلًا لأعلىٰ المصلحتين، أو منكرًا فلا ينهىٰ عنه، درءً لأعلىٰ المفسدتين ونحو ذلك من مقاصد الشرع المعتبرة، فهذا لا بأس به وليس هذا من هذا، وكذا من يترك فعل الطاعة أو يرتكب المعصية مكرهًا، فهذا معذور إذا كان الإكراه حقيقيًا لامتوهمًا، والإكراه في هذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والمسائل.

النوع الثالث: الخوف الطبيعي، وهو أن يخاف من أمرٍ جرت العادة بضرره إن وقع أو ضرره إن ارتفع، كمن يخاف من سبع أو عدو أو حَيَّةٍ أو ذهاب منفعة أو ضياع حق ومال وولد ومرض، فإن وجد سببه فهو خوف طبيعي لا ينافي التوحيد ولا كماله، قال تعالىٰ عن موسىٰ عليه السلام: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾. وقال للنبي ﷺ: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾. وخشيته ﷺ الناس ليس خوفًا منهم علىٰ نفسه أن ينالوه بسوءٍ، وإنما خشي أن يقدح أحدٌ في الدين، ومن إرجاف المنافقين، فراعىٰ جانب المصلحة في إخفاء ما في نفسه من إرادة الزواج من زينب زوج زيد بن حارثة رضي الله عنهما بعد طلاقها منه، وكان قد تبناه من قبل، وقد أبطل الإسلام التبني، فظن النبي ﷺ أن إخفاءه لما في نفسه من إرادة الزواج أولىٰ درءً للمفسدة، وهو أمر مباح، ولم يكن وحيًا يخفيه خشية الناس، فبين الله عز وجل له أن لا يخفي

---

(١) ينظر السابق (٣٤٤).

ذلك خشية الناس وأن الله أحق أن يخشاه، فهو نبي مرسل والله ناصره ومؤيده، وهذا من جنس الخوف الطبيعي.

وأما إذا خاف خوفًا متوهمًا، كمن يخاف مما ليس بسببٍ للخوف فهذا ينظر، إن كان خوفه ناشئًا عن تعظيم وخشية واعتقاد فهو داخل في القسم الأول، وإلا فهو داخل في قاعدة الأسباب: وذلك بأن يجعل الشيء سببًا للخوف وليس بسبب، كالطيرة مثلًا، فهذا من الشرك الأصغر.

وقد يكون الخوف ناشئًا عن ضعفٍ وجبنٍ فينافي كمال الإيمان ولا يصل إلىٰ درجة الشرك، كما يحصل لبعض أصحاب القلوب الضعيفة في أحوال يعلم العقلاء أنها ليست أسبابا حقيقية، فهذا من قبيل الجبن والضعف، وفيه ضَعفٌ في التوكل. قال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير**». رواه مسلم.

الدعاء
ومنه الاستغاثة والاستعانة والاستعاذة

- ١-

منزلة الدعاء

الدعاء أصله أن تُمِيل الشيء إليك بصوتٍ وكلامٍ يكون منك اهـ قاله ابن فارس، وفي المصباح: دعوت الله أدعوه دعاءً: ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير اهـ وقال صاحب القاموس: الدعاء الرغبة إلىٰ الله تعالىٰ اهـ.

فالدعاء طلب فيه رغبة وابتهال، ويكون أيضًا بمعنىٰ المناداة، تقول دعوت زيدًا، إذا ناديته وطلبت إقباله، والاستغاثة والاستعاذة والاستعانة أخصُّ من الدعاء.

فالاستغاثة: طلب الغوث بإزالة الشدة والكرب.

والاستعانة: طلب العون بالمساعدة علىٰ مطلوب.

والاستعاذة: طلب العوذ، وهو الملجأ والمعتَصَم، والهرب من شيء تخافه إلىٰ من يعصمك منه.

فالداعي هو طالبُ أمرٍ ليتحقَّق له أو يندفع عنه، والمستغيث:

طالب إزالة شدة وكرب، والمستعين أن يطلب من يساعده ويعينه علىٰ تحقيق مطلوبه، والمستعيذ هارب يطلب ملجأ يعوذ به.

والدعاء أعم منها جميعا، فكلها داخلة في الدعاء.

ودعاء الله ﷻ من أعظم العبادات وأجل القربات، بل هو جماع العبودية، لما يشتمل عليه من الرغبة والرهبة والابتهال إليه، وإظهار العبودية والتذلل لله والافتقار إليه، ولذا قال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**». خرّجه الترمذي (٢٩٦٩) عن النعمان ابن بشير رضي الله عنه، وروىٰ أحمد (٣/ ٣٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس شيءٌ أكرَمَ علىٰ الله من الدعاء**» ورواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٣) بلفظ: «**أشرف العبادة الدعاء**». وفيه ضعف.

قال جل شأنه: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾.

وقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

وأنبياء الله عزو وجل ورسله ومن سلك سبيلهم في الدعوة إلىٰ الحق والتمسك بالرشد والثبات علىٰ الأمر، هم من أعظم الناس حاجة لهذه العبودية وتحقيقًا لها، وأكثرهم دعاء لربهم واستغاثة به، ووقوفًا ببابه، والتجاء إليه، يستعينون به في كشف الكربات، وتذليل العقبات، فإن من مصائب الدنيا والدين ماتغلق دونه الأبواب وتنقطع الأسباب، وتضيق السبل، ولاكاشف لها إلا الله، فلا يشكوا العبد

الفقير حاله إلىٰ مخلوق مثله، محتاج كحاجته، ضعيف كضعفه، وإنما يبث شكواه إلىٰ ربه، ويرفعها لمولاه، إلىٰ ربٍّ كريم رحيم، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، وفي كتاب الله الآيات البينات في ذكر دعوات الرسل واستغاثتهم بربهم، قال تعالىٰ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾، وقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

فعلىٰ العبد أن يُنزِلَ فَاقَتَهُ ومصيبته وحاجته بربه جل وعلا، ولا ينزلها بمخلوق، قال أبو يزيد البسطامي: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق. اهـ[(١)] وعلىٰ العبد أن يوحِّد اللهَ ويفرده بالدعاء في الشدَّة والرخاء. فإن من أعظم مقاصد التوحيد إخلاص الدعاء لله جل شأنه.

والله جل شأنه يبتلي العباد بالمصائب والابتلاءات لينيبوا إليه ويدعوه تضرعًا وخفية، ويستجيبوا له، فكلما غفل العبد عن ربه جاءته الذكرىٰ، بأن له ربًا يُدعىٰ ويُرجىٰ، وترفع إليه النجوىٰ، ويكشف كل بلوىٰ، فإن لم تأته هذه النذر ولم تطرق بابه هذه الرسل فذلك أمر خافه الصديقون ووجل منه المتقون من أن يكون إمهالًا واستدراجًا، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، وقال عن أهل الغفلة: ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾،

(١) ينظر: «مجموع فتاوىٰ ابن تيمية» (١/ ٣٣٠).

فإذا لم يبتلىٰ العبد خاف علىٰ نفسه من النفاق ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة؛ قال ﷺ: «**وكذلك المؤمن يُكَفَّأُ بالبَلاءِ، ومثل الكافر كمثل الأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعتدِلةٌ، حتىٰ يَقْصِمَهَا اللهُ إذا شَاءَ**».

وعبودية الدعاء لها مقام عظيم في الدين، فالصلاة دعاء، لأن المصلي داعٍ لله في صلاته، وقوله وعمله فيها يقوم مقام الدعاء، والذكر دعاء، ولهذا كان قول «لا إله إلا الله» أعظم الدعاء، وفي الحديث قال موسىٰ عليه السلام: يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به، قال: «يا موسىٰ قل: لا إله إلا الله ...»، الحديث خرّجه ابن حبان (٦٢١٨) والحاكم (١/٥٢٨) وفيه ضعف، وفي آيات الصيام قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾، وغاية الصوم التقوىٰ وأن يكون العبد قريبًا من ربه تعالىٰ، وقد روىٰ الترمذي (٣٥٩٨) عن أبي هريرة مرفوعًا: «**ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتُهم: الصائم حتىٰ يفطر** ...» الحديث، وقال: هذا حديث حسن، ورواه ابن حبان (٣٤٢٨)، وحسنه ابن حجر، ويختم الله جل شأنه العبادات بالاستغفار والدعاء ففي الزكاة قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ أي ادع لهم. وفي الحج يقول الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾. والصلاة تختم بالتحيات والدعوات، فالدعاء هو غاية العبادات وأصل القربات.

خرّج الترمذي (٣٥٨٥) عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال: «**خَيرُ الدُّعاءِ دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير**» وقال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ من هذا الوجه. اهـ

والله تعالىٰ جعل دعاءه هو الحق وهو العبودية التي يقبلها ويعلي منزلة صاحبها، ودعوة غيره باطل وضلالة، قال جل شأنه: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾.

وقال عن إبراهيم إمام الحنفاء: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ . . . الآية.

فالدعاء هو العبادة وهو روحها ومعناها، روىٰ أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٣) عن النبي ﷺ: «**من لم يَدْعُ الله غضب الله عليه**». ولما سئل ﷺ: أي العبادة أفضل؟ قال: «**دعاء المرء لنفسه**». خرّجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٥) وفيهما ضعف.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها علىٰ الله كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك فيه شركًا فليس في الأرض شرك اهـ[(١)].

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٢٢١).

ولقد كان أهل الشرك يدعون الأصنام والملائكة والصالحين، فإذا كانت الشدائد أخلصوا دعاءهم لله رب العالمين، وسماهم الله: المشركين والكافرون وسمىٰ عملهم شركًا.

فما بال من يدعو غير الله ليلًا ونهارًا، سِرًّا وجِهَارًا، وإذا ألمَّت بهم الملِمَّات وادلهمت بهم الخطوب رفعوا أصواتهم يطلبون من معبوداتهم المدد ويستغيثون بهم من دون الله الواحد الأحد، فذلك أشد كفرًا وإشراكًا، والله المستعان.

روىٰ ابن مسعود ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**من مات وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار**» رواه البخاري.

- ٢ -

الدعاء نوعان

الأول: دعاء عبادة، وهو يدخل في أبواب العبادات كلها إذ المقصود منه الرغبة والرهبة والطمع والخوف، وهذا هو روح العبادة وسرها، ومن دونه تصبح العبادة كالجسد بلا روح، والعابد داعٍ لله تعالىٰ بعبادته، ولهذا سمىٰ الله الدعاء عبادة -كما سبق- فالصلوات والصيام والقيام والحج والبر عبادة يرجو بها المؤمن مرضاة الله ومحبته وجنته وعفوه وعافيته وسعادته، فهي عبادة وهي دعاء، وكذلك كل ذكر لله تعالىٰ فهو دعاء، لأن العبد إذا ذكر الله فهو يبتغي به وجه الله، ويرجو بهذا الدعاء من الله أن يبلغه من الدرجات أعلاها ومن المقامات أسماها، ولهذا وصف النبي ﷺ ذكر يوم عرفة بأنه خير

الدعاء، وقد سئل عن ذلك الحافظ الإمام سفيان بن عيينة فذكر قولَ أُميَّةَ بنِ الصَّلْتِ في مَدح عبد اللهِ بنِ جُدْعَانَ:

أأذكـر حـاجـتـي أم قـد كـفـانـي
حـبـاؤك إن شـيـمـتـك الـحـبـاء

إذا أثـنـىٰ عـلـيـك الـعـبـد يـومًـا
كـفـاه مـن تـعـرضـه الـثـنـاء

قال: اكتفىٰ بالثناء عن السؤال[1].

وخرج الترمذي (٢٩٢٦) مرفوعًا: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين». وفي إسناده عطية العوفي ضعيف.

وخرج الترمذي (٣٥٠٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله تعالىٰ له**».

الثاني: دعاء المسألة، وهو الدعاء الذي يقصد منه الداعي طلب ما ينفع أو دفع مايضر، فالمدعو لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر وليس ذلك إلا إلىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

(١) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٤٠٦) منزلة الذكر.

ودعاء العبادة ودعاء المسألة متلازمان، فالله هو سبحانه هو المعبود، وهو المسؤول، وهو الذي يملك للعباد نفعهم ويدفع عنهم ضرهم، والشرك في دعاء العبادة أظهر في الألوهية، كما أن الشرك في دعاء المسألة أظهر في الربوبية.

ومن صرف شيئًا من أنواع الدعاء لغير الله فهو مشرك شركًا أكبر، وقد جاء في القرآن أنه كفرٌ وشركٌ وضلالٌ، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١]، وقال: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤].

والمتأمل في آي الكتاب العزيز يجد أن عبادة الدعاء من العبادات العظيمة التي جعل منها القرآن فيصلًا بين حال أهل الإيمان الذين يخلصون لله الدعاء وحال أهل الشرك الذين يدعون غير الله ويجعلون له أندادا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، فالمشرك قد يعتقد أن معبوده إما مالك، أو شريكٌ للمالك، أو معينٌ له وظهيرٌ، وإلا كان شفيعًا عنده، فنفىٰ الله ذلك كُلَّهُ عن هذه المعبودات وأثبت الشفاعة عنده بإذنه، وما كان بإذنه فهو في ملكه وتصرفه.

والله ﷻ أمر بتوحيده، ونهىٰ أن يُشرك معه أحد، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي ولا صالح ولا عابد، إذ الجميع مفتقرون إلىٰ الله، والله غني عنهم ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

والنبي ﷺ علىٰ علو منزلته وعظيم مكانته ورفعة قدره؛ لايملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ففي معركة أحد شُجَّ رأسه وكسرت رباعيته، هذا وهو حي فكيف بعد وفاته، وأنزل الله عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾. ولما دعا قومه قال: «**اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا**». كما في الصحيحين.

بل إن الملائكة التي هي من أعظم مخلوقات الله تسخيرا لعبادته، تخاف الله خوفًا تفزع معه بل وتصعق من خشيته، فكيف يدعوها الداعي وهي بهذا الحال من الضعف أمام عظمة الله، ولايدعو ربه الذي تخر له الجبال هدًّا، والذي له ملكوت كل شيءوله الآخرة والأولىٰ.

فالدعاء والسؤال يجب إخلاصه لله تعالىٰ وحده لا شريك له.

- ٣ -

دعاء المخلوق وسؤاله

وأما دعاء غير الله علىٰ سبيل المناداة والطلب فهو جائز، بضوابط:

١- إذا لم يشتمل علىٰ ابتهال ورغبة ورهبة فيها معنىٰ التأله والتعبد.

٢- أن يكون في أمرٍ يقدر عليه المدعو، قال تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾.

٣- أن يكون المُنَادىٰ حيًا حاضرًا.

فإن دعا أو نادىٰ ميتًا أو غائبًا، كمن يدعو الحسين وعلي والبدوي وغيرهم من أهل القبور، أو نادىٰ الكواكب أو الملائكة أو نحو ذلك، فهو دليل علىٰ تعظيمه لهم وأن المنادي يعتقد فيهم شيئا من خصائص الربوبية كالتدبير والتصرف، وهذا شرك أكبر.

وأما الاستغاثة أو الاستعاذة بمخلوق حي حاضر فيما يقدر عليه من غير تذلل وخضوع فهو جائز، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

وسؤال الناس فيما يقدرون عليه كرهه بعض أهل العلم.

والأقرب أن فيه تفصيلًا:

أ- فسؤال الناس أموالهم من غيرِ وجهِ حقٍّ محرم إلا لحاجة

أو ضرورة، لما ورد عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسأَلُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَأتِيَ يَومَ القِيَامَةِ وَلَيسَ فِي وَجهِهِ مُزعَةُ لَحمٍ**».

ب- فإن كان بحقٍّ فهو جائز، كسؤال المرأة حقها من زوجها، أو سؤال شخص لمصلحة للمسلمين أو للفقراء ونحو ذلك من وجوه المعروف.

ج- أن يسأل من اعتاد سؤاله لمعروفٍ بينهما، كأخيه أو صديقه أو شريكه، ولا يحمل السائل على ذُلِّ السؤال، فهذا جائزٌ.

د- وأما سؤاله لهم أن يعينوه بجاهٍ أو بدنٍ، فإن كان بحقٍّ أو ممن اعتاد سؤاله فهو جائز كسابقه، كطلب شفاعة أو مساعدة ببدنه، وإن كان على غير وجه حقٍّ أو يحمل السائل على ذلِّ المسألة فهو مكروه ومنهي عنه.

هـ- أن يسأل غيره لنفسه أو لغيره أن يقرضه قرضًا أو يعامله سَلَمًا أو يعيره أو ما شابه ذلك أو يشهد له أو معه فذلك كله جائز، فقد اقترض النبي ﷺ من يهودي ورهنه درعه. كما في الصحيحين، وطلب من خزيمة بن ثابت أن يشهد له.

التوكل

- ١ -

التوكل والعبادة

التوكل في اللغة: من توَكَّلَ أي اعتمد وفوَّض.

وهو في الاصطلاح: تفويض أمره إلىٰ غيره واعتماده عليه، ويطلق أيضًا علىٰ: إظهار العجز والافتقار إلىٰ المتوكل عليه.

ومن تأمل القرآن وجد أنَّه يجمع بين التوكل وأنواعٍ من العبادة، لإظهار فقر العبد وافتقاره إلىٰ ربه، ليمده بعونه وتأييده، فإذا توكل علىٰ الله وفقه الله للإنابة، ويسر له العبادة، وفتح له أبواب الطاعة، ورزقه السعادة بمناجاته والنعيم بنيل مرضاته:

قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾،

وقال: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾،

وقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾،

وقال: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾،

وقال تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

والعبادة لا تتيسر للعبد ولاينال منازلها ومراتبها إلا بتوفيق من

الله، وهداية ربانية، بها يُوَفق العبد ويسدد، ولذا فهو محتاج إلىٰ معونة ربه في كل أوقاته وأعماله، ومتىٰ وُكِل إلىٰ نفسه ضاع أمره وانفرط عقده وتاه في بُنَيَّات الطريق، وكان اجتهاده وبالًا عليه، وكما قيل:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتىٰ
فأولُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

وقد جاء في الحديث: «**فَإِنَّكَ إِن تَكِلنِي إِلَىٰ نَفسِي تُقَرِّبنِي مِن الشَّرِّ وَتُبَاعِدنِي مِن الخَيرِ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحمَتِكَ**». رواه أحمد في مسنده (٧/ ٣٢) مرفوعا من حديث ابن مسعود، ويشهد له الحديث الآخر، وفيه: «**وَأَشْهَدُ أَنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَىٰ نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَىٰ ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ وَذَنْبٍ وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ، فَاغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**». رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٩١).

والمؤمن إذا سمع المؤذن يقول: حي علىٰ الصلاة، سُنَّ له أن يقول: لاحول ولاقوة إلا بالله، كما في حديث معاوية ﵁ عند البخاري، وحديث عمر ﵁ عند مسلم، وجاء عند الترمذي (٣٤٢٧): أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «**باسم الله توكلت علىٰ الله** . . .» الحديث، فإن العبد يواجه نفسه الأمَّارة بالسوء وأولياء الشيطان، وحزبه، وكلما كان العبد أعظم توكلا علىٰ الله كان أقرب إليه، والله ناصره ومؤيده ومثبته.

وفي السنة أدلة وشواهد في بيان هذا المعنىٰ العظيم.

فالتوكل علىٰ الله من أجل أعمال القلوب، وهو دليل إيمان العبد وصدق توحيده بربوبية الله وألوهيته، فمن عرف ربه حق المعرفة واستقر في قلبه أن الله هو الذي له الخلق والأمر، وبيده الأسباب وهو خالقها ومسببها، وهو الذي بيده الخير وهو علىٰ كل شيء قدير، وأن الله تعالىٰ هو الفعال لما يريد، أظهر العجز له والانطراح بين يديه والاعتماد عليه غاية الاعتماد، ومن أعظم صفات المؤمنين وأنبياء الله المتقين: إظهار العجز لله والتوكل عليه وتفويض الأمر إليه واستشعار معية الله جل شأنه في كثير من مواقفهم وخاصة مع خصومهم، فإن الله ناصرهم ومؤيدهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وقال نبي الله هود عليه السلام ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾.

- ٢ -

أنواع التوكل

النوع الأول: التوكل بمعنىٰ التفويض المطلق؛ والذي فيه إظهارُ العجز والافتقار إلىٰ المتوكل عليه واعتقاد بأن المُتَوَكَّل عليه يملك الضر والنفع، أو يملك الأسباب التي لا يقدر عليها إلا الرب القادر المدبر سبحانه، مثل الشفاء وإنزال المطر والحياة والموت والأمن من أسباب الخوف العامة ونحوه، فهذا لا يجوز إلا لله وحده لا شريك له قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فالافتقار والعجز

لا يكون إلا لله وحده، لأنه افتقار يصاحبه تعظيمٌ وإجلالٌ.

فإن أظهر ذلك العجز بين يدي مخلوق أو توكل علىٰ غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يتوكل علىٰ غائب أو ميت أو غيره فهذا شرك أكبر لأمرين:

١- أنه اعتقد في المخلوق ما هو من خصائص الله، وخصَّه بأفعال لا يقدر عليها إلا الله.

٢- أنه أظهر العجز والافتقار إلىٰ غير الله.

كمن يقول: ياسيدي فلان أنت حسبي، أوأنا في حسبك، أو لا نصر إلا نصرك، ولا أحد يجير غيرك، والرزق بيدك، ولا رزق إلا رزقك، حتىٰ يقول بعضهم: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ الفلاني لا أريده، أو يعتقد أن مخلوقا من شجر أوحجر أو قبر أو ولي أو شخص يستقل بدفع الشرور وجلب الخير، أوأن صاحب هذا القبر يحمي هذا البلد.

والتوكل علىٰ الله في دفع المضار وتحصيل الأرزاق وشفاء المريض وكشف الكربات من أجل القربات ومن أعظم العبادات، فإن الله تعالىٰ هو من يملك الأسباب والمستقبل كله بيده، فلا أَمَانَ إلا أمانه، ولا خوف إلا خوفه، ولهذا كان من مقاصد التوحيد التوكل علىٰ الله وحده لا شريك له.

والتوكل علىٰ الله وحده لا يمنع من الأخذ بالأسباب ولكن لا يعتمد عليها، ولذا فمن تمام التوكل عدم التطير وترك ما يضعف جانب التعلق بالله كما جاء في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون

الجنة بلا حساب ولا عذاب، بأنهم: «**لايكتوون ولايسترقون ولايتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون**».

النوع الثاني: التوكل الذي فيه اعتماد علىٰ الأسباب اعتمادًا ظاهرًا، بحيث يطمئن إليها ويثق بها ويرىٰ أن النتائج لا تحصل إلا بها، وهذا من قبيل الشرك الأصغر وفيه خفاء وهو ينبني علىٰ قاعدة الأسباب وستأتي بإذن الله، ولا يصل إلىٰ درجة الشرك الأكبر لكونه يعتقد فيمن يعتمد عليه أنه سبب لا مُسَبِّب وأنه لا يملك النفع والضر بذاته.

ومثله: أن يقول: لولا كذا ما حصل كذا، كالرزق والقوة والغلبة، أو يعتمد علىٰ الطبيب أو الدواء في الشفاء.

- ٣ -

التوكل والتوكيل

التوكيل: بأن ينيب غيره في القيام بعمل ونحوه فهذا جائز، لأنه من قبيل الإنابة والوكالة، لا من قبيل التوكل الذي فيه افتقار وعجز، ويسمىٰ هذا توكيلًا لا توكلًا، ولذا منع بعض أهل العلم أن تقول: توكلت علىٰ فلان، بمعنىٰ وكلته[(١)]، لأن التوكل فيه اعتماد علىٰ السبب في أقل أحواله، بخلاف التوكيل، وعليه فلا يجوز أن يقول: حسبي فلان. فإن معناه توكلت عليه، وذلك لا يكون إلا لله.

---

(١) وفي فتاوىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم إذا قال: توكلت عليك يا فلان في كذا، قال: هذا شرك، أما التوكيل فيجوز، لأنه استنابة اهـ «فتاواه ورسائله» (١/١٠٧) ط. الحكومة بمكة.

- ٤ -

التوكل والتواكل

ولابد من التفريق بين التوكل الشرعي وبين التواكل والضعف والتفريط؛ ذلك أن ترك الأخذ بالأسباب ليس من التوكل الصحيح كمن يسير في الصحراء بلا زاد أو يسبح في الماء وهو لا يجيد السباحة، أو يخوض الحرب وهو لم يستعد لها بما يستطيع من القوة، ولهذا جاء في الحديث الذي رواه الترمذي (٢٥١٧) عن أنس قال جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**». قال الترمذي: غريب[(١)].

وفي المتواكلين نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كَانَ أَهلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلا يَتزَوَّدُون، وَيقُولُونَ: نَحنُ المُتَوَكِّلُونَ. فَإذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وأما حديث عمران بن حصين في الصحيحين وفيه: قوله ﷺ: «**ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب**»، قال: «**هم**

---

(١) ينظر: «جامع الترمذي» (٥٥٨) ط. دار الأعلام حديث رقم (٢٥١٧) قال الترمذي: وهذا حديث غريب من حديث أنس لانعرفه إلا من هذا الوجه، وقال: قال عمرو بن علي: قال يحيىٰ -ابن سعيد القطان-: وهذا عندي حديثٌ منكر اهـ وسبب ضعفه: المغيرة بن قرة السدوسي رواه عن أنس، وقد خرجه ابن حبان من طريق يعقوب ابن عبد الله عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن أبيه (٧٣١) ط. مؤسسة الرسالة، وحسنه الأرنؤوط، ونقل عن الذهبي قوله: سنده جيد.

الذين لايسترقون ولايكتوون ولايتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون». فقد ذهب الخطابي أن المراد من تركها توكلًا علىٰ الله تعالىٰ، ورضًا بقضائه وبلائه، واستظهره النووي وعياض[(١)]. لأن الحديث خرج مخرج المدح علىٰ الترك، فدلَّ ذلك علىٰ الكراهة، ويلزم منه رجحان الترك[(٢)].

والأقرب أن الحديث لايدل علىٰ أنهم لايباشرون الأسباب، وإنما المراد أنهم يتركون أمورًا مكروهة وأسبابًا مكروهة، إما لكون السعي في طلبها فيه تعلقٌ للنفسِ وميلٌ للقلب إلىٰ الراقي والكاوي، وإما أنهم يأخذون بهذه الأسباب خشية نزول الداء فهذا مكروه، بخلاف مباشرة الأسباب بعد نزول الداء فلا يكره، فقد نقل النووي عن الداودي أن المراد به من يفعله في الصحة، وليست به علة، وإما بمعنىٰ: أنهم لايعتمدون علىٰ الأسباب اعتمادا كليًا، قال الغزالي: والقول بأن ترك التداوي أفضل مطلقًا لايصح، لأنه ﷺ تداوىٰ، ولايكون غيره في التوكل أفضل اهـ[(٣)]. قال المازري: احتج بعض الناس بهذا الحديث علىٰ أن التداوي مكروه، وجلُّ مذاهب العلماء علىٰ خلاف ذلك، قال: فإذا ثبت هذا صحَّ أن يحمل الحديث علىٰ قوم يعتقدون أن الأدوية نافعة بطباعها كما يقول بعض الطبائعيين، لا أنهم يفوضون الأمر إلىٰ الله سبحانه وحده اهـ[(٤)].

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للنووي (١/ ٨٥-٨٦) ط. دار المعرفة.

(٢) «إكمال إكمال المعلم» للأبي (١/ ٦٣٤) ط. دار الكتب العلمية.

(٣) ينظر: السابق.

(٤) «المعلم» للمازري (١/ ٢٣١) ط. دار الغرب الإسلامي.

فروع

- الذبح
- النذر
- التوسل
- الشفاعة

الذبح

- ١ -

عبودية الذبح

الذَّبح في اللغة: الشَّق، والذِّبح: المذبوح.

وفي الاصطلاح: إراقة الدم وإزهاق الروح.

والذبح اشتهر إطلاقه علىٰ إراقة دم ما يذبح من البهائم كالغنم ونحوها وذلك بقطع الرأس. والنحر يطلق علىٰ إراقة دم الإبل ونحوها بالطعن في اللُّبَّة ونحرها وهي قائمة.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. النُّسُك: الذبح في الحج والعمرة، قاله مجاهد، وقال سعيد بن جبير: ذبحي اهـ.

والنسك في اللغة: العبادة، واستعمل في الشرع في معنىٰ أخص، وهو إراقة الدم تقربًا إلىٰ الله تعالىٰ.

وقوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾: أي محياي ومماتي بأمر الله، وهذا بالنظر إلىٰ توحيد الربوبية، أو أحيا لله وأموت لله، وهذا بالنظر إلىٰ توحيد الألوهية، فهذه الآية تدل علىٰ غاية التفويض والتعبد والاستسلام لله رب العالمين، فلا يُقَدِّمُ العبد علىٰ مرضاة الله شيئًا.

وقال تعالىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَـرْ﴾. قال ابن تيمية: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك الدالتان علىٰ التقرب والتواضع والافتقار وحسن الظن وقوة اليقين وطمأنينة القلب، قال: والنسك: هي الذبيحة ابتغاء وجهه، قال: الصلاة والنسك هما أجلُّ ما يتقرب به إلىٰ الله، وأَجَلُّ العبادات البدنية الصلاة، وأجلُّ العبادات المالية النحر، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة كثير النحر اهـ[(١)].

ولذا كان يوم النحر أفضل الأيام عند الله، وفي الحديث: سئل أي الحج أفضل؟ قال: «**العَجُّ والثَّجُّ**». رواه الترمذي (٨٢٧) وفيه ضعف، والثج: إراقة الدماء.

- ٢ -

الذبح المشروع

الذبح قسمان:

القسم الأول: الذبح الشرعي، وهو إراقة الدم مع ذكر اسم الله تعالىٰ علىٰ المذبوح.

وله صورتان:

أ- **الصورة الأولىٰ**: الذبح المقيد، وهو الذي يقصد به إهراق الدم امتثالًا لأمر الله تعالىٰ في أمر مشروع، وهو أنواع: كالأضاحي، والهدي، والفدية، والعقيقة.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٣١-٥٣٢).

وهذا من أجل العبادات المالية وأعظم عبودية لله من النوع الثاني، ولذا كان أعظم يوم يوم النحر، تنحر فيه الهدايا لله تعالىٰ، فَخَلَصَت لله العبودية وخَلَصَ له الامتثال، لأن مقصودها إراقة الدم لا اللحم، قال الله تعالىٰ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ وقـال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، وقد قَدَّمَ النبيُّ ﷺ هدايا كثيرة للبيت، وفي حجته ساق مائة ناقة وذبح منها ثلاثًا وستين بيده الشريفة.

ب- **الصورة الثانية**: الذبح المطلق، الذي يقصد منه اللحم وهذا فيه عبوديةٌ أيضا، فيجب أن يكون لله دون غيره.

وهذا الذبح الشرعي بنوعيه يشتمل علىٰ تعظيم الله بإهراق الدم، وذكر اسم الله بالقلب أو باللسان، وهو باللسان شرط عند طائفة من أهل العلم، واجب عند غيرهم، ومنهم من قال هو سنة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾، المراد بما لم يذكر اسم الله عليه[(١)]: ظاهر في الميتة أوماذبح لغير الله وتقرب به إلىٰ غير الله، وهو الفسق، وفي القرآن سمىٰ الله تعالىٰ ما أُهِلَّ به لغيره فسقًا، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾.

أو يكون المراد: متروك التسمية، فيكون ذكرها شرطا أو واجبًا، وعند من اشترطه تكون الذبيحة ميتة إن لم يذكر اسم الله عليها عند

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/ ٧٥) سورة الأنعام.

الذبح، ولا يعتبر ترك التسمية شركًا، لكنه محرم لما فيه من إضاعة المال.

- ٣ -

الذبح الشركي

القسم الثاني: الذبح الشركي:

وله صورتان:

الصورة الأولىٰ: أن يذبح تعظيمًا لغير الله، وهذا شرك أكبر، سواءٌ ذكر اسم الله عليه أو لم يذكر اسم أحد، أو ذكر اسم نبي أو ملك أو جني أو غير ذلك.

كمن يذبح للشياطين عند طلوع الشمس أو غروبها أو يذبح للقبور أو يذبح عند الشجر أو الحجر أو الجن، يقصد منه تعظيم المذبوح له. قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال ﷺ: «**لعن الله من ذبح لغير الله**». والذبح عبادة كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ونسكي، أي ذبحي، فسماه نسكًا والنسك هو العبادة في اللغة والشرع.

والصورة الثانية: أن لا يريد بذلك التعظيم، ويريد اللحم ولكن يقول: باسم المسيح أو الكوكب أو صاحب القبر، وربما قال: أنا أعظِّم اللهَ، ولكن أذكر اسم الشخص الفلاني. فهذه كله شرك، لأنه أُهِلَّ به لغير الله، والإهلال رفع الصوت بالشيء.

ثم إن هذا شرك في الربوبية، وذلك لأن «الباء» في «باسم» للاستعانة، والاستعانة لا تكون إلا بالله وحده، فهو شرك أكبر في الربوبية.

والصورة الأولىٰ أَشَدُّ كفرًا، قال ابن تيمية: وتحريم هذا [أي الصورة الأولىٰ] أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني للحم وقال فيه: باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه نحن متقربين به إلىٰ الله سبحانه كان أزكىٰ وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه: باسم الله، فإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسك لغيره أعظم شركًا من الاستعانة باسم هذا الغير في فواتح الأمور، وقال: فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله اهـ[1].

مسألة[2]: ما يذبح للسلاطين والرؤساء عند قدومهم، نقل النووي عن إبراهيم المروذي عن أهل بخارىٰ أنهم أفتوا بتحريمه، لأنه مما أهل به لغير الله، قال سليمان بن عبد الله: إن كانوا يذبحونه تقربا إليه فهو داخل في الحديث اهـ.

والرافعي أجازه إذا كان الذبح للاستبشار بقدومه، كما تذبح العقيقة استبشارًا بقدوم المولود.

وهذا فيه نظر، فإن هذا ظاهره تعظيم هذا السلطان ونحوه، فهو لم يذبح لأجل اللحم وليس هذا بموضع قربة ولا زمانها، وإنما ذبح

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٥٦٣-٥٦٤) ط. الدكتور العقل.

(٢) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (١٩٠-١٩١).

وأراق الدم تعظيما للمذبوح له، وأما العقيقة فهي عبادة مقصودة شرعًا، لا يُراد منها تعظيم المولود، وأما لو كان مقصوده من الذبح -في هذه المسألة- اللحم، فيمكن أن تكون هذه قرينة علىٰ عدم إرادة التعظيم، بل التكريم والاستبشار ونحوه، كمن يذبح لقدوم ضيف أو نزول منزل ونحوه.

مسألة: من يذبح للجن لتحمي منزله أو أولاده، أويذبح أمام منزله أومتجره أو مزرعته ذبائح ويريق دمها ويلطِّخُ به مقدِّمة الشيء وأطرافه بغية حماية ذلك العقار أوتلك السيارة من الجن أو العين أو السحر، فهذا إن كان يعتقد في الجن أنها تملك النفع والضر من دون الله، فيذبح لهم ليدفعوا عنه الشر ويجلبوا له الخير، أو يتقرب به إليهم ليدفعوا عنه الأذىٰ وليحموه ويدافعوا عنه، أو يذبح لهم أو باسمهم، فهذا كله داخل في الشرك الأكبر.

وإن لم يقصد ذلك، وإنما قصد دفع أذاهم وكان قد ذكر اسم الله علىٰ المذبوح بلسانه أو استحضره بقلبه فهو من وسائل الشرك وهو محرم. مع أنه في ظاهر الأمر يندر أن يذبح تقربًا لله تعالىٰ، وهو يريد دفع أذىٰ الجِنِّ والشياطين، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

النذر

- ١ -

معنى النذر

النَّذرُ في اللغة: مِن نَذَرَ يَنذُرُ نَذرًا، وهي كلمة تدل علىٰ تخويف أو تخوف، ومنه النَّذِير والنُّذُر، والإنذار، وهو الإبلاغ المصاحب للتخويف، ومنه النَّذر؛ لأنه يخاف إذا لم يوف بنذره، ثم غلب استعماله في اللغة علىٰ الإيجاب والإلزام، يقال: نذرت؛ أي أوجبت، ونَذَرَ دمَ فلان؛ أوجب قتله، فالنَّذْرُ هو الصيغة التي تَدُلُّ علىٰ الإلزَامِ.

والنذر اصطلاحًا: إلزام المكلف نفسه شيئًا لم يجب عليه، زاد بعضهم: لله. قال الجرجاني: النَّذرُ إيجاب عين الفعل المباح علىٰ نفسه تعظيمًا لله تعالىٰ[(١)] فالنذر يصاحِبُهُ تعظيم للمنذور له.

والمنذور له هو من ينذر له بقوله: نذرت لله، أو نذرت لفلان.

والمنذور هو الذي يأتي بعد ذلك وهو الفعل الذي نذر أن يفعله وألزم نفسه به فيقول: نذرت لله أن أصوم، فالصوم هو المنذور.

---

(١) «التعريفات» (٣٠٨) ط. دار الكتاب العربي.

- ٢ -

أنواع النذر

■ **النذر نوعان:**

(١) مطلق، بحيث يطلق الفعل دون أن يذكر له قيدًا، فيقول: نذرت لله أن أحج.

(٢) مقيد، وهو أن يقيد فعل المنذور بحصول أمر، فيقول مثلًا: نذرت لله -إن شفىٰ الله مريضي- أن أحج.

- ٣ -

حكم النذر

النذر إما أن يكون لله تعالىٰ بأن يكون الله ﷻ هو المنذور له، فيقول: نذرت لله أن أفعل كذا. وإما أن يكون لغير الله، فيقول: نذرت لفلان أن أفعل كذا، أو نذرت لوالدي أن أحج.

وحكمه:

أ- **أن النذر إن كان لله فهو مكروه**، وهو قول الجمهور[١]، دلَّ علىٰ ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما عن

(١) ينظر: «فقه الدليل» للفوزان (٥/ ٣٠٤) ط. مكتبة الرشد.

النبي ﷺ؛ أنه نهىٰ عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخيرٍ، وإنما يستخرج به من البخيل**». وصَرَفَ النَّهيَ عن التحريم في الحديث ما جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يَعْصِهِ فلا يَعصِهِ**». وأما قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾، وقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾. فالمراد: يوفون ما لزمهم من الواجبات التي أوجبها الشرع، كقوله: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾. أو يكون المراد به مدحهم علىٰ الوفاء لا علىٰ النذر، وقيل: إن المكروه هو النذر المقيد دون المطلق، وبه جزم القرطبي في «المفهم»(١)، وقيل: يحرم، وقيل: النهي محمول علىٰ من علم من حاله عدم القيام بما التزمه من النذر، أما من قوي عليه فهو في حقه عبادة مشروعة، قالوا: وفيه جمع بين الأدلة، ولأن النذر عبادة فكيف يكون معصية؟! وقال به جماعة من الشافعية والحنفية(٢).

ب- **وإن كان لغير الله فهو**: فهو شرك، ولا ينعقد. ويقع معه تعظيمٌ للمنذور له غالبًا، فلأجل ذلك ذهب جمهور أهل العلم(٣) إلىٰ

(١) ينظر: السابق (٥/ ٣٠٥).

(٢) ينظر: السابق (٥/ ٣٠٥-٣٠٧).

(٣) نص علىٰ ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب في «كتاب التوحيد»، وكذا شارحه الشيخ سليمان بن عبد الله، ونقله عن ابن القيم، وعن الشيخ قاسم الحنفي، وعن الشيخ صنع الله الحنفي، وعن القاضي أبي بكر ابن العربي ينظر «تيسير العزيز الحميد» (٢٠٣-٢٠٧) و«فتاوىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٠٦-١٠٧) و«القول السديد» لابن سعدي (٢٢).

أن النذر عبادة، لكونه يشتمل علىٰ تخوف وتعظيم للمنذور له، وهذا هو الواقع فإنك تجد أصحاب هذه النذور يعتقدون فيمن ينذرون له أنه يقبل منهم ذلك ويعظمونهم ويخافون من عدم الوفاء به. قال الشيخ قاسم الحنفي: النذر الذي ينذره أكثر العوام علىٰ ما هو مشاهد كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو ولد أو له حاجة ضرورية فيأتي إلىٰ بعض الصلحاء ويجعل علىٰ رأسه سترة ويقول: يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه، منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها: أن المنذور له ميت والميت لا يملك، ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله واعتقاد ذلك كفر اهـ[(١)].

وعليه؛ فالنذر لغير الله كالذبح لغير الله[(٢)].

وقد يقال: إن النذر صيغة إلزام وإيجاب علىٰ النفس لتلتزم بالفعل، لاصيغة تعظيم وتعبد، فإذا كان لغير الله فهو كالحلف بغير الله، والحلف بغير الله ليس بعبادة، قال ابن تيمية: وقد اتفق العلماء علىٰ أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبي ولا لغير نبي، وأن هذا النذر شرك لا يُوفىٰ به، وكذلك الحلف بالمخلوقات لا تنعقد به اليمين، ولا كفارة فيه[(٣)]. وقال: وأما مانُذِرَ لغير الله كالنذر للأصنام

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٢٠٧).

(٢) السابق.

(٣) «مجموع الفتاوي» (١/٢٨٦) .

والشمس والقمر، قال: فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، قال: فإن كليهما شركٌ اهـ[(١)].

وقال ابن القيم: النذر لغير الله، فإنه شركٌ، وهو أعظم من الحلف بغير الله، فإذا كان من حلف بغير الله فقد أشرك؛ فكيف بمن نذر لغير الله؟ مع أن في السنن من حديث عقبة بن عامر: «النذر حِلفَةٌ» اهـ[(٢)].

ولا شك أن ما يقع من كثير ممن ينذرون للسادات والأولياء والقبور والزعامات، أن هذا النذر يقع منهم علىٰ سبيل التعبد، لما فيه من التعظيم للمنذور له والرغبة والرهبة، فهو ليس مجرد تعهدٌ والتزامٌ بفعلٍ ما، وإنما يُرَادُ منه تعظيم المنذور له، فهذا تعبدٌ لغير الله، وهو من الشرك الأكبر.

والنذر لغير الله لا ينعقد، فلا وفاء به ولا كفارة، كما قال ابن تيمية: فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، قال: والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا العقد ويقول ما قال النبي ﷺ: «**من حلف باللات والعزىٰ فليقل: لا إله إلا الله**». متفق عليه اهـ[(٣)].

---

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٢٠٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٣٥٣). وحديث عقبة لم أقف عليه بهذا اللفظ، لكن رواه أحمد (٤/ ١٤٨) بلفظ: «إنما النذر يمين، كفارتها كفارة يمين». وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف.

(٣) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٢٠٤).

التوسل

- ١ -

معنى التوسل والوسيلة

التوسّل: تفعّل من وَسَلَ، قال ابن فارس: أي رغب، والواسل: الراغب إلىٰ الله ﷻ قال لبيد: بلىٰ كل ذي دينٍ إلىٰ الله واسل اهـ.

وقال في المصباح: وسلت إلىٰ الله بالعمل أَسَل: رغبت وتقرّبت، ومنه اشتقاق الوسيلة، وهي: ما يتقرب به إلىٰ الشيء، والجمع: الوسائل، وتوسّل إلىٰ ربه بوسيلةٍ: تقرب إليه بعمل اهـ.

قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾. قال ابن عباس وعطاء ومجاهد والفراء: القربة. وقال قتادة: تقربوا إليه بما يرضيه. وقال أبو عبيدة: يقال: توسلت إليه، أي: تقربت إليه[١].

فالتوسّل: هوالرغبة إلىٰ الله تعالىٰ ودعاؤه وسؤاله والتقرب إليه بالوسيلة.

---

(١) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٢).

والوسيلة: هي كل ما يقرب إلىٰ الله كالإيمان والأعمال الصالحات.

والوسيلة لها إطلاقٌ خاصٌ، وهو: المنزلة عند الملك والدّرَجة العالية الرفيعة، وهي منزلة في الجنة خاصة بالنبي ﷺ كما جاء في الصحيح.

فالوسيلة هي القربة المشروعة التي يتقرب بها العبد إلىٰ الله تعالىٰ مما يحبه الله ويرضاه، دون غيرها مما اتخذه أهل البدع وجعلوها وسائل زعموا أنها تقربهم إلىٰ الله، وهي بدع وضلالات، بل إن منهم من اتخذ من عرف بالبدعة والضلالة والإلحاد في آيات الله وسيلة إلىٰ الله، وبعضهم جعل الأحجار والأشجار والأضرحة والقبور وسائل إلىٰ الله.

ويستعمل لفظ التوسل في معنىٰ الشفاعة والدعاء، دلّ علىٰ ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا، قال: فَيُسقَون. رواه البخاري، ومقصوده: نتوسل إليك بدعاء نبينا، أي أنهم كانوا يطلبون من النبيﷺ أن يدعو لهم كما في حديث أنس في الصحيحين لما دخل الرجل والنبي ﷺ يخطب فطلب منه الدعاء والاستغاثة بالله أن ينزل المطر، ولا يمكن أن يحمل علىٰ التوسل بذاته، إذ لو كان الأمر كذلك لتوسلوا به بعد موته ولا فرق، ولكن لما كانوا يتوسلون بدعائه، فبعد مماته انقطع الدعاء، وبقي دعاء عمّه لأن عمه كان حيًا. فهذا تشفّع بدعاء العباس، نتوسل: أي نتشفَّع.

بينما لفظ الشفاعة والاستشفاع لا يستعمل إلا في معنىٰ الشفاعة ولا يستعمل في معنىٰ التوسل، وقد ذكر ابن تيمية أن كثيرًا من العامة يستعمل لفظ الشفاعة في معنىٰ التوسل فيقول أحدهم: اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان، أي نتوسل به، قال: وهذا ليس هو لغة النبي ﷺ وأصحابه وعلماء الأمة بل ولا هو لغة العرب اهـ[1].

- ٢ -

الفرق بين التوسل والشفاعة

الفرق بين التوسل والشفاعة:

التوسل طلب من الله ورغبة إليه ودعاء له مع ذكر أو فعل ما يتوسل به وهو الإيمان به وطاعته، كأن يقول: اللهم إني أسألك بهذا العمل أن ترزقني كذا، سواء كان التوسل بلسان الحال أو بلسان المقال، فمن عبد الله بالصلاة فهو متوسل إليه وداعٍ له بهذه القربة وهي الصلاة، ومن سأل الله ودعاه وتوسل إليه بعمل صالح أو باسم من أسمائه الحسنىٰ أوصفاته العلىٰ فهو متوسل أيضًا.

وأما الشفاعة، فهي أن يطلب من أحد أن يدعو الله له ويشفع له عند الله، كأن يقول: يا فلان اشفع لي عند الله أو ادع الله لي أن يرزقني مالًا أو ولدًا.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوي» (١/ ٢٤٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالة «التوسل والوسيلة»:

والإيمان به -أي النبي ﷺ- ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله وهو عبادة الله وهو طاعة الله وهو طريق أولياء الله، وهو الوسيلة التي أمر الله بها عبادة في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ فابتغاء الوسيلة إلىٰ الله إنما يكون لمن توسل إلىٰ الله بالإيمان بمحمد واتباعه . . . قال: ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنىٰ، والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة اهـ[1].

- ٣ -

التوسل المشروع

للتوسل أنواع بحسب حكمه ومشروعيته وهي ما يلي:

القسم الأول: التوسل المشروع وهو الذي دلّ عليه الكتاب والسنة، وهو التوسل إلىٰ الله بما يلي:

١- التوسل إلىٰ الله به وبأسمائه وصفاته، مثل أن يقول: يا الله، يا رحيم يا ودود ويا ذا الفضل العظيم، ومعنىٰ: اللهم أي: يا الله، فتدعو الله جل وعلا بأسمائه وصفاته، فهذا مشروع مندوب

(١) ينظر: «مجموع الفتاوي» (١/ ٢٤٣).

إليه بالإجماع، ونصوص الكتاب والسنة لا حصر لها في هذا، وكان النبي ﷺ يستفتح أدعيته في الصلاة وغيرها بمثل هذا التوسل.

٢- التوسل إلىٰ الله بالإيمان به والإيمان بالنبي ﷺ وبمحبته، والتوسل بالقربات مما شرعه الله كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغيره، ومنه التوسل بالأعمال الصالحة، وبفعلها، أو يذكرها في دعائه، كما فعل أصحاب الغار في القصة المروية في الصحيحين لما انطبقت عليهم الصخرة توسّلوا ودعوا الله بصالح أعمالهم فَفَرّج الله عنهم.

وأما التوسل بدعاء الرجل الصالح؛ كما في توسل عمر بالعباس رضي الله عنهما أن يدعو ويستسقي؛ فهذا من قبيل طلب الشفاعة، وسيأتي في الشفاعة المثبتة في الدنيا.

- ٤ -

التوسل غير المشروع

القسم الثاني: التوسل غير المشروع؛ وهو التوسل إلىٰ الله عز وجل بغير القرب والأعمال الصالحة، كالتوسل بالذوات والأشخاص، وجاه الأنبياء والمرسلين وجاه غيرهم من الأولياء والصالحين، إما عمومًا أو يخص أحدًا بذكر اسمه.

فالتوسل بهذا لم يرد به نص من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ ولا عمل الصحابة والتابعين، فلم ينقل أن أحدًا من

الصحابة توسل بذات النبي ﷺ وجعل ذاته وسيلة في دعائه، لا في حياته ولا بعد موته، وإنما توسلوا في حياته بدعائه وشفاعته، فلما قبضه الله لم ينقل عن أحد منهم أنه توسل به.

ولم يرد نقلٌ صحيح أن أحدًا منهم توسل بالخلفاء الراشدين أو العشرة أو أصحاب بدر وأصحاب الشجرة، ثم كيف لوجاز ذلك أن يَعدِلَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه عن التوسل بسيد البشر ﷺ ليتوسل بعمه العباس، وهو يجد في ذلك مساغًا.

وما ورد من حديث أو أثر فهو مطعون فيه مضعّف عند أئمة التحقيق، من ذلك ضعف حديث الدعاء عند المشي إلىٰ الصلاة، وفيه: «أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي». أخرجه أحمد (٣/ ٢١) وفيه عطية العوفي: ضعيف، ثم يمكن أن يقال: حق السائلين أن يجيبهم، وهو حقٌّ أوجبه علىٰ نفسه.

قال ابن تيمية: والتوسل به -أي النبي ﷺ- بمعنىٰ الإقسام علىٰ الله بذاته، والسؤال بذاته، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه، لا في حياته ولا بعد مماته، لا عند قبره ولا غير قبره، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة، أو عمن ليس قوله حجة[(١)].

ثم تكلم رحمه الله علىٰ مسألة[(٢)]: السؤال بجاه فلان أو حق مخلوق،

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوي» (١/ ٢٠٢).

(٢) السابق (١/ ٢١١) (١/ ٢٠٢).

وأن ذلك لا أصل له، فنقل عن أبي حنيفة قوله: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به.

ومثله: بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام. فكله مكروه عندهم.

فسؤال الله بأحد من خلقه ممن له جاه عنده لا يجوز، وإن كان لهؤلاء جاه عند الله تعالىٰ فإن ذلك لا يعني جوازه، ومثله لم يرد به دليل، والتوسل عبادة والعبادات مبناها علىٰ التوقيف، ثم إن هذا من التوسل بأمر لا تعلق له بالتوسل، فلو قال الرجل لمطاعٍ كبير: أسألك بطاعة فلان لك وبجاهه عندك الذي أوجبته طاعته لك. لكان ذلك مما لا يقبل، إذ هذا الأمر لا تعلق له بالمسؤول، بخلاف ما لو سأله بطاعته وما أمر به فذاك محمود عنده، له تعلُّقٌ به، والمقصود أن سؤال الله بجاه هؤلاء ليس سببًا لمطلوب هذا السائل، بخلاف ما لو كان السبب دعاء الأنبياء والصالحين، فهذا سبب صحيح، لكون الدعاء عبادة، وكذا لو توسل إلىٰ الله بمحبته لهم وإيمانه بالنبي ﷺ فهو سبب شرعي وقربة يتوصل بها إلىٰ الله تعالىٰ.

وأما ما نقله عياض[(١)] عن مالك من قوله لأبي جعفر: لا ترفع صوتك في هذا المسجد .... إلىٰ أن قال: استشفِع به -أي النبي ﷺ- فيشفِّعك الله، ثم ذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾، فهذه قصة باطلة رواها محمد بن حميد الرازي وهو متروك كذبه أبو زرعه وغيره، ثم إنه لم

(١) ينظر: «مجموع الفتاوي» (١/ ٢٢٦).

يدرك مالكًا، ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وتتبع حكايات القوم وبَيَّن أباطيلهم في كتابه «التوسل والوسيلة».

ثم ذكر في آخر كلامه أن هذا من البدع ومن فعله علىٰ أنه قربة ومشروع فقد فعل في دين الله ما لم يشرعه، وأن من استقرأ ذلك من أحوال النبي ﷺ وخلفائه عَلِمَ أن هذا لم يكن مشروعًا، وهو سؤال الله تعالىٰ بسبب لا يناسب إجابة الدعاء، وأنه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسي والمساجد وغيرها من المخلوقات.

ثم ذكر أن من أهل العلم من قال بجوازه واستدل له بآثار وأقوال، ولكن ما نقل عن النبي ﷺ فيها فهو موضوع، قال: والعلم يحتاج إلىٰ نقلٍ مصدقٍ ونظرٍ محققٍ.

- ٥ -

التوسل الشركي

القسم الثالث: التوسل الشركي، وهو التوسل إلىٰ غير الله بأي نوع من أنواع القرب أو غيرها، فالتوسل نفسه هو تقرّب ودعاء، والتقرّب والتعبد والدعاء لا يكون إلا لله سبحانه، فإذا توسل العبد إلىٰ غير الله، فقد صرف العبودية لغير الله وذلك شرك أكبر، كمن يتوسل إلىٰ أصحاب القبور أو الأسياد أو الأحجار أو نحوها.

فهذا توسل إلىٰ غير الله، بخلاف الأقسام التي قبله فليست من الشرك، لكونها توسل إلىٰ الله، ولكن اختلفت الوسيلة فيها؛ هل هي قربة، فيكون مشروعًا، أو ليست من القرب فلا يكون مشروعًا.

ولذا فثمة فرق بين (توسل إليه) فهذا من باب الدعاء والرغبة والعبادة والتقرب، و(توسل به)، فهذا معناه أنه جعله وسيلة وسببًا في قبول الدعاء.

الشفاعة

- ١ -

معنى الشفاعة

الشفاعة في اللغة مأخوذة من الشَّفعِ، وهو خلاف الوِترِ، وذكر ابن فارس أن أصل الشفاعة من المقارنة بين شيئين، وهو كذلك، فإن الشافع ينضم إلىٰ المشفوع عنده في الشفاعة.

والشفاعة في الاصطلاح: طلب الخير للغير، أو سؤال الخير للغير.

والخير يشمل تحقيق منفعة أو دفع مضرة، وهي من جنس الدعاء والسؤال، فالشافع يسأل المشفوع عنده منفعة ونحوها للمشفوع له.

ولا بد من إيضاح الفرق بين الشفاعة عند الخالق ﷻ والشفاعة عند المخلوق، ويتضح ذلك بما يلي:

١- أن الله ﷻ غني عن الشفاعة، وليس محتاجًا إليها كحاجة الخلق، فالله مطلع علىٰ عبادة ويعطي كل ذي حق حقه: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾. وأما المخلوق فلكونه غير مطلع علىٰ أحوال العباد ويقع الظلم في تصرفه، كانت الشفاعة مفيدة له، ليبين بها الشافع حق المشفوع له في الشفاعة، فيعطي حقًا أو يدفع ظلمًا.

فإن قيل: فلماذا يشفع المخلوق عند الخالق، وهو أعلم بأحوال خلقه، قيل: لأمرين: - إكرام الشافع، وبيان منزلته.

- إظهار حكمة الله ﷻ ورحمته بخلقه، ليتراحموا، وليكونوا سببًا في إيصال الخير بعضهم لبعض.

والله جل وعلا له في خلقه وأمره وشرعه حِكَمٌ بالغةٌ، كما أنه سبحانه جعل من الملائكة من يكتب أعمال الخلق، وهو أعلم بهم، وجعل ملائكةً تتعاقب في الليل والنهار وتشهد صلاة الفجر وصلاة العصر، ويسألهم عن خلقه وهو أعلم بهم.

٢- ثم إن المخلوق قد يستجيب للشفاعة لحاجته إليها إما لخوف أو شيء يطلبه من ورائها، وأما الخالق فهو غني عن ذلك.

٣- أن الله ﷻ بيده الإذن في قبول الشفاعة، أما المخلوق فتأتيه الشفاعة ولو لم يأذن بها.

٤-أن الشفاعة عند المخلوق تكون ملزمة تارة وتارة غير ملزمة، أما الشفاعة عند الله ﷻ فإنها غير ملزمة إطلاقًا.

فإذا تبين لك ذلك، تبين لك أن أهل الشرك شبهوا الخالق بالمخلوق، فاتخذوا شفعاء لم يأذن بهم الله، وجعلوا شفاعتهم ملزمة عند الله، ثم أدىٰ بهم ذلك إلىٰ إشراكهم مع الله في العبادة والدعاء، فلهذا سمّىٰ الله اتخاذهم شفعاء شركًا فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وقال: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

- ٢ -

الشفاعة والتوحيد

لما كان أكثر ما يعبده المشركون هم ممن كانوا يعرفون بالعبادة والصلاح سواء كان ذلك حقيقة، أو كما زعمه أولئك الذين يعظمونهم، من أمثلة ذلك: اللات، قال ابن عباس وغيره: هو رجل كان يلتُّ السويق للحاج، ومثله: ودّ وسواع ويغوث ونسر، قال ابن عباس: صَارَت الأوثَانُ الَّتِي كَانَت فِي قَوم نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعدُ . . . قال: أَسمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوحَىٰ الشَّيطَانُ إِلَىٰ قَومِهِم أَن انصِبُوا إِلَىٰ مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجلِسُونَ أَنصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسمَائِهِم، فَفَعَلُوا، فَلَم تُعبَد حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلمُ عُبِدَت. رواه البخاري. وكذا من عُبد من الأنبياء أومن صالحي هذه الأمة واتخذ قبره مكانًا للتقرب والدعاء والاستغاثة.

لما كان الأمر كذلك: كان أول ما دخل الشيطان علىٰ هؤلاء أن قال لهم: إن لهؤلاء الصالحين جاهًا عظيمًا عند الله بما قدموه من عبادة وصلاح، ولهم منزلة عظيمة عند الله، فأشار إليهم أن يجعلوهم وسطاء وشفعاء، ومن هنا كانت الشفاعة وطلبها منهم مدخلًا من مداخل الشيطان إلىٰ عبادتهم، وتحوَّلَ الحالُ من طلب للشفاعة إلىٰ عبادة، فأصبحوا يتقربون إليهم ليرضو عنهم، لأنهم بزعمهم إذا رضوا عنهم رضي الله تعالىٰ عنهم، ثمَّ أخذوا بعد ذلك يستغيثون بهم

ويطوفون حولهم ويبالغون في تعظيمهم حتىٰ جهلوا تعظيم الخالق واشتغلوا بتعظيم المخلوق.

وربما زعموا في قبر ولي ومشهد شخص أنه من العباد الأبرار، وهو غير ذلك، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)] عن مشهد الحسين رضي الله عنه بمصر أنه لنصراني، ونقل ذلك عن أربعة من أئمة مصر، وربما كان زنديقًا وأظهر التنسك، وهذا من تلاعب الشيطان ببني آدم.

وطلب الشفاعة من الميت والغائب والصنم والحجر والشجر والقبر ونحوه هو دعاء ونداء له، قال ابن تيمية: خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات مالم يأذن به الله تعالىٰ اهـ[(٢)].

وهذا الطلب ليس من الشفاعة في شيء، إذ الشافع لابدَّ أن يَسمَعَ حتىٰ يشفع، فمثل هذا ليس بشفاعة لا في اللغة ولا في الشرع بل هو دعاء لغير الله.

فأما إن كان من يدعو الميت حاضرًا عند قبره، يطلب منه أن يشفع له ويدعو الله له، لأنه يعتقد أنه يسمع كلامه وطلبه، فقد ذكر بعض أهل العلم أن ذلك بدعة ووسيلة إلىٰ الشرك، كمن يطلب من النبي ﷺ عند قبره أن يشفع له، معتقدًا أن الله يحييه ليسمع من

---

(١) «الاختيارات الفقهية لابن تيمية» للبعلي الحنبلي (١٤٣-١٤٤) ط. دار العاصمة.

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوي» (١/ ٢٥٩).

يناديه، فإن وقع منه قربة لصاحب القبر أو تذلل وخضوع وخوف ورجاء كمن يسجد أو يدخل الضريح زحفًا علىٰ الركب، أو يطلب من الميت أن يشفي مريضه أو يكشف كربته، فهذا شرك أكبر، من عمل الجاهلية.

- ٣ -

الشفاعة المثبتة

باستقراء ما ورد في القرآن، فإن الشفاعة في القرآن لها حالتان: مثبتة ومنفية:

النوع الأول: الشفاعة المثبتة: وهي التي أثبتها القرآن، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

وقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، وبقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾.

وهذه هي الشفاعة المقبولة التي يترتب عليها تحصيل المطلوب في الدنيا والآخرة، ولها شرطان جاء بهما القرآن:

١- الإذن للشافع أن يشفع، فلا بد من إذن الله تعالىٰ إما في كتابه أو علىٰ لسان رسوله، أو مما يأذن الله به في البرزخ والدار الآخرة.

٢- الرضا عن المشفوع له.

والشفاعة المثبتة قسمان:

١- شفاعة في الدنيا.

٢- شفاعة في الآخرة.

- ٤ -

الشفاعة المثبتة في الآخرة

القسم الأول: الشفاعة في الآخرة: وهي قسمان:

أولًا: الشفاعة الخاصة بالنبي ﷺ: وهي ثلاثة أنواع:

أ- شفاعته يوم القيامة لأهل الموقف جميعًا أن يقضي الله تعالىٰ بينهم، وهي الشفاعة العظمىٰ والمقام المحمود، وهي التي يطلب فيها الناس من أنبياء الله -آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام- أن يشفعوا لهم، فكل يقول: نفسي نفسي اذهبوا إلىٰ غيري، فيأتون النبي ﷺ فيشفع، ويقضي الله بين العباد، وهذه ثابتة في الصحيحين، وهي المقصودة بقوله ﷺ: «**أعطيت الشفاعة**». رواه مسلم.

ب- شفاعته لعمه أبي طالب، فقد جاء في الصحيحين أن العباس قال له: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك، قال: «**نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**».

ج- شفاعته لجميع المؤمنين أن يدخلوا الجنة، فهو أول من يُفتح له باب الجنة، وأمته أول من يدخل الجنة من الأمم، روىٰ مسلم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أوّل شفيع في الجنة، لم يصدّق نبيٌّ من الأنبياء ما صدّقت**» وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحدٍ قبلك**» خرّجه مسلم. وفي الصحيحين عنه ﷺ قال: «**نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة**».

د- ومنهم من زاد نوعًا رابعًا وخامسًا وسادسًا: وهو شفاعته لأهل الأعراف -قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم- أن يدخلوا الجنة، وشفاعته لأهل الكبائر أن يدخلوا الجنة، وشفاعته للسبعين ألفًا أن يدخلوا الجنة بلا حساب ولا عذاب.

واستدل للرابع والخامس بما رواه الطبراني بإسناد ضعيف جدًا عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال ذات يوم: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ. ذكره ابن كثير(١).

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٥٥٥) ط. دار المعرفة وفي إسناد الطبراني: موسىٰ بن عبد الرحمن الصنعاني متهم بوضع كتابٍ في التفسير علىٰ ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس، وهذا الأثر من روايته عن ابن جريج، ينظر «لسان الميزان» (٦/ ١٢٤) ط. دار الكتاب الإسلامي.

واستدل للسادس بحديث عمران بن حصين في الصحيحين، وفيه: فقام عكاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، وفي رواية البخاري: «**اللهم اجعله منهم**».

وفي غير الصحيحين: «**مع كل ألف سبعون ألفا**». رواه أحمد **(٢/ ٣٥٩)** وقال ابن حجر: إسناده جيد[١].

ثانيًا: الشفاعة العامّة: وهي التي تعم النبي ﷺ وغيره من الملائكة والنبيين والمؤمنين، وهي أنواع ثلاثة:

أ- الشفاعة لمن دخل النار أن يخرج منها، وقد جاءت بها الأحاديث في الصحيحين وغيرها، من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وجابر وغيرهم.

ففي حديث أبي سعيد قال ﷺ: «**فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحدٍ بأشدّ مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ... قال: فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم علىٰ النار، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلىٰ نصف ساقيه وإلىٰ ركبتيه**» وفيه قال: «**فيقول الله ﷻ: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين ...**» الحديث متفق عليه.

وهذه الشفاعة متواترة وأجمع عليها الصحابة والتابعون، وأنكرها الخوارج والمعتزلة ومن كان علىٰ نهجهم من الروافض والزيدية

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٥٠٠) شرح حديث رقم (٦٥٤١) ط. دار الكتب العلمية.

وغيرهم، وقالوا: من دخل النار لا يخرج منها. محتجين بآيات النفي كقوله تعالىٰ: ﴿لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾، وقولهم باطل قطعًا، وما ورد من النفي فهو في الشفاعة المنفية، وستأتي.

ب- الشفاعة لقوم استحقوا دخول النار ألا يدخلوها، وقد أثبتها ابن تيمية في «العقيدة الواسطية»، ولم يذكر دليلا صريحا يدل عليها، ولكن قد يَدُلُّ عليها عموم حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من رجل مسلم يموت فيقوم علىٰ جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه**» خرّجه مسلم. وهذا يدخل فيه الميت الذي عليه من الذنوب ما يستوجب دخوله النار.

وقد يشهد لها عموم ما رواه الترمذي (١٦٦١) عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال ... وذكر منها: ويشفّع في سبعين من أقاربه**». وهذا أيضًا فيه عموم.

ج- الشفاعة لقوم استحقوا درجة من الجنة فتزاد درجتهم، ويشهد لها: قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾، وقوله ﷺ لما دخل علىٰ أبي سلمة وقد قبض: «**اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين ...**» الحديث، خرّجه مسلم.

- ٥ -

الشفاعة المثبتة في الدنيا

القسم الثاني من الشفاعة المثبتة: الشفاعة في الدنيا:

الشفاعة من جنس الدعاء للغير، والشخص قد يدعو لنفسه وقد يدعو لغيره، فدعاؤه لغيره هو من الشفاعة له، فهو يقول: اللهم ارحم فلانًا. فهو يشفع له عند الله أن يرحمه.

ودعاء الشخص لغيره مشروعٌ، مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم، دل علىٰ ذلك الكتاب والسنة في أحاديث كثيرة من استحباب دعاء المؤمن لغيره من المؤمنين والمؤمنات، ودعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب مستجاب، روىٰ مسلم في صحيحه عَن صَفوَانَ وَهُوَ ابنُ عَبدِ اللَّهِ بنِ صَفوَانَ -وَكَانَت تَحتَهُ الدَّردَاءُ- قَالَ: قَدِمتُ الشَّامَ، فَأَتَيتُ أَبَا الدَّردَاءِ فِي مَنزِلِهِ، فَلَم أَجِدهُ، وَوَجَدتُ أُمَّ الدَّردَاءِ، فَقَالَت: أَتُرِيدُ الحَجَّ العَامَ؟ فَقُلتُ: نَعَم، قَالَت: فَادعُ اللَّهَ لَنَا بِخَيرٍ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**دَعوَةُ المَرءِ المُسلِمِ لأَخِيهِ بِظَهرِ الغَيبِ مُستَجَابَةٌ، عِندَ رَأسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيرٍ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثلٍ**». قَالَ: فَخَرَجتُ إِلَىٰ السُّوقِ، فَلَقِيتُ أَبَا الدَّردَاءِ فَقَالَ لِي مِثلَ ذَلِكَ؛ يَروِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. والأدلة في ذلك كثيرة.

وأما طلبها فله حالتان:

الحالة الأولىٰ: أن يطلب حصولها في الدار الآخرة، مثل أن

يقول: اللهم شفّع فيَّ نبيك، ونحو: اللهم اجعل فلانًا لي شفيعًا، أو اجعله شفيعًا لوالده، فهذا جائز، ويشهد لجواز هذا: الدعاء المأثور في السقط ونحوه يموت، فيقول الداعي: «**اللهم اجعله فرطًا وذخرًا لوالديه وشفيعًا**». خرجه عبد الرزاق عن الحسن من قوله.

ويدل عليه أيضًا حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة**» رواه مسلم، فهذا قول رتب الشرع عليه حصول الشفاعة جزاء له، فدلّ علىٰ أن المسلم له مطلب في تحصيلها، فجاز له أن يسألها.

ولهذا يمنع قوم من التشفع لغيرهم عقوبة لهم علىٰ مايقعون فيه من معصية، كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**».

وهل يجوز أن يسأل أحدًا في الدنيا من الأحياء أن يشفع له يوم القيامة، كأن يقول لمن يقاتل في معركة: إن قُتِلتُ في سبيل الله فاشفع لي، أو يقول لغيره ممن يرىٰ أنه علىٰ دين ويقين: اشفع لي؟

جاء في صحيح مسلم عن الصُّنَابحي عن عبادة بن الصامت أنه قال: دخلت عليه وهو في الموت فبكيت، فقال: مهلًا؛ لم تبكي؟ فوالله لئن استُشهِدتُ لأشهدنَّ لك، ولئن شُفِّعتُ لأشفعنَّ لك، ولئن استطعت لأنفعنَّك.

الحالة الثانية: أن يطلب حصولها في الدنيا، كأن يقول لشخص: ادع لي، والشفاعة من جنس الدعاء كما مرّ معنا، فهذا جائز

في الجملة بالاتفاق، وهو من سؤال المرء لأخيه أن يدعو له، وفيه تفصيل:

١- أن يسأله أن يدعو للمسلمين عمومًا، فهذا مندوب إليه، فقد روىٰ البخاري في صحيحه عن أنس ﵁: أن عمر بن الخطاب، كان إذا قحطوا استسقىٰ بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون.

وكذا جاء في الصحيحين من حديث أنس في الرجل الذي دخل المسجد والنبي ﷺ يخطب، فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يسقينا، فدعا.

٢- أن يسأله أن يدعو له، ولكن يريد بذلك نفع الداعي، أي أن ينتفع من يدعو له وانتفاعه هو، فهذا أيضًا لا بأس به.

٣- أن يسأله أن يدعو له، لينتفع طالب الدعاء بدعاء هذا الشخص، فهذه مسألة قيل بجوازها وقيل بكراهتها، قال ابن تيمية: وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به في ذلك، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذي تركه إلىٰ الرغبة إلىٰ الله أفضل من الرغبة إلىٰ المخلوق وسؤاله اهـ[(١)]. وذكر أن من مفاسدها: الافتقار إلىٰ غير الله، وإيذاء المسؤول، ويظهر لي أن هذا قريبٌ من المعنىٰ الذي من أجله وُصِف السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب؛ أنهم لايسترقون ولا يكتوون.

---

(١) «مجموع الفتاوي» (١/ ١٩٣).

ويستدل لذلك بحديث ابن عباس في المرأة السوداء التي أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله ﷻ أن يعافيك**». قالت: بل أصبر ... الحديث، متفق عليه.

والأقرب أن يقال بجوازه ما لم يكثر منه فيكون مكروهًا، ودليله حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن خير التابعين رجل يقال له أويس، وله والدة وكان به بياضٌ، فمُرُوه فليستغفر لكم**» رواه مسلم، وفي رواية: «**فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل**».

وقال الترمذي (٣٥٧٨): حدثنا محمود بن غيلان حدثنا عثمان بن عمر حدثنا شعبة عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان ابن حُنَيفٍ رضي الله عنه: أن رجلًا ضرير البصر أتىٰ النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «**إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك**» قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أسألك وأتوجَّهُ إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلىٰ ربي في حاجتي هذه لِتُقضَىٰ لي، اللهم فشفِّعه فيّ**»، والحديث صحيح صححه الترمذي والبيهقي وابن تيمية[1].

وهذا الحديث فيه طلب من النبي ﷺ -وهو حي- أن يدعو له وليس في ذلك محذور، وهو بدعائه له شافع، ولهذا قال في آخره:

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوي» (١/ ٢٢٣)، (١/ ٢٦٧).

«**اللهم فشفّعه فيّ**». أي اللهم فشفِّع النبيَّ ﷺ واقبل شفاعته فيَّ، والنبيُّ ﷺ يشفع فيه ويدعو الله له، وهو حي قادرٌ حاضر.

وأما طلب ذلك بعد الممات فهو من الشرك والضلالة.

وما سبق من جواز طلبها في الدنيا فهو مشروط عند أهل العلم بشرط وهو: أن تطلب من: الحي، القادر، الحاضر، كما سبق في الدعاء.

فأما الميت والغائب وغير القادر فهؤلاء لا يجوز طلب الدعاء والشفاعة منهم لأن هذا من قبيل دعائهم وسؤالهم، ودعاء الأموات والغائبين وغير القادرين شرك. قال ابن تيمية: خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم وخطاب تماثيلهم هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب اهـ.

وهذه هي المسألة التي جادل فيها أهل الباطل وعبدة القبور ومن أشرك مع الله سيدًا أو وليًا أو نبيًا أو نحوهم(١).

- ٦ -

الشفاعة المنفية

النوع الثاني: الشفاعة المنفيّة: أي التي جاء في القرآن نفيها، إما لعدم وقوعها، وإما لعدم قبولها، كما قال تعالىٰ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ

---

(١) ينظر: «التوسل والوسيلة» ضمن «مجموع الفتاوي» (١/ ١٤٠). و«تطهير الاعتقاد» للصنعاني، و«كشف الشبهات».

يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

فهذه الشفاعة منفية شرعًا؛ ولو وقعت فإن الله لا يقبلها، فقد يدعو الداعي لكافرٍ مثلًا، فلا يقبل الله دعوته وشفاعته فيه، ولذا قال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾.

فإذا تخلف أحد شرطي الشفاعة المثبتة أصبحت منفية، ففي الآية السابقة أذن الله بالاستغفار، ولكن لم يأذن به للكافر، فتخلف شرط الرضا عن المشفوع له.

وهؤلاء الذين يطلبون الشفاعة من أهل القبور والأسياد الغائبين هم في الغالب يعظمونهم وينذرون لهم ويقدمون لهم القرابين، بل إن منهم من يعظمهم أكثر تعظيمًا من الله، وربما حلف أحدهم بالله فهانت عنده اليمين ولم يكترث من الحنث فيها، وإذا حلف بصاحب القبر تحرز في اليمين وصدق القول، ولم يحنث.

قال الله ﷻ وهو يحكي مقولة أهل الشرك: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ وقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾.

والله تعالىٰ لا يرضىٰ بهذه الشفاعة ولايقبلها، لأن الشافع ميت، وطالب الشفاعة -المشفوع له- يشرك بدعاء هذا الميت، ويدعوه من دون الله ويستعيذ به ويستجير قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ﴾.

ومنهم من يسألهم الرزق والولد والمطر والتوفيق وهذا كله من الشرك الأكبر، فإن الدعاء هو العبادة، وهكذا كان صنيع اليهود والنصارىٰ قال ﷺ: «**لَعنَةُ اللهِ علىٰ اليَهُودِ والنصَارَىٰ اتخذوا قُبُور أنبيائهم مَسَاجِدَ**» متفق عليه. وجاء في الصحيحين عن عَائِشَةَ؛ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَينَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أُولَئِك إِذَا كَانَ فِيهِم الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوا عَلَىٰ قَبرِهِ مَسجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلكِ الصُّوَرَ، أُولَئِك شِرَارُ الخَلقِ عِندَ الله يَومَ القِيَامَةِ**».

ويظن بعض من يتعلق بالقبور ونحوها في هذه الشبهة ظنًا قد سبقه إليه أهل الشرك فيقول: لم نعبدهم، وإنما جعلناهم وسطاء وشفعاء، فيقال لهم قلتم كما قال المشركون الأوائل في زمن النبي ﷺ، قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ هكذا كان كلامهم، وكانوا يعبدون الله ويحجون ويتصدقون ويطعمون ويعتقدون، ولكنهم أشركوا مع الله غيره، فلم يقبل الله ذلك منهم، ولو قالوا: هم وسطاء، فهم في الواقع شركاء، قال ابن سعدي: فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتىٰ يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم فلا يكفر، من زعم ذلك فقد كَذَّبَ ما جاء به الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة اهـ[(١)].

---

(١) «القول السديد» لابن سعدي (٢٧-٢٨)

وأما حديث عثمان بن حنيف السابق فليس من هذا إطلاقًا، بل هو طلب شفاعة ودعاءٍ من النبيِّ ﷺ في حياته وذلك غير محرم باتفاق.

وقد جاءت زيادة منكرة في هذا الحديث رواها البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ١٦٧-١٦٨) والطبراني: أن رجلًا كان يختلف إلىٰ عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة، وكان عثمان لا يلتفت إليه حتىٰ لقي عثمان بن حنيف رضي الله عنه، فأمره بمثل هذا الدعاء -أي كدعاء الأعمىٰ- فقضىٰ الله حاجته.

ومن ثم تعلق من يستغيث بالأموات بهذه القصة.

والحديث مداره علىٰ أبي جعفر المدني عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن عثمان بن حنيف، وعن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف، وروىٰ شعبة هذا الحديث عن أبي جعفر ولم يذكر هذه الزيادة، وهو أجل من روىٰ الحديث، كما رواه حماد بن زيد عن أبي جعفر دون هذه الزيادة كما عند النسائي في الكبرىٰ (١٠٤٩٤)، كما رواه معاذ بن هشام عن أبيه عن أبي جعفر دونها كما عند النسائي في الكبرىٰ (١٠٤٩٦).

لهذا أعرض عنها أحمد وأهل السنن، فالصواب أن هذه الزيادة منكرة.

وقد رواها الطبراني من طريق عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد عن روح ابن القاسم عن أبي جعفر، وابن وهب في روايته عن شبيب نكارة بينها ابن عدي فقال: حدث عنه ابن وهب بالمناكير

اهـ[(١)]. ونبه ابن عدي إلىٰ أن الغلط من شبيب لا من ابن وهب، وأن ما أُنكِر من رواية ابن وهب عن شبيب فهو بسبب شبيب، وأنه يكون في تجارته بمصر فيحدث من غير كتاب فيغلط ويهم، فابن عدي أحال الغلط علىٰ شبيب لا علىٰ ابن وهب.

ورواها البيهقي من طريق أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه عن روح بن القاسم عن أبي جعفر، فتابع أحمدُ بن شبيب ابنَ وهب، ولكن كما ذكر ابن عدي أن شبيبًا إذا روىٰ عنه ابنه أحمد نسخة يونس عن الزهري إذا هي أحاديث مستقيمة[(٢)]، ويفهم منه أن روايته عن أبيه غير هذه النسخة فيها كلام. ثم إن في رواية هذه الزيادة اضطراب لمن تأملها[(٣)].

وهذه اللفظة لو صحت فليس فيها دليل علىٰ ما ذهبوا إليه، لأنه هنا لم يدع النبيَّ ﷺ ولكن سأل الله ﷻ به وتوجه له في دعائه، فأين هذا من دعاء الميت؟! بل هو من التوسل به.

وفرق بين سؤاله والسؤال به، وقوله: يا محمد إني أتوجه بك، ليس فيه مخاطبة، إنما استحضار كقول المصلي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

ثم إنه فعل صحابي، وقد خالف القرآن والسنة، هذا إذا سلمنا أن عثمان بن حنيف علمه الدعاء كاملًا، فإنه لم يأمره بالدعاء كله بل

(١) «الكامل لابن عدي» (٥/٤٧-٤٩) ط. دار الكتب العلمية.

(٢) السابق.

(٣) ينظر: «مجموع فتاوي ابن تيمية» (١/٢٦٨-٢٧٢-٢٧٦)، وقد بسط الكلام علىٰ هذا الحديث سندًا ومتنًا.

ببعضه وظن عثمان ﵁ أن الدعاء يدعىٰ ببعضه دون بعض، وظن أن هذا مشروع بعد موته ﷺ.

والسؤال بهذا الدعاء كاملًا بعد موته فيه تناقض، لأن الأعمىٰ كان في وقت حياة النبي ﷺ فعلمه أن يدعو الله أن يجعل النبي ﷺ شافعًا له، وذلك في قوله: «**اللهم فشفعه فيّ**»، وهذا لا يقع بعد موته، فهو إنما يشفع حال الحياة، وأما حال موته فهو ميت لا يمكن أن تقع منه الشفاعة.

وأما ما قيل من كونه ﷺ تطلب منه الشفاعة كالأحياء، وأن الله يحييه لذلك، مستدلين بما رواه أبو داود (**٢٠٤١**) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أحدٍ يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتىٰ أردّ عليه السلام**». فقالوا: والسلام عليه دائم لا يخلو منه وقت. فكذا روحه مردودة عليه في كل وقت.

فالجواب عنه: أن هذه الحياة وهذا الرد هو من قبيل الحياة الخاصّة التي ورد بها الدليل، فيقتصر علىٰ ماورد به الدليل من إجابة السلام دون غيره، لأن هذا من الغيب الذي لامدخل للقياس فيه، كما أنه ﷺ صَلَّىٰ بالأنبياء وهم أموات وسلم عليهم ورآهم في معراجه، ثم إن مسألة موته ﷺ قد قطع بها القرآن فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾. وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾. وروىٰ البخاري عن القَاسِمِ بنِ مُحَمَّدٍ قال: قالت عَائِشَةُ ﵂: وَارَأْسَاه، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «**ذَاكِ لَو كَانَ وَأَنَا**

حَيٌّ، فَأَستَغفِرُ لَكِ، وَأَدعُو لَكِ». ثم لو كان حيًا كما يزعمون فبقاؤه علىٰ ظاهر الأرض خير من باطنها.

وفي قاعدة «التوسل والوسيلة» لشيخ الإسلام ابن تيمية مزيد بيان وتفصيل، والله أعلم.

أصول النواقض

- الشرك
- الكفر
- الإلحاد

الشرك

- ١ -

الشرك في بني آدم

عَن عِيَاضِ بنِ حِمَارٍ المُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يوم فِي خُطبَتِهِ: «**أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَن أُعَلِّمَكُم مَا جَهِلتُم مِمَّا عَلَّمَنِي يَومِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلتُهُ عبدا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم، وَإِنَّهُم أَتَتهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجتَالَتهُم عَن دِينِهِم وَحَرَّمَت عَلَيهِم مَا أَحلَلتُ لَهُم، وَأَمَرَتهُم أَن يُشرِكُوا بِي مَا لَم أُنزِل بِهِ سُلطَانًا، وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهلِ الأَرضِ فَمَقَتَهُم عَرَبَهُم وَعَجَمَهُم إِلاَّ بَقَايَا مِن أَهلِ الكِتَابِ** . . .» الحديث رواه مسلم.

كان آدم وذريته علىٰ التوحيد قال تعالىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾. قال ابن عباس: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم علىٰ شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. قال ابن القيم: هذا هو القول الصحيح في الآية اهـ[١]. وصححه ابن كثير[٢].

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١/ ٣٤٧)، و«بدائع التفسير» (١/ ٣٨٩) ط. دار ابن الجوزي.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٠).

قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، روىٰ البخاري في صحيحه، في كتاب التفسير، عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد . . . قال: أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحىٰ الشيطان إلىٰ قومهم إن انصبوا إلىٰ مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتىٰ إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبِدت.

والأقرب أنهم أولاد آدم عليه السلام صَوَّرُوهُم وعبُدوهم حتىٰ بعث الله تعالىٰ نوحًا عليه السلام فأمرهم بالتوحيد ونهاهم عن الشرك فقد روىٰ ابنُ أبي حاتم عن عروة بن الزبير: أنهم كانوا أولاد آدم لصلبه، وَدٌّ أكبرهم وأبرهم[(١)].

قال ابن تيمية: والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان: قوم نوح وقوم إبراهيم، فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف علىٰ قبور الصالحين، ثم صوروا تماثيلهم ثم عبدوهم، وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر، وكلٌّ من هؤلاء يعبدون الجن اهـ[(٢)].

---

(١) «الدر المنثور» للسيوطي (٢٦٣) ط. دار الفكر.

(٢) «مجموع الفتاوي» (١/ ١٥٧).

- ٢ -

معنى الشرك

الشِّرك في اللغة: اسمٌ من أشرك يشرك، وهو يدل علىٰ: مقارنة، وخلط، وتسوية.

قال ابن فارس: يدل علىٰ مقارنة وخلاف انفراد، وقال: الشركة أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد أحدهما عن الآخر اهـ قال تعالىٰ: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾.

وقال الراغب: الشركة والمشاركة: خلط الملكين، وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين فصاعدًا اهـ.

وفي لسان العرب: الشرك: التسوية، طريق مشترك أي يستوي فيه الناس اهـ.

والشِّرك: النَّصيب.

الشرك في الاصطلاح: **تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله تعالىٰ، أو هو: تشبيه المخلوق بالخالق فيما هو من خصائصه**[١].

وخصائصه هي: (١) الربوبية. (٢) الألوهية. (٣) الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ.

---

(١) ينظر «مدارج السالكين» لابن القيم (١/٣٤٨) ط. دار الكتاب العربي، و«الجواب الكافي» لابن القيم (٢٠٢) ط، مكتبة المعارف.

- ٣ -

النواقض والقوادح

التوحيد: هو إفراد الله بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

والنواقض: هي المبطلات التي تنافي التوحيد، فلا يبقىٰ معها، والنواقض تجتمع في الشرك والكفر، ومن الكفر: النفاق الاعتقادي، والإلحاد في الاعتقاد.

وأما قوادح التوحيد: فهي التي تنافي كماله الواجب، كالشرك الأصغر ومنه شرك الألفاظ، والرياء فإنه ينافي كمال التوحيد، فيجعله ناقصًا، لأن المرائي وإن لم يشرك بالله في أصل العبادة إلا أنه أشرك بالناس في طلب مديحهم وثنائهم.

وقد دَلَّ الشرعُ علىٰ أن كل ناقض للتوحيد فهو أيضًا ناقض للإيمان وللإسلام، والعكس.

- ٤ -

أقسام الشرك

القسم الأول: الشرك الأكبر:

تعريفه: هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، أو أن تجعل لله ندًا تعبده كعبادته. وهذا التعريف اقتصر علىٰ الألوهية، ونحوه

ماعرفه ابن سعدي بقوله: كل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع، فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره كفر وشرك[1].

والتعريف الأعم من ذلك أن يقال هو: تسوية غير الله بالله في الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات، أو أن تجعل لله ندًّا في ربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، وهذا أقرب من الأول.

قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ قال البغوي: أي يشركون، وأصله من مساواة الشيء بالشيء، ومنه العدل؛ أي يعدلون بالله غير الله تعالىٰ، يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به اهـ وقال تعالىٰ: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. فصرف العبادة لغير الله كالمحبة والتعظيم هو من الشرك الأكبر.

والشرك الأكبر في آثاره وما يترتب عليه وأحكام أهله في الدنيا والآخرة كالكفر الأكبر.

فالشرك الأكبر أعظم الذنوب التي لا يغفرها الله لمن مات عليه ولم يتب منه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾. وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. وهو أعظم الظلم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

---

(١) «القول السديد» لابن السعدي (٢١).

القسم الثاني: الشرك الأصغر:

تعريفه: هو ما جاء في الكتاب والسنة تسميته شركًا، ولا يصل إلىٰ مرتبة الشرك الأكبر لصارف شرعي.

حيث يعلم من النصوص الشرعية أنه لاتترتب عليه آثار الشرك الأكبر، ككونه لايخرج صاحبه من الملة وغير ذلك.

وقال ابن سعدي: هو كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلىٰ الشرك الأكبر، من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة اهـ[(١)].

وهذا التعريف أوسع من الأول، إذ يدخل فيه كل وسيلة إلىٰ الشرك كعبادة الله عند القبور أو الذبح لله عندها، ووصف وسيلة الشيء بالشيء نفسه سائغ، كما في الصحيحين: «**العين تزني وزناها النظر** ...». وتسمية الشيء بسببه صحيح كما في تسمية الرجز -وهو العذاب- وسُمِّيت به الأصنام لأنها سبب للعذاب.

ووصف المروزي الشرك الأصغر بقوله: شرك في العمل[(٢)].

والشرك الأصغر أكبر من الكبائر في الجملة، أما من حيث التفصيل فهو ليس علىٰ مرتبة واحدة، فبعضه أشدُّ تحريمًا وأغلظ إثمًا من بعض، وبعض الكبائر أشدُّ تحريما من الشرك الأصغر، فقتل النفس التي حرم الله -نفسه أو نفس غيره- ورد فيها من الوعيد ماهو أشدُّ من قول القائل ماشاء الله وشئت، وما شاء الله وفلان. ومن يسير الرياء.

---

(١) السابق.

(٢) ينظر: «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٣٤٠-٣٤١).

- ٥ -

أنواع الشرك الأكبر

وهذه النواقض بالنظر في أقسام التوحيد ثلاثة:

١- **الشرك في توحيد الربوبية**، وهو: تسوية غير الله بالله في شيء من أفعاله.

فمن الشرك في الربوبية: من اعتقد أن غير الله تعالىٰ يدبر كتدبيره أويتصرف كتصرفه، أو يخلق كخلقه، أو يملك كملكه، أو أن الطبيعة تخلق نفسها، أو أن المخلوق يخلق فعل نفسه كما تقول القدرية، أو أن أحدًا يملك النفع والضر كما يعتقده المشركون في آلهتهم والقبوريون في أضرحتهم، فقد أشرك في ربوبيته.

ومن ذلك: شرك طائفة من أرباب وحدة الوجود، كابن عربي وابن سبعين ونحوهم من الملاحدة الذين يقولون: إن الله حَلَّ في كل مكان وفي خلقه، فالرب والمربوب واحد، تعالىٰ الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ومن ذلك: شرك من جعل معه إلهًا آخر كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالث ثلاثةٍ.

ومن ذلك: شرك الفلاسفة، وقولهم: إن الحوادث موجِدها أسبابٌ ووسائطُ يسمونها العقول والنفوس، والصابئة الذين يشركون

بالكواكب ويجعلونها مدبرة، ولها تأثير في النفوس، فتجلب السعادة والنحوس.

٢- **الشرك في توحيد الأسماء والصفات،** وهو: تسوية غير الله بالله في شيء من أسمائه وصفاته.

ومن الشرك في أسمائه وصفاته: من يصف غير الله بصفات الله علىٰ وجه الكمال، أو يثبت لله صفات النقص التي في المخلوقين كالأبوة، أويشبه الله بخلقه.

٣ - **الشرك في توحيد الألوهية،** وهو: تسوية غير الله بالله في العبادة.

من ذلك: من اعتقد أن غير الله تعالىٰ يُدعىٰ أو يُخَاف أو يُحَبُّ كما يكون ذلك لله تعالىٰ فقد أشرك.

صور من الشرك الأكبر في الألوهية:

١) **شرك الدعاء:** وهو دعاء عبادة ودعاء مسألة، كأن يطلب من غير الله شيئا لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾. وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَـٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

٢) **شرك النية والإرادة والقصد:** فيقصد غير الله في أصل نيته وإرادته مطلقًا إما معظِّما ومحبًا له، أو يكون من المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾.

٣) **شرك المحبة**: أن يحب غير الله كمحبة الله قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

٤) **شرك الخوف**: أن يخاف غير الله خوف تعظيم وذلٍّ كخوفه من الله، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

٥) **شرك التوكل**: فيفوض أمره إلىٰ غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وهذا شرك في الربوبية والألوهية.

٦) **شرك الطاعة**: أن يطيع غير الله كطاعة الله ﷻ فيجعل له حق الطاعة والتشريع، قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. فهذا شرك في الألوهية وفي الربوبية.

- ٦ -

أنواع الشرك الأصغر

أنواعه ثلاثة، بحسب ما يتعلق به:

١- ما يتعلق بالقلب، كالرياء وإرادة الإنسان بعمله الدنيا.

قال ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**». فسئل عنه فقال: «**الرياء**». خرجه أحمد (٥/ ٤٢٨).

٢- ما يتعلق بالفعل: كالطيرة، ففي مسند الإمام أحمد (٢/ ٢٢٠) عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**».

٣- ما يتعلق بالقول: كقول: ما شاء الله وشئت، وكالحلف بغير الله ونحوهما.

- ٧ -

الشرك الخفي

الشرك الخفي ذكره بعض أهل العلم قسمًا ثالثًا، والأظهر أنه داخل في الأكبر والأصغر، فمن الأكبر ما هو خفي، ومن الأصغر ما هو خفي، فهو وصف قد يتعلق بأحدهما.

مثل العُجب، يطلق عليه بعض أهل العلم: الشرك بالنفس.

ومثله: الشرك في الخوف، ويسميه بعض العلماء: خوف السر.

ومثله: الشرك بالهوىٰ ونحوه مما قد يكون أصغر، وقد يكبر حتىٰ يصل إلىٰ شرك النية والإرادة فيتحول إلىٰ أكبر.

وفي حديث أبي موسىٰ قال: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَومٍ، فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ؛ اتَّقُوا هَذَا الشِّركَ فَإِنَّهُ أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ**». فَقَالَ لَهُ مَن شَاءَ اللَّهُ أَن يَقُولَ: وَكَيفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن أَن نُشرِكَ بِكَ شَيئًا نَعلَمُهُ وَنَستَغفِرُكَ لِمَا لَا نَعلَمُ**». رواه الإمام أحمد (٤/ ٤٠٣) وفيه ضعف.

قال ابن تيمية: وكذا الخوف والرجاء وما أشبه ذلك، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سواه، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ

يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾. وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلىٰ قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف، كما ذكرنا في المحبة، وكذا الرجاء وغيره، فهذا هو الشرك الخفي الذي لا يكاد يسلم منه إلا من عصمه الله تعالىٰ، وقد روي أن الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل اهـ[١].

- ٨ -

خطر الشرك والمعاصي

والشرك الأصغر إذا كثر فصاحبه علىٰ خطر عظيم، فإنه بريد إلىٰ الشرك الأكبر، وإذا كثُرَ غَلَبَ الحسنات وأضعف التوحيد حتىٰ لايقاومه، وإذا قلَّ قاومه التوحيد، قال ابن تيمية: الشرك نوعان: أكبر وأصغر، فمن خلص منهما وجبت له الجنة، ومن مات علىٰ الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة علىٰ ذنوبه دخل الجنة، فإن تلك الحسنات توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الأكبر، ولكن كثر عليه الأصغر حتىٰ رجحت به سيئاته دخل النار، فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر أو كثيرًا أصغر، والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لايؤاخذ به اهـ[٢].

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ٩٤).

(٢) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٩٦-٩٧).

وهاهنا ملحظٌ نبَّهَ عليه ابن القيم رحمه الله فقال: ولكن من الناس من يكون توحيده كثيرًا عظيمًا، ينغمر فيه كثيرٌ من تلك الآثار [أي التي تؤثر فيه وتقدح] ويستحيل فيه بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنىٰ نجاسة أو وسخ، فيغترُّ به صاحب التوحيد الذي هو دونه، فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده، فيظهر من تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير(١).

والذي يعمل ويجتهد ويجاهد نفسه في التوقِّي من الشرك الأصغر كالرياء والعجب ويتوب إن أصابه شيءٌ من ذلك خيرٌ من الذي يدع العمل ولا يجاهد نفسه، قال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما اهـ(٢).

كما أنه يجب الحذر من كبائر الذنوب والمعاصي فإنها بريد إلىٰ الكفر والشرك، فإذا كثرت المعاصي الكبار أضعفت التوحيد، وفيها نوع شرك بالهوىٰ والنفس.

- ٩ -

هل الشرك الأصغر تحت المغفرة؟

للعلماء قولان:

أحدهما: أنه داخل في الآية، فلا يغفره الله إذا لم يتب

(١) «الفوائد» لابن القيم (٢١٥-٢١٦).

(٢) «شعب الإيمان» للبيهقي (٦٤٦٩).

صاحبه، لأن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، في تأويل مصدر: إشراك، فهو نكرة في سياق النفي فتعم.

الثاني: أنه خاص بالأكبر، لأنه المحبط للعمل، ولكون صاحبه من المشركين الذي يخلدون في النار، يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾، ولأن الأصغر من جنس الكبائر التي تحت المشيئة، فيكون هنا عامًا أريد به الخصوص، وهذا أظهر القولين، قال ابن القيم: الشرك ينقسم إلىٰ مغفور وغير مغفور اهـ(١).

وكلا القولين نُقل عن ابن تيمية(٢) فقد تقدم عنه قريبًا أن الأصغر إذا كان قليلًا في جانب الإخلاص الكثير رجح به ميزان الحسنات.

وله قول آخر، قال: وقد يقال: الشرك لا يغفر منه شيء لا أكبر ولا أصغر علىٰ مقتضىٰ القرآن، وإن كان صاحب الشرك أي الأصغر يموت مسلما لكن شركه لايغفر له، بل يعاقب عليه، وإن دخل بعد ذلك الجنة اهـ(٣).

وهذا القول صَدَّره بقوله: وقد يقال، وهذا يدل علىٰ أنه لم يجزم به.

---

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (٢٨١) ط. مكتبة المعارف. و«تيسير العزيز الحميد» (٤٧٢-٤٧٣) ط. مكتبة العلوم والحكم

(٢) ينظر: «جامع الرسائل» (٢/ ٢٥٤)، و«الرد علىٰ البكري» (١٤٦)، وينظر: «القول المفيد» لابن عثيمين (١/ ١١٠-١١) ط. دار العاصمة.

(٣) «الرد علىٰ البكري» (١٤٦). وينظر: «القول المفيد» لابن عثيمين (١/ ١١٠-١١١) ط .دار العاصمة.

الكفر

- ١ -

معنى الكفر

الكفر **في اللغة**: **السَّترُ والتَّغطِية**، يقال للزَّارِع كافر؛ لأنه يغطِّي الحب بتراب الأرض، قال الله تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

والكفر في الاصطلاح: **ضدُّ الإيمان**، لأنه تغطية للحق والإيمان.

ومن معاني الكفر: جحود النعمة، وهو نقيض الشكر، ويسمىٰ كفر النعمة، والأصل في كلام الشارع الأول.

قال ابن تيمية: الكفر عدم الإيمان باتفاق المسلمين، سواء اعتقد نقيضه وتكلم به أو لم يعتقد شيئًا ولم يتكلم، سواء معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شكٌ وريبٌ، أو إعراضٌ، أو اتباعٌ للأهواء الصَّارفة اهـ[(١)].

وقال ابن حزم: الكفر هو في الدين صفة من جحد شيئا مما افترض الله تعالىٰ الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق عليه،

(١) «مجموع الفتاوي» (٢٠/٨٦).

بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معا، أو عمل عملا جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان اهـ[(١)].

والكفر الأكبر أوسع من الشرك الأكبر، فكل شرك أكبر فهو كفر أكبر، دون العكس.

ومن قواعد هذا الباب:

(١) الكفر حكم شرعي مَرَدُّهُ إلىٰ الشرع، فيرجع في بيان معناه وآثاره إلىٰ الشرع.

(٢) كما أن الإيمان: قول وعمل واعتقاد، فكذا الكفر: قول وعمل واعتقاد.

(٣) الإيمان والكفر الأكبر ضدان متىٰ ماثبت أحدهما انتفىٰ الآخر، فالإيمان لا يجتمع مع الكفر الأكبر ولا النفاق الاعتقادي، كما أن التوحيد لايجتمع مع الشرك الأكبر.

- ٢ -

أقسام الكفر

عند استقراء النصوص الشرعية فإن **الكفر ينقسم إلىٰ قسمين**:

القسم الأول: الكفر الأكبر، وهو الذي يخرج من ملة الإسلام، ويترتب عليه ما يترتب علىٰ الشرك الأكبر والنفاق الاعتقادي:

(١) «الإحكام» لابن حزم (١/٤٩) ط. دار الجيل.

١- الوعيد بالخلود في النار.

٢- لا يغفره الله يوم القيامة، أما في الدنيا فمن تاب الله عليه.

٣- محبط لجميع الأعمال، فهو كالحدث إذا دخل في الطهارة أفسدها.

٤- مخرج من الملة.

٥- صاحبه غير معصوم المال والدم، والمقصود عصمة المسلم وإلا فقد توجد عصمة مؤقتة للكافر كالمعاهد والمستأمن والذمي.

وأما **الكفر الأصغر فلا يترتب عليه شيء مما سبق**، بل هو من جنس كبائر الذنوب كالشرك الأصغر.

وهذا النوع من الكفر -أي الأكبر- هو الأصل عند الإطلاق في الكتاب والسنة.

ويمكن **التفريق بينه وبين الكفر الأصغر بما يلي**:

١- أن يَدُلَّ دَليلٌ علىٰ أن المراد به الأصغر، وذلك بأن يَرِدَ صارف يمنع من حمله علىٰ الكفر الأكبر، وذلك يحصل بالجمع بين النص الذي ورد فيه الكفر وبين النصوص الأخرىٰ، مثاله: قوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**». مع قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾. فوصفهم بالإيمان والأخوة، مما يدل علىٰ بقائهم علىٰ الإيمان، رغم أنه قتل كما في الآية الأولىٰ، واقتتلوا كما في الآية الثانية.

٢- أن يَدُلَّ دليل علىٰ أن المراد به الأكبر، كما في لفظ الكفر، إذا كان معرَّفًا بالألف واللَّامِ. كما في قوله ﷺ: «**بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة**». أخرجه مسلم عن جابر رضي الله عنه، قال ابن تيمية: الكفر المعرف باللام هو الأكبر، وفرق بينه وبين كفرٍ مُنَكَّرٍ في الإثبات اهـ[(١)].

٣- النظر في آثاره التي وردت بها النصوص، وما تدل عليه أصول الشريعة، والآثار عن الصحابة وإجماع الأمة، وذلك بالنظر: هل يعامل معاملة المرتد أم لا؟

فإطلاق الكفر علىٰ أحد يلزم منه أمران:

الأول: حكم دنيوي: ويترتب عليه ما يلي:

(١) لا ينكح.

(٢) لا ولاية له ولا حضانة.

(٣) لا تؤكل ذبيحته.

(٤) لا يصلىٰ عليه ولا يغسل ولا يدفن في مقابر المسلمين.

(٥) لا يدعىٰ له ولايستغفر.

(٦) لا يدخل مكة وحرمها.

(٧) لا عصمة لنفسه وماله إلا أن يكون ذميًّا أومعاهدًا أو مستأمنًا.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٠٨) تحقيق الدكتور العقل.

ثانيًا: حكم أخروي: الوعيد بالخلود الأبدي في النار، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾، وقُيِّدَ بالأبدي لأن هناك خلودًا وردت به النصوص في بعض المعاصي الكبار وهوخلود غير مؤبد بل خلود دون خلود، كما في آية القتل العمد، وهو داخل تحت المشيئة.

- ٣ -

أنواع الكفر الأكبر

الإيمان إقرار وإذعان، قول وعمل، والكفر ضد الإيمان، فتكون أنواعه متعلقة بهاتين الكلمتين:

النوع الأول: الكفر الناتج عن تخلف القول -قول القلب وقول اللسان-، وله صور:

١- الكفر الناشيء عن الجهل التام بالإسلام.

٢- الكفر الناشيء عن ترك النطق بالشهادتين مع القدرة علىٰ ذلك.

٣- كفر الشك، فلا يجزم بصدق ما جاء به الإسلام ولا بكذبه.

٤- كفر التكذيب والجحود والإنكار، فيكذِّب بالإسلام أو بنبوة النبي ﷺ، أو بما جاء به، بالقلب أو باللسان، أو بهما معا فيعلم أن الرسالة حق، وأن ماجاء به الرسول ﷺ حق، ومع ذلك يجحده وينكره، كما صنعت اليهود وغيرهم، عرفوا نبوة النبي ﷺ ومع ذلك

جحدوا بها، وكما حصل من أمية بن أبي الصلت. قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، وماحصل من فرعون فإنه من هذا النوع.

وذكر ابن القيم أن كفر الجحود نوعان: أحدهما: كفر مطلق؛ كأن يجحد جملة ما أنزله الله، أو يجحد رسالة الرسول ﷺ. الثاني: كفر مقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام أو تحريم محرم من محرماته أو صفةً وصف الله بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله به، عمدًا[1].

النوع الثاني: الكفر الناتج عن تخلف العمل -عمل القلب وعمل الجوارح- وله صور:

١- كفر الإباء والاستكبار، فهذا وإن صَدَّقَ ظاهرًا وباطنًا لكنه يأبىٰ أن يذعن ويلتزم ويستسلم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾. وهو الغالب علىٰ كفر أعداء الرسل كما وقع من اليهود، ومثله كفر أبي طالب، أخذته الحميَّةُ لقومه، وتعظيم آبائه، وأنشد في ذلك[2]:

وعَـرَضْـت دينًـا قـد عـرفـتُ بـأنـه
مـن خَـيـرِ أديَـان الـبَـرِيَّـةِ دِيـنَـا

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٧).

(٢) «البداية والنهاية» (٤/ ١٠٨) ط. دار هجر.

لـــولا الـــمـــلامـــةُ أو حِــذَارِيَ سُـــبَّـــةً
لــوجــدتــنــي سَــمــحًــا بــذاك مــبــيــنًــا

٢- كـفـر الإعـراض، فـيـعـرض بـسـمـعـه وقـلـبـه عـمـا جـاء بـه الرسول ﷺ، لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه، كمن يعرض عن تعلم الشريعة، ولا يلتفت إليها، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فالتكذيب ضد التصديق، والتولي والإباء ضد الانقياد والعمل، فهو إعراض بالجوارح عن الانقياد للأمر والنهي.

٣- كفر النفاق، فيظهر التصديق والانقياد والاستسلام باللسان، بينما قلبه خالٍ من ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾. والـمـقـصـود هـنـا الـنـفـاق الأكـبـر، وهوالنفاق الاعتقادي، وأما الأصغر فهو نفاق عملي.

- ٤ -

الكفر الأصغر

القسم الثاني: الكفر الأصغر، وهو من أكبر الكبائر، ولا يخرج صاحبه من الملة، ولا يترتب عليه ما يترتب علىٰ الكفر الأكبر.

تعريف الكفر الأصغر: هو ما أطلق عليه في الكتاب والسنة كفر، ودلت الأدلة والقرائن علىٰ أنه لا يصل إلىٰ مرتبة الكفر الأكبر.

ومن أمثلته ما يلي:

١- قوله ﷺ: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة علىٰ الميت**». رواه مسلم.

٢- قوله ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**». متفق عليه عن ابن عمر.

٣- قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**». متفق عليه عن ابن مسعود.

٤- قوله ﷺ: «**لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر**». متفق عليه عن أبي هريرة.

٥- قوله ﷺ: «**أيما عبد أَبَقَ من مواليه فقد كفر حتىٰ يرجع إليهم**». رواه مسلم.

وهذا الكفر الأصغر يجتمع مع أصل الإيمان، بخلاف الأكبر، ولذا فالإيمان مراتب وشعب، كما أن الكفر مراتب وشعب، وهو قول أهل السنة والجماعة، يدل علىٰ ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بِضعٌ وستون أو بضع وسبعون شعبة؛ فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**». متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

قال الإمام المروزي عن السلف: ولنا في هذه قدوة بمن روي عنهم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين إذ جعلوا للكفر فروعًا دون أصله، لا ينقل صاحبه عن مِلَّةِ الإسلام، كما أثبتوا للإيمان من جهة العمل فروعًا للأصل، لاينقل تركها عن مِلَّةِ الإسلام . . . قالوا: فلما كان الظلم ظلمين والفسق فسقين، كذلك الكفر كفران: أحدهما ينقل عن المِلَّةِ، والآخر لا ينقل عن المِلَّةِ، وكذلك الشرك شركان: شرك

في التوحيد ينقل عن الملة، وشرك في العمل لا ينقل عن الملة، وهو الرياء اهـ[(١)].

فهذا الأصغر يُنقِصُ الإيمانَ وينافي كماله، كما هو الحال في المعاصي، وقد أطلق عليه بعض أهل العلم كابن القيم: الكفر العملي. وسبق عن المروزي أنه وصف الشرك الأصغر بأنه: شرك في العمل. وليس معناه أنه لا يوجد كفر عملي أكبر أو شرك عملي أكبر، بل لأن الكفر والشرك الأصغرين متعلقان بعمل الجوارح واللسان، فالأصغر عملي لا اعتقادي، بخلاف الأكبر تارةً يكون عمليًا وتارة يكون اعتقاديًا.

ومما ينقص الإيمان: النفاق العملي، وهو خصال النفاق العملية كالكذب وإخلاف الوعد والخيانة والفجور ونحوها من صفات النفاق التي إذا اجتمعت كان كالكفر الأصغر، ومثله القيام إلىٰ الصلاة كسلًا وتثاقلًا، والجلوس مع المنافقين والمستهزئين بالله وآياته، ونحوها من الصفات التي يجمعها إظهارٌ أمرٍ وإبطانُ خلافه، فهذا وإن كان عنده أصل الإيمان فعنده شعبة من النفاق لايكفر بها، وقد جاء في الصحيحين: أن أصحاب النبي ﷺ لما ذكروا مالك ابن الدخشم رضي الله عنه؛ رأو أن وجهه وجلوسه إلىٰ المنافقين، فاتهمه بعضهم بالنفاق، إلا أن النبي ﷺ نفىٰ ذلك عنه واعتذر له لِمَا يعلمه من إيمانه، ولكونه ممن شهد بدرًا، فإذا كثرت في الشخص خصال النفاق أوشكت أن تستولي علىٰ قلبه، وهذا أمرٌ خَفِيٌّ يدبُّ إلىٰ القلوب فيفسدها، ولذا

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣٩-٣٤٢) ط. مكتبة العلم.

فقد خافه الصحابة الكرام، قال البخاري في صحيحه: قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه اهـ.

- ٥ -

موجبات الكفر ونواقض الإيمان

في هذا الباب بيان نواقض الإيمان، وإذا كان الإيمان هو أعظم ما يحققه الإنسان في حياته فإنه لا خسارة أعظم من أن يخسر العبد إيمَانَهُ، وأن يضِيعَ عملُهُ هباءً منثورًا، ولا نعمة أعظم من تمسك العبد بتوحيده وإيمانه وثباته عليه، فعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنه؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَينَ إِصبَعَينِ مِن أَصَابِعِ الرَّحمَنِ كَقَلبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيثُ شَاءَ**». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّف قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ**». رواه مسلم.

ويدخل في هذا الباب: نواقض الإسلام ونواقض التوحيد، فإذا انتقض الإيمان انتقض التوحيد والإسلام، والمراد بالنواقض هنا النواقض التي تنقض الإيمان من أصله فتزيله وتحبطه، وهي مبطلاته ومفسداته، تنقل الواقع فيها من مِلّة الإسلام إلىٰ ملة الكفر، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

والوقوع في هذه النواقض: رِدَّةٌ، وفاعله: مرتدٌّ، ومعاملة المرتد في الإسلام أشدُّ من معاملة الكافر الأصلي، فإنه يقتل علىٰ كلِّ حال بعد أن يُستتاب.

وقد مرّ سابقًا: أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، فالنواقض داخلة في هذه الجُمَل، فمنها ماهو متعلق بالقلب ومنها ماهو متعلق باللسان، ومنها ماهو متعلق بالجوارح، قال ابن حزم: الكفر هو في الدين صفة من جحد شيئا مما افترض الله تعالىٰ الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق عليه، بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معا، أو عمل عملا جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان اهـ[(١)].

ولذا فإن النواقض يمكن تقسيمها إلىٰ ثلاثة[(٢)]:

١- نواقض تتعلق بقول القلب وعمله، وهي النواقض الاعتقادية.

٢- نواقض تتعلق بقول اللسان، وهي النواقض القولية.

٣- نواقض تتعلق بعمل الجوارح، وهي النواقض العملية.

ولابد من الإشارة إلىٰ أن هذه الأقسام بينها ارتباط، فالنواقض القولية والعملية تدل علىٰ الاعتقادية والعكس، وهذا من علاقة الظاهر بالباطن، ويقع الكفر بالقولية والعملية كالاعتقادية، لدلالة النصوص علىٰ ذلك، ولا يصح أن يقال: إن الكفر لا يقع إلا بالاستحلال القلبي، وهو اعتقاد الشيء الواجب أو المحرم مباحًا، بل يقع بالقلب واللسان والجوارح.

فهناك فرق بين من يقول إن تارك الصلاة لا يكفر إلا إذا اعتقد بقلبه أن تركها جائز، لأنه يرىٰ أن الكفر لايقع إلا بالاستحلال، أي

---

(١) «الإحكام» (١/ ٤٩).

(٢) ينظر: «نواقض الإيمان القولية والعملية» د. عبد العزيز العبد اللطيف ط. دار الوطن.

اعتقاد القلب أن الصلاة غير واجبة، بغض النظر عن دلالة النصوص الواردة في هذه المسألة، وبين من يعارض لكونه يتأوَّل النص، ويحمله علىٰ الكفر الأصغر، فهو يعترض علىٰ دلالة النص، ولا يقول إنه لا يكفر إلا بالقلب، فهذا الخلاف معه ليس كالأول.

والحديث عن هذه النواقض هو باعتبار الوصف، فيوصف هذا القول وهذا العمل وهذا الاعتقاد بأنه ناقض، دون الكلام عن الفاعل والقائل والمُعتَقِد، فالكلام عن الفعل يختلف عن الكلام عن الفاعل، وسيأتي مزيد بيان لهذا.

وللعلماء في الكلام عن النواقض مسالك، فمنهم المتوسِّع فيها ومنهم المضيِّق لها، والكلام هنا سبيله الإجمال، ومن أراد التفصيل فليراجع الكتب والبحوث المتخصصة، وكذا باب حكم المرتد من كتب الفقه.

- ٦ -

النواقض الاعتقادية

أولًا: النواقض الاعتقادية التي هي قول القلب وعمله، فمنها:

١ - التكذيب بما هو معلوم من دين الله، فإذا ثبت عنده أنه صحيح عن الله أو عن رسوله، أو كان معلومًا من دين الله بالضرورة فكذَّبه فهو كافر، كالتكذيب بأنَّ الله كلَّم موسىٰ ﷺ أو بعث محمدًا ﷺ أو كذب بالصلاة والصيام، أونحو ذلك مما ثبت في

النصوص، فالتكذيب ضد الإيمان والتصديق، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمعُ بي يهودي ولا نصرانيٌّ ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان أصحاب النار**»، وقال الله عزوجل: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

ويدخل في هذا الناقض: استحلال الحرام، وهو اعتقاد أن ما حرمه الله جائز وحلال، مما هو متفق علىٰ تحريمه بين المسلمين، أو ثبت عند المنكِرِ ذلك، كإباحة ترك الصلاة أو ترك الصيام، أو استحلال الربا أو الزنا أو الخمر أو الجمع بين الأختين في النكاح.

ويدخل في هذا الناقض: جَحدُ الحقِّ الذي جاء به الوحي وإنكاره، والجحود في اللغة[1]: نقيض الإقرار، وهو الإنكار مع العلم، فينكر ما في القلب إثباته، أويثبت ما في القلب نفيه، إنكارًا في الظاهر مع الإقرار في الباطن، وعلىٰ ذلك يكون الجحد من النواقض الظاهرة أي القولية، ومن أهل العلم[2] من يرىٰ أن الجحود في هذا الباب يراد به التكذيب والإنكار في الظاهر والباطن، وأنه يكون باللسان وبالقلب وعليه فيكون مرادفًا للتكذيب، فيكون من النواقض الاعتقادية والقولية.

---

(١) ينظر: «المفردات» للراغب (٨٨) و«لسان العرب» (٣/١٠٦) ط. دار الفكر

(٢) ينظر: «نواقض الإيمان القولية والعملية» د. عبد العزيز العبد اللطيف (٣٩) ط. دار الوطن.

وذلك كمن ينكر ربوبية الله أو ألوهيته أو أسماءه أو صفاته أو شيء منها، أوالرسالة أو الصلاة أو الصوم أو الجنة أو النار، وكل ما هو معلوم من دين الله بالضرورة، أو ثبت عند المنكر؛ فهذا كفر مخرج من الملة.

قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. وقال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾.

٢- الإباء والاستكبار عن قبول الحقِّ، مع الإقرار به في الظاهر والباطن، فيأبىٰ أن يقبل الحقَّ مع إقراره بأنه من عند الله، وأنه شرع الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥]. وإبليس عاند وأعرض واستكبر عن السجود مع إقراره بأن الله هو الرب المعبود، قال الله تعالىٰ عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾. وقال: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

ويدخل في هذا الناقض: الإعراض والرَّدُّ، وذلك بإعراض القلب عن قبول أصول الإسلام والإيمان كتوحيد الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات، أو الإعراض عن أصل الدين، فهذا ينافي الاستسلام والانقياد الذي هو معنىٰ الإسلام والإيمان، فهو إما أن يُعرِض عن أصل الدين الذي لا يكون المرءُ مسلمًا إلا به، كأن يُعرِض عن تَعَلُّم الشهادتين أو عن العلم بمدلولهما، فهذا كفر الإعراض،

أو يكون الإعراض بمعنىٰ الردِّ لشيء من دين الإسلام فيتركه استكبارًا وعدم قبول به، فهو كفر الردِّ.

٣- الشَّك في شيء من دين الإسلام مما هو معلوم عند عامَّة المسلمين، كمن يشك في الجنة أوالنار أو الرسالة أونحو ذلك، والشَّك هو التردد بين صدق الخبر وكذبه، فلا يجزم بأحدهما، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقىٰ الله بهما عبد غير شاكٍّ فيحجب عن الجنة**» . وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، ولأن الشك ينافي الإيمان القائم علىٰ اليقين والتصديق، وقال تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. قال عكرمة وقتادة: شكٌّ.

٤- النفاق، وهو إبطان الكفر أوالتكذيب أوالجحد أوالشك في القلب، مع إظهار القبول والإذعان باللسان والجوارح، والمقصود بالنفاق هنا: الاعتقادي، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] الآيات في سورة البقرة.

٥- الرِّضا بالكفر، أو استحسانه أوعدم تكفير الكافر المعلوم كفره، كالكافر الأصلي المعلوم كفره بالكتاب والسنة -كاليهودي والنصراني والمجوسي-، أو الشك في كفره، أو تصحيح ماهو عليه، أو يقول: هم مؤمنون إيمانًا صحيحًا، ومثل ذلك من يصحح شيئا من الديانات الموجودة الآن ويقول إنها علىٰ حق.

وأما الكافر المرتد فلا يلزم تكفيره، إذ من الممكن أن يكون كفره متنازعًا فيه، من جهة ثبوت التكفير بهذا القول أو بهذا العمل، أو متنازع فيه من جهة كون هذا الشخص هل توفرت فيه شروط تكفير المعين وانتفت موانعه أم لا؟

ويدخل في هذا الناقض: الدعوة إلىٰ تقارب الأديان، أو التخيير بينها، والدعوة إلىٰ صلاة مشتركة واجتماع مشترك ينظر فيه أهل كل ديانة إلىٰ ما لدىٰ الآخرين من الحق، وأن هناك قواسم مشتركة بين الأديان، فذلك كله من الكفر والباطل، فإن كتب أهل الكتاب قد حرفت ثم إنها قد نسخت بالكتاب المهيمن والحاكم والمحفوظ من التحريف وهو القرآن العظيم، والنصوص في هذا كثيرة قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمعُ بي يهودي ولا نصرانيٌ ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان أصحاب النار**». وروىٰ أحمد في مسنده (٣/ ٣٦٧) عن جابر بن عبد الله؛ أَنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ أَتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِن بَعضِ أَهلِ الكُتُبِ، فَقَرَأَهُ عَلَىٰ النَّبِيُّ ﷺ، فَغَضِبَ وَقَالَ: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابنَ الخَطَّابِ؟! وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَقَد جِئتُكُم بِهَا بَيضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسأَلُوهُم عَن شَيءٍ فَيُخبِرُوكُم بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَو بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَو أَنَّ مُوسَىٰ كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَن يَتَّبِعَنِي**».

ومن ذلك الدعوة إلىٰ نحل كفرية أواتجاهات إلحادية كالليبرالية الملحدة والعلمانية اللادينية والشيوعية الاشتراكية.

٦- اعتقاد أن غير هدي النبيﷺ أكمل أو أفضل من هديه وشريعته.

٧- العزم علىٰ الكفر، وفرق بين الهمِّ والعزم، فالعزم هو الذي لا يتخلف معه القول أو الفعل إذا تهيأت أسبابه، وينعقد عليه القلب.

٨- اعتقاد أنَّ نبيًا يُبعَثُ بعد النبيﷺ، أو أن أحدًا يسعه الخروج عن دينه وهديه وشريعته، كما وَسِعَ الخَضِرَ أن يخرج عن شريعة موسىٰ عليه السلام، أو أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن شريعة النبي ﷺ، أو أن للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول ﷺ في عموم أحواله أو بعضها، وكثير من الطوائف والنحل الباطنية لها نصيب من هذا الضلال، كالقاديانية والبهائية والنصيرية والدروز والإسماعيلية، وقد ثبت في الصحيحين أن عيسىٰ عليه السلام ينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة محمد ﷺ.

٩- محبة الكفر ومحبة دين الكافرين، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] فهذه موالاة لأجل الدين، وهي موجبة للكفر بالإجماع، وأما الموالاة العملية فسيأتي بحثها.

١٠- كراهية أو بغض شيء من شرع الله، كمن يكره الحدود أو يكره تفضيل الشرع للرجل علىٰ المرأة في الميراث والدية والشهادة ونحوها، وهو عمل قلبي يكفُرُ به صاحبه؛ لأنه ينافي أصل الولاء والمحبة لله ولدينه ولكتابه ولشريعته، وهو من أنواع النفاق الاعتقادي، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

وفرق بين كراهية شيء من الشرع وبين كراهية المشقة والأذىٰ الذي قد يترتب عليه، كالبرد حال الوضوء، والقتل في الجهاد، فكراهية المشقة والأذىٰ لا تدخل في هذا، قال تعالىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

١١- صرف شيء من أعمال القلوب التي هي عبادة لله تعالىٰ إلىٰ غير الله تعالىٰ، كمن يحبُّ غير الله كمحبته لله، ومن يخاف غيرَ الله كخوفه من الله، ومن يتوكل علىٰ غير الله كتوكله علىٰ الله.

١٢- الإيمان بالطاغوت، والطاغوت: من الطغيان وهو مجاوزة الحد، قال الإمام مالك: هو ما عُبِد من دون الله. ذكره القرطبي في تفسيره[(١)]. قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾، وقيل: الشيطان. وقيل: الكاهن، فمن اعتقد في أحد ما يعتقده في الله من ربوبية أوألوهية أو طاعة، أو أنه يعلم الغيب، أو أن يعتقد أن أحدًا يستحق أن يعبد من دون الله، أو يطاع من دون الله أو مع الله، أو يعتقد أن له الحق في تشريعٍ لم يأذن به الله، فقد كفر.

وهذه المسائلُ كلها مُجمَعٌ عليها، لا اختلاف في ذلك.

- ٧ -

نواقض الإيمان القولية

ثانيًا: نواقض الإيمان القولية؛ وهي:

١- كل قول فيه تكذيب أو جحد أو نفي لربوبية الله تعالىٰ أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته فهو كفر، كنفي ملك الله وتدبيره، أو ينفي وجود الله تعالىٰ، أو أن شيئًا لم يخلقه الله، أو أن شيئا يخرج عن ملك الله، يقول القاضي عياض: كل مقالة صرّحت بنفي

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/٢٤٨) ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الربوبية أو الوحدانية أو عبادة أحد غير الله أو مع الله . . . أو ادَّعىٰ له ولدًا أو صاحبة أو والدة أو أن في الأزل مُشيئًا قديمًا غيره أو أن ثمَّ صانعًا للعالم سواه أو مدبرًا غيره، فذلك كلُّه كفرٌ بإجماع المسلمين اهـ[1].

ويدخل في هذا الناقض: كل قول فيه إلحاد في ربوبية الله أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، أوإنكار لما اتفق علىٰ ثبوته منها، أو إلحاد فيها بتحريفٍ ظاهرٍ بطلانه، كمن أنكر أن الله كلِّم موسىٰ تكليمًا، أواتخذ إبراهيم خليلًا، أو قال إن القرآن مخلوق، فقد ثبت عن السلف تكفير - مقالة الجهمية والمعتزلة في هذا، أو أنكر شيئا من أسمائه وصفاته كنفي علمه الكامل أو قدرته أو حياته، أو يدعي أن الله يعلم الكليات ولايعلم الجزئيات والتفاصيل، أو يشبه صفات الله بخلقه، أو يثبت صفة نفاها الله عن نفسه كالولد والصاحبة والسِّنة والنوم.

وأما الجهل ببعض أسماء الله وصفاته فهذا لا يكفُر به، ما دام أنه مقرٌّ بما جاء به الرسول ﷺ في الجملة .

ومن ذلك: التكذيب بالملائكة فهو كفر، لما فيه من التكذيب بالقرآن الذي يدل علىٰ وجودهم ومنزلتهم عند الله وطاعتهم له، وكذا من أنكر وجود الجنِّ فهو كفر، وهو داخل فيما سبق من التكذيب بالقرآن.

---

(١) «الشفا» للقاضي عياض (٢/ ٦٠٤-٦٠٦) ط دار الكتاب العربي.

ومن ذلك: التكذيب بالكتب المنزلة أو بشيء منها، أو الادعاء بأن أصلها الذي لم يقع عليه التحريف والذي أُنزل علىٰ الأنبياء عليهم السلام مختلقٌ أو مُفترىٰ، إذ فيه تكذيب بالقرآن، وعدم إتيانٍ بركنٍ من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالكتب، نقل الإجماع علىٰ ذلك ابن عبد البر والقاضي عياض وغيرهم.

ومن ذلك: التكذيب بالبعث وباليوم الآخر أو بشيء مما جاء به القرآن أو صحّ وثبت عن النبي ﷺ من أحوالها وأهوالها ومواقفها.

ويدخل في ذلك إنكار وعد الله ووعيده، والمقصود بالوعد كل ما وعد الله به عباده المؤمنين من مغفرة الذنوب ومحبة الله تعالىٰ لمن اصطفاه من خلقه ووعده إياهم ثوابه ورضوانه وجنته، والوعيد ضد ذلك، مما أوعد به المكذبين والكافرين، من سخط الله تعالىٰ وأليم عذابه وناره، أو صرف ظواهر النصوص عن مراد الله ورسوله إلىٰ معان لا تصح، وذلك بتحريفها والإلحاد فيها وأكثر من ضلّ في هذا الباب هم من غلاة الفلاسفة وملاحدة المتصوفة ونحوهم.

ومن ذلك: إنكار ما هو ثابت في الكتاب والسنة، كوجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها وتحريم الخمر والزنا، وتحريم نكاح الأخوات والبنات والعمات، ووجوب الوضوء والاغتسال من الجنابة، سواء كان معلومًا من دين الله بالضرورة؛ ويعلمه عامة المسلمين أنه من دين الله أو صح وثبت عند المنكر كونه من الدين، وقد حكىٰ الإجماع عليه أهل العلم، ونقل ابن تيمية[(١)] اتفاق الصحابة

(١) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٤٠٤-٤٠٥).

علىٰ أن من استحل الخمر قتلوه؛ وكذا حكىٰ ابن عبد البر[1] الإجماع علىٰ كفر مستحل خمر العنب المسكر.

٢- كل قول فيه شرك في ربوبية الله أو ألوهيته أو أسمائه وصفاته، كإثبات خالقٍ مع الله، ودعاءُ غير الله والاستغاثة به والاستعانة به فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو يكون ذلك الدعاء علىٰ سبيل الخضوع والطمأنينة والذلّ والافتقار الذي لا يكون إلا من عبد مملوك لربٍ مالك متصرِّف مما سبيله التعبد، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

٣- سبُّ الله تعالىٰ وتقدس، وذلك بأن يقع السَّب علىٰ وجه الخصوص لذاته أو أسمائه أو صفاته.

وهذا ربما يقع من بعض الناس عند اعتراضه علىٰ القضاء والقدر، أما إن كان سبًا للدهر أو للمصنوع، فهذا وإن كان فيه معنىٰ السبِّ للصانع إلا أنه غير صريح ولا يدخل في هذا، إلا إن أظهر أنه يريد ذلك.

ومن ذلك: سَبُّ الملائكة، فهو كفر كما فعلت اليهود مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن ذلك: سبُّ النبيِّ ﷺ أو أحدٍ من أنبياء الله، والطعن فيهم وقدحهم أو في رسالتهم، أو الطعن في عفتهم وصلاحهم، أو ينسب إليهم شيئا يتناقض مع اصطفاء الله لهم.

---

(١) ينظر: «التمهيد» (١/ ١٤٢-١٤٣).

قال ابن قدامة[1]: ومن سبَّ الله تعالىٰ كفر سواءً كان مَازِحًا أو جادًّا، وكذلك من استهزأ بالله تعالىٰ أو بآياته أو برسله أو كتبه اهـ.

والسبُّ هو: الشَّتم وكل كلام قبيح يوجب الإهانة والاستخفاف والنقص مما يعرفه الناس من كلامهم، والسَّبُّ نوعان: دعاءٌ وخبر، فالدعاء كقول: لعنه الله أو أخزاه الله، والخبر: كتسميته بالبهائم أو ذكره بفاحشة، كما قالت اليهود في حق عيسىٰ عليه السلام أنه من زنا، أو وصفه بخزي أو مهانة أو سحر أو خِدَاعٍ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾. فسماها كلمة الكفر، ووصفهم بالكفر.

ومن ذلك: سبُّ الصحابة جميعًا أو أكثرهم سبًا يقدح في دينهم وعدالتهم، كأن يرميهم بالكفر أو الفسق أو الضلال، أو أن الصحابة ارتدوا بعد وفاته ﷺ إلا نَفَرًا قليلًا، أو أن عامتهم فسقوا، قال ابن تيمية: فهذا لا ريب في كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا والثناء عليهم اهـ[2]. وكذا نص غير واحد من الأئمة علىٰ كفر من كفَّر الصحابة، لما فيه من القدح في الشريعة وإنكار لأصولها وفروعها، إذ هم حملتها ورواتها.

وأما سبُّ آحادهم[3]، فإن كان سبًا لمن تواترت النصوص

---

(١) ينظر: «المغني» (١٢/ ٢٨٨-٢٨٩). ط. دار هجر.

(٢) «الصارم المسلول» (٥٨٦-٥٨٧) ط. دار الكتب العلمية.

(٣) ينظر: «نواقض الإيمان» د. عبد العزيز العبد اللطيف (٤١٧-٤١٩).

بفضله وسابقته كأبي بكر وعمر وعائشة ونحوهم ﭬ فذلك عند جماعة من أهل العلم كفر وناقض، لأنه إنكارٌ لفضيلتهم وعدالتهم التي وردت في الكتاب والسنة، وهو معلوم من الدين بالضرورة، وهو الأقرب إلىٰ الصواب والعلم عند الله، وقالت طائفة: بل هو فسق يوجب التعزير والتأديب. هذان قولان للشافعية، وبالثاني قال كثير من المالكية، وبالأول قال طائفة من الحنفية.

وأما إن كان السبُّ لمن سوىٰ ذلك[1]، كمن يسبُّ صحابيًا أو اثنان ولم تتواتر النصوص بفضله، فهذا يَفسُقُ بسبِّه ولا يكفر، وهذا كله بالقول، أما استحلال سبِّهم فهو من أعمال القلوب وهو كفر لأنه استحلال لما علم حرمته من دين الله، وسبق. فكيف بمن يستحل سبهم والوقيعة فيهم وتكفيرهم ويجعل ذلك دينًا يتقرب به؟!

وأما الوقيعة في عائشة ﭭ ورميها بما برأها الله منه فلا ريب أنه كفر لأنه تكذيب للقرآن.

وأما قذف سائر أمهات المؤمنين، فهل يكفر به؟ علىٰ قولين، أصحهما أنه يكفر، لأنهن سواء في كون قذفهن فيه مسبَّةٌ وتنقص للنبي ﷺ، اختار ذلك ابن حزم وعياض وابن تيمية وغيرهم رحمهم الله[2].

٤- الاستهزاء والسخرية والاستخفاف بالله تعالىٰ وتقدس، بذاته أو أسمائه أو صفاته، سواء كان جادًا أو هازلًا.

---

(١) ينظر: السابق: (٤٢٠).

(٢) السابق: (٤٢٥).

ومن ذلك: الاستخفاف والاستهزاء بالملائكة وتنقصهم.

ويدخل في ذلك السخرية من وعد الله ووعيده، كمن يسخر من الحور العين، أو من أنهار الجنة، أو أهوال القيامة وعذاب النار.

ومن ذلك: الاستخفاف بالكتب المنزلة والتنقص لها.

قال القاضي عياض(١): من استخف بمحمد ﷺ أو بأحد من الأنبياء أو أزرىٰ عليهم أو آذاهم فهو كافر بالإجماع اهـ.

ومن أهل العلم من اعتبر الاستهزاء أشد من الكفر المجرد قاله ابن سعدي، لأن هذا كفر وزيادةُ احتقارٍ وازدراءٍ(٢).

وهذه مسألة مُجمَعٌ عليها، وفيها عداوة لله تعالىٰ، ومُحادَّة له، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ومن ذلك: الاستهزاء والاستخفاف بدين الله تعالىٰ وشريعته وعبادته وسنة نبيه، أو بشيء من ذلك، فمن قال ذلك أو فعله فقد كفر، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾. وهذا الاستهزاء كفر بالإجماع، وسبب نزول الآية يوضح هذه المسألة ويجليها، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

---

(١) السابق: (١٧٩).

(٢) «القول السديد» لابن سعدي (٤٤).

والاستهزاء هو: كل قولٍ أو فعلٍ يُرَاد منه السخرية والتنقص والتندُّر والاستخفاف، والاستخفاف؛ مأخوذ من الخِفَّة، واستخف به أي استهان، وتكون دلالته علىٰ ذلك بما يعرفه الناس من كلامهم ويدركونه من أفعالهم، كاللَّعنِ والتقبيح والتَّنَقُّص بذكر أوصاف تدل علىٰ التحقير والازدراء.

والاستهزاء تارة يقع بالقول، وتارة يقع بالفعل كالإشارة والهَمز واللَّمز ونحو ذلك كالإيماء والمحاكاة.

ومن ذلك: الاستهزاء بالعلماء والصالحين ونحوهم علىٰ وجه العموم، أو لأجل دينهم وصلاحهم وخصالهم التي أمر الله بها وندب إليها، وسبب نزول آية التوبة مقالة المنافقين: ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء. فنزلت الآية، خرَّجه ابن جرير (٦/ ٤٠٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في غزوة تبوك.

قال تعالىٰ: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٢] وقال تعالىٰ: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠].

وأما إن كان الاستخفاف يعود لذواتهم، كمن يستهزأ بأحدٍ من الصالحين لا لأجل دينه وصلاحه وفقهه وعلمه، وإنما لذاته وشخصه وأفعاله التي لا تتعلق بالدين والشرع، فهذا لا يكفر، لكنه آثم، ويخشىٰ عليه من الفتنة.

٥- ادعاء الألوهية أو الربوبية أو شيء منها، أو إثبات صفة من صفات الله تعالىٰ أو اسم يختص الله تعالىٰ به لمخلوق، كأن يدعي

علم الغيب، كما يحصل من السحرة والكهان وغيرهم، أو يدعي أن له الحق في تحليل الحرام أو تحريم الحلال أو التشريع بشرع لم يأذن به الله.

أو يثبت صفة لله أو اسمًا من أسمائه لمخلوق علىٰ وجه الإطلاق كأن يدعي أنه يعلم كعلم الله أو له الحياة المطلقة أو غير ذلك مما يغلوا به كثير من طوائف الباطنية في أئمتهم وساداتهم وأوليائهم.

ومن ذلك: ادِّعاء النبوة، أو يدَّعِي أن نبيًا يجيء بعد النبي ﷺ، أو أن شريعةً من الشرائع السماوية يمكن العمل بها مع شريعة النبي ﷺ، أو أن شريعة محمد ﷺ خاصة بالعرب، فإن هذا ينافي الإقرار بكون الرسالة المحمدية خاتمة وعامَّة وناسِخة لجميع الشرائع قبلها، فذلك كفر بالإجماع.

ومثله من ادعىٰ أن عليًا رضي الله عنه نبي، أو غلَّط جبريل في الرسالة، فذلك من الكفر الذي لا ريب فيه.

٦- الثناء والتزكية لمن لعنه الله وغضب عليه من أئمة الكفر أو تبرئتهم مما جاء في القرآن والسنة وصفهم به، كإبليس أو الشياطين أو أبي جهل وفرعون والنمرود، الذين عُلِمَ من القرآن والسنة كفرهم.

- ٨ -

نواقض الإيمان العملية

ثالثًا: نواقض الإيمان العملية:

١- وهو أعظمها: الشرك في عبادة الله، وهو الشرك الأكبر المخرج من الملة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وهذا النوع يدخل في الاعتقاد، وفي القول، وفي العمل.

ويجدر التنبيه إلىٰ أن بعض أهل العلم وإن أطلق علىٰ الكفر الأصغر والشرك الأصغر: الكفر العملي والشرك العملي، فليس مقصوده ومُراده أن كل كفر عملي فهو من الأصغر دون الأكبر، وإنما مراده أن الكفر الأصغر كفر عملي في جميع صوره، بينما الكفر الأكبر منه مايكون اعتقاديًا ومنه مايكون عمليًا، ولهذا قال ابن القيم: إن الكفر نوعان: كفر عمل وكفر جحود وعناد، فكفر الجحود أن يكفر بما علم أن الرسول ﷺ جاء به، قال: وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه، وأما كفر العمل فينقسم إلىٰ ما يضاد الإيمان وإلىٰ ما لا يضاده، فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف، وقتل النبيِّ وسَبِّهِ يُضَادُّ الإيمان اهـ[1]. ولاشك أن الأعمال التي تناقض الإيمان وإن

---

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (٢٦) ط. دار الحديث.

كانت واقعة بعمل الجوارح إلا أنها لا تقع إلا من قلب فسد أصل اعتقاده، فهي من جهة نواقض عملية لكنها تدل علىٰ وجود نواقض قلبية اعتقادية، لما سبق أن بينا من علاقة الظاهر بالباطن.

والأعمال التي في الأصل لا تقع إلا علىٰ وجه التعظيم والتذلل إذا قصد بها غير الله كان ذلك من الشرك الأكبر، مثل: السجود والركوع للصنم أو للشمس أو للقمر أو للكواكب ومعلوم أنه لا يقع علىٰ وجه التحية وإنما علىٰ وجه التعظيم، بخلاف السجود للآدمي لكونه يحتمل التحية، كما لو سجد لأب أو نحوه، ويحتمل التعظيم، فحمله علىٰ أحدها يحتاج إلىٰ الرجوع إلىٰ القرائن الدّالة علىٰ التعظيم والتذلل.

والسجود لغير الله محرم كله في شريعة محمد ﷺ ولو كان سجود تحية.

ومن ذلك: الطواف حول القبور والمشاهد والبكاء عندها فإنه لا يقع إلا عن تعظيم وتذللٍ وخشية، فهذا عبادة، فمن وقع في مثل هذه الأعمال فقد وقع فيما يناقض الإيمان، وولج باب الشرك الأكبر، لكونه صرف عبادة لغير الله تعالىٰ.

ومن الأمثلة علىٰ ذلك: أن يأتي بالذبيحة ويذبحها أمام الصنم أو الحجر أو الكوكب أو النهر أو القبر أو الميت قاصدًا إياه، بأن يكون عالمًا به متوجهًا إليه علىٰ وجه التقرب، فإن هذا من الشرك الأكبر؛ لأن العقلاء لا يفعلون ذلك إلا علىٰ وجه التعظيم والتذلل، واعتقاد قدرة هذا المذبوح له علىٰ جلب نفع أو دفع ضر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٧٣].

ثم إنه من المعلوم أن هذه الأعمال كالسجود والركوع والطواف والذبح إذا فعلها المسلم لله تعالىٰ فإنما يفعلها علىٰ وجه التعبد -أي كمال المحبة والتعظيم والرغبة والرهبة-، فكذا إذا قصد بها غير الله لا يراد بها إلا التعبد، إلا أن يكون الفاعل غير عاقل فيسقط عنه التكليف أصلًا.

وهناك أعمال ليس الأصل فيها التعبد والتذلل فيُنظر للقرائن، كحلق الرؤوس ووضعها والانحناء للرؤساء والأسياد وغيرهم.

٢- قتل نبي من الأنبياء أو الإعانة علىٰ قتله، حكي الإجماع عليه.

٣- الاستهانة بالمصحف، بأن يستخف به أويحتقره، كأن يضعه تحت قدميه أو يلقيه في القاذورات والنَّتَن، أو يكتب آيات منه بالقاذورات والنجاسات، أو يزيد فيه، أو ينقص منه، وهذا كله داخل فيما سبق من اتخاذ آيات الله هزوًا.

وأما إن عمل به عملًا يحتمل الإهانة وغيرها، كمن ألقاه وطرحه أو مدَّ إليه قدميه فهذا يحتاج فيه إلىٰ الرجوع إلىٰ نية الفاعل.

٤- الحكم بغير ما أنزل الله، وذلك في صورة تبديل شرع الله بحكم آخر، فإن ذلك هو حكم الطاغوت، وحكم الجاهلية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]، وقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

والحكم بغير ما أنزل الله له حالتان:

الأولىٰ: أن يقع علىٰ وجه التغيير والتبديل لشرع الله والتحليل للحرام والتحريم للحلال، كمن يسُنُّ القوانين التي تضاهي شرع الله وتخالفه وتعارضه ويقيد الناس بها، ويجعلها دستورًا يرجع إليه، ويأتي بشرع لم يأذن به الله، فهذا كفر أكبر بالإجماع، قال تعالىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ﴾.

ولما وقع التبديل في أهل الكتاب، في تبديلهم حكم الزاني المحصن -وهو الرجم- أنزل الله فيهم آيات سورة المائدة، ففي صحيح مسلم عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قَالَ: مُرَّ عَلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجلُودًا، فَدَعَاهُم ﷺ فَقَالَ: «**هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُم؟**» قَالُوا: نَعَم. فَدَعَا رَجُلًا مِن عُلَمَائِهِم فَقَالَ: «**أَنشُدُكَ بِاللَّهِ الَّذِي أَنزَلَ التَّورَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ؛ أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُم؟**» قَالَ: لا، وَلَولا أَنَّكَ نَشَدتَنِي بِهَذَا لَم أُخبِرك، نَجِدُهُ الرَّجمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذنَا الشَّرِيفَ تَرَكنَاهُ، وَإِذَا أَخَذنَا الضَّعِيفَ أَقَمنَا عَلَيهِ الحَدَّ، قُلنَا: تَعَالَوا فَلنَجتَمِع عَلَىٰ شَيءٍ نُقِيمُهُ عَلَىٰ الشَّرِيفِ وَالوَضِيعِ، فَجَعَلنَا التَّحمِيمَ وَالجَلدَ مَكَانَ الرَّجمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَن أَحيَا أَمرَكَ إِذ أَمَاتُوهُ**». فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ إِلَىٰ قَولِهِ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾، يَقُولُ: ائتُوا مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَإِن أَمَرَكُم بِالتَّحمِيمِ وَالجَلدِ فَخُذُوهُ، وَإِن أَفتَاكُم بِالرَّجمِ فَاحذَرُوا، فَأَنزَلَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمْ

يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ فِي الكُفَّارِ كُلِّهَا.

وعلىٰ القضاة والعلماء ومن في حكمهم مسؤولية عظيمة تجاه هذه القضية؛ فإنهم ملزمون بتحكيم شرع الله، يقول ابن تيمية: ومتىٰ ترك العالم ماعلمه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدًا كافرًا يستحق العقوبة في الدنيا والآخرة، قال: بل عليه أن يصبر وإن أوذي في الله فهذه سنة الله في الأنبياء وأتباعهم اهـ[(١)].

الحالة الثانية: أن لا يقع تبديل ولا تشريع يناهض الشريعة الإسلامية، وإنما يحكم القاضي بهواه والوالي بما اشتهاه في واقعة أو مسألة أو مسائل، فيعرض فيها عن الحق إلىٰ الباطل ويحكم به مع إقراره بأن هذا ليس من الشرع الواجب اتباعه، وإنما يعلم خطأه في نفسه، وميله وانحرافه عن الحق، فهذا من جملة المعاصي التي هي دون الكفر الأكبر.

هذا هو الصحيح الذي قرره ابن تيمية وابن القيم وغيرهما[(٢)]، ولهذا حكىٰ ابن كثير[(٣)] الإجماع علىٰ كفر من حكَّم شرعًا غير شرع

---

(١) «مجموع الفتاوي» (٣٥/ ٣٧٢-٣٧٣).

(٢) ينظر: «الإيمان» لابن تيمية (٦٧)، و«مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ٣٤٦) ط. دار الكتاب العربي، وينظر كلام الشيخ محمد ابن عثيمين في رسالة «فتنة التكفير»: (٦٢-٦٣-٦٤).

(٣) ينظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٧/ ١٦٢-١٦٣) ط. دار هجر. و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٧).

الله وحكم بغير ما أنزل الله لما أدخَلَ التتارُ كتاب «الياسق» المعروف، وأرادوا أن يجعلوه مكان الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وأما تفسير ابن عباس رضي الله عنه لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ قال: كفر دون كفر. وقال: هو به كفر، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله اهـ[1]. فإنه يحمل علىٰ الحالة الثانية، أما صورة التبديل فهي نازلة لم تكن في زمنهم، يدل علىٰ ذلك ماروواه ابن جرير (٤/ ٥٨١) عن مسروق قال: سألت ابن مسعود عن السُّحت؛ أهو الرِّشَىٰ في الحكم؟ فقال: لا، من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر. فحمل الآية علىٰ الرِّشىٰ في الحكم، والرشىٰ في الحكم هو من الحالة الثانية لا من التبديل.

٤- موالاة الكفار وذلك بمظاهرتهم ومعاونتهم ونصرتهم وتأييدهم والوقوف معهم.

قال الشيخ حمد بن عتيق: فأما معاداة الكفار والمشركين فاعلم أن الله سبحانه وتعالى أوجب ذلك وأكد إيجابه، وحرَّم موالاتهم وشدَّد فيها حتىٰ إنه ليس في كتاب الله تعالىٰ حكم فيه من الأدلة أكثرُ ولا أَبيَنُ من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضدِّه اهـ[2].

الموالاة: من وَالَىٰ الشيءَ إذا تابَعَه؛ ووَلِي الشيء إذا دَنَىٰ وقَرُبَ منه، وهي ضِدُّ المعاداة، والوليُّ الصديق والنَّصير، قال ابن الأعرابي: الوَلِيُّ التابع المحب اهـ[3].

---

(١) ينظر: «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣٩) ط. مكتبة العلم.

(٢) ينظر: «نواقض الإيمان» د. العبد اللطيف: (٣٥٩).

(٣) ينظر: «لسان العرب» (١٥/ ٤١١)، مادة: ولي، و«مختار الصحاح» للرازي (٧٣٦). ط. مؤسسة علوم القرآن.

ومن الأدلة علىٰ ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨٠] فجعل الولاء والبراء شرطًا للإيمان. وقال تعالىٰ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وغيرها من الآيات في هذا الباب.

وقد فصَّل أهل العلم في الموالاة، وأن لها صورًا:

الأولىٰ: إذا كانت موالاة الكافر لأجل دينه فهذا كفر مخرج من الملة بالإجماع، كما مضىٰ في النواقض الاعتقادية، وهذا محله القلب.

الثانية: أن تكون موالاة الكفار بالنصرة والتأييد، والإعانة، والمظاهرة لهم، كالذَّبِّ عنهم وإعانتهم بالمال والرأي والبدن، وهو التولي عند طائفة من أهل العلم فهذا أيضًا كفر كما سيأتي.

الثالثة: ما دون ذلك، فلا يجزم بكفره، ولكنه علىٰ خطر عظيم، وهي مراتب في التأثيم والعصيان.

وهل التَّوَلِّي كالموالاة؟ فقيل: التولي كالموالاة. وقيل: إن التولي أخصُّ من الموالاة، وأنه بمعنىٰ النصرة والتأييد(١).

---

(١) ينظر هذه الأقوال في «الولاء والبراء» لمحماس الجلعود (١/ ٣٢-٣٣-٣٤). ونسب القول الثاني إلىٰ ابن العربي والقرطبي، والشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن وسليمان ابن عبد الله بن عبد الوهاب، وحمد بن علي بن عتيق، ينظر: «أحكام =

وفي لسان العرب[1]: والتَّوَلِّي يكون بمعنىٰ الإِعراضِ ويكون بمعنىٰ الاتِّباع. وفيه أيضا: في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾، أي تنصروهم، قال أَبومنصور: جعل التولي ههنا بمعنىٰ النَّصر من الوَلِيّ والمَولىٰ وهو الناصر. وفيه: تَوَلَّىٰ الشَّيءَ: لَزِمه اهـ والتولي كالموالاة في أصل المعنىٰ، وقد فُسِّر التولِّي بها، ولكنه لا يعني اتحادهما في المعنىٰ، إذ هو من باب تفسير الشيء ببعض معناه أو بأصل معناه، إذ في التولي معنىٰ زائد علىٰ: وَلِي، والزيادة في المبنىٰ تدلُّ علىٰ الزيادة في المعنىٰ، والمعنىٰ الزائد هنا هو أن التولي موالاة وزيادة، وهذه الزيادة تجعل للتولي مدلولًا أخصَّ من مدلول الموالاة، ففي التولي لزوم ونصرة ومظاهرة وإعانة تقوي شوكتهم، وتظهر دينهم، وذلك من التمكين لهم ولدينهم.

ومن هنا ذكر طائفة من أهل العلم أن التولي أخص في المعنىٰ وأخص في الحكم، وأنه كفر أكبر يخرج من الملة، وحكىٰ بعضهم الإجماع عليه[2]، ويدل علىٰ ذلك ظاهر القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

= القرآن» لابن العربي، (٤/ ١٧٧٠)، و«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨/ ٥٣) (٦/ ٢١٧)، و«مجموعة التوحيد» (١٢٦-٢٥٧-٢٦٠).

(١) «لسان العرب» (١٥/ ٤٠٨-٤١٥).

(٢) ينظر: «نواقض الإيمان» د. العبد اللطيف: (٣٩٠-٣٩١).

قال ابن حزم في المحلىٰ: صحَّ أن قوله ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ إنما هو علىٰ ظاهره، بأنه كافر من جملة الكفار فقط، وهذا حقٌّ لا يختلف فيه اثنان من المسلمين اهـ[(١)].

وقد قال كثير من المفسرين كالطبري والقرطبي وغيرهم في معنىٰ الآية: أي حكمه حكمهم[(٢)].

وقال ابن حزم: فصح بهذا أن من لحق بدار الكفر والحرب مختارًا محاربًا لمن يليه من المسلمين فهو بهذا الفعل مرتدٌّ، له أحكام المرتد كلها، من وجوب القتل عليه متىٰ قُدِرَ عليه، ومن إباحة ماله وانفساخ نكاحه اهـ[(٣)]. ومعلوم في هذا فتوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية[(٤)] فيمن قفز عن عصابة المؤمنين التي بالشام ومصر إلىٰ التتار أنه في حكم المرتد، وأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي، فيقتل بكل حال وإن كان عاجزًا عن القتال.

وهذه الصورة التي ذكرها ابن حزم وابن تيمية في فتواه هي من صور التولي، ولا أظن أن أحدًا يخالف فيها، وللتولي صور أخرىٰ من المظاهرة والإعانة دون ذلك، كمسألة الجاسوس المسلم وقد وقع فيها خلاف.

---

(١) «المحلىٰ»: (١١/١٣٨) ط. مكتبة دار التراث.

(٢) ينظر: «تفسير ابن جرير» (٤/٦١٧). و«الجامع» للقرطبي (٦/٢١٧).

(٣) «المحلىٰ» (١١/١٩٩-٢٠٠).

(٤) ينظر: «مجموع الفتاوي» (٢٨/ ٥٣٠-٥٣٨).

وذهب جماعة من أهل العلم إلىٰ تفسير التولي بالموالاة، وأنها مثلها في الحكم والمعنىٰ، وهذا الاتجاه قوي أيضًا.

ولا مشاحة في الاصطلاح؛ لأنه إن كان التولي كالموالاة فإنهما إن كانا بالنصرة والتأييد والعون والمظاهرة فهي موالاة تامة وتولي تام يوجب الردة؛ لأنه بفعله هذا مؤيد وناصر للكافرين، ومظهر لدينهم ولأمرهم، ونصرة الكافرين علىٰ المسلمين كفر، إذ في نصرتهم نصرة لدينهم، وتقوية لشوكتهم، وخاصة إذا كان في نصرتهم إضعاف للمسلمين، ودم المسلم عند الله عظيم؛ وفي إضعاف المسلمين إضعاف لدينهم.

وذهبت طائفة إلىٰ الاعتراض علىٰ هذا المعنىٰ بحديث حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وفيه أنه كتب إلىٰ قريش في مكة يخبرهم بنبأ قدوم النبي ﷺ لفتح مكة، فلما دعاه النبي ﷺ وقال حاطب رضي الله عنه ما قال من الاعتذار تركه النبي ﷺ، وعذره لأنه شهد بدرًا، وقال لعمر رضي الله عنه: «**وما يدريك؛ لعلَّ الله اطلع علىٰ أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**». متفق عليه.

واعترضوا علىٰ الإجماع بوجود الخلاف في حكم الجاسوس وقتله وإقامة الحدِّ عليه، مع العلم أنه يعين أهل الكفر بجسِّه علىٰ أهل الإسلام.

وأُجيب عن ذلك: بأن خبر حاطب رضي الله عنه خاص به؛ لما ذكره النبي ﷺ عن أهل بدر بعد أن استأذنه عمر في قتله، فجعلها خاصية لهم، ولم يقل له النبي ﷺ إنه لا يجوز قتله، ولم ينكر علىٰ عمر؛

ولكنه اعتذر عن حاطب بأمر خاص، وهو شهوده بدرًا وسبقه إلىٰ الإسلام، وذلك لا يحصل لغيره، أو أن حاطبًا كان متأولًا لأنه قال: أما إني لم أفعله غشًّا لرسول اللهﷺ ولا نفاقًا، قد علمت أن الله مظهِرٌ رسولَه ومتمٌّ له أمره. رواه أحمد (٣/ ٣٥٠)، أولكونه اعتذر عما فعله، وعَذَرَهُ النبيُّ ﷺ وقَبِلَ ذلك منه لَمَّا علم صدقه، وسلامة قصده.

وحكاية الخلاف في الجاسوس غايته منع الإجماع، لا منع جميع الأدلة، وأدلة القرآن ظاهرة علىٰ كفر من ناصر وتولىٰ، فربما كانت مسألة الجاسوس لا تصل إلىٰ معنىٰ التولي عند من لم ير قتله أو ردَّته، أو ربما استثناه لخبر حاطب السابق.

وهاهنا تنبيهان:

أحدهما: لابد من التفريق في هذا الموضع بين مسألتين: مسألة التولي والنصرة والمظاهرة للكافر؛ وبين مسألة الاستعانة بالكافر في قتال كافر آخر، أوفي قتال بغاة المسلمين، فمنهم من أجازه بشرطين: أن يوثق بهم، وأن تدعو الحاجة إلىٰ ذلك، ومال إليه ابن القيم، ومنهم من منعه مطلقًا، وأما الاستعانة بكافر في قتال باغٍ من المسلمين فالجمهور علىٰ المنع منه مطلقًا[(١)].

الثاني: لا بد من التفريق بين الموالاة وبين علاقةٍ دنيوية كصداقة

---

(١) ينظر: الولاء والبراء للقحطاني (٣٦٧-٣٦٨) ط. دار طيبة، و«نواقض الإيمان» للعبد اللطيف (٣٨٤).

قائمة على عملٍ أو شراكة أو قرابة، فهذه خاصة وسببها الدنيوي قائم، فقد كان سعد بن معاذ ﵁ صديقًا لأميَّة بن خلف وكان ينزل عنده بمكة رواه البخاري، لكنه لم يكن ليناصره، بل أجبره بقول النبي ﷺ فيه: «**إنا قاتلوك**» وكذا عبد الرحمن بن عوف ﵁، وقد حاول عبد الرحمن حماية أُميَّةَ من القتل في معركة بدر ولم يستطع، وذلك بعد انتهاء المعركة، وكان يرجوه أسيرًا لا قتيلًا رواه البخاري في كتاب الوكالة من صحيحه، وفي الصحيح أن عمر ﵁ أهدى حُلَّةً سِيرَاءَ، لأخٍ له مشركٍ بمكة.

٥- التقليد والتشبه بالكافرين، فيما هو من دينهم ومعتقداتهم وشعائرهم الظاهرة، إما تشبهًا مطلقًا، أوأن يتشبه بهم فيما يوجب الكفر والخروج من الملة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، قال الضحاك وأكثر المفسرين: يعني الشرك. وقال مجاهد: يعني أعياد المشركين. وقيل غير ذلك[١]. ولما فيه من إظهار لشعائرهم والرضا بكفرهم واستحسان لعقائدهم، قال ابن تيمية: فإن الموافقة في جميع العيد موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر، بل الأعياد هي أخص ما تتميز به الشرائع اهـ[٢].

ويدل علىٰ ذلك أيضا: ما أخرجه البيهقي **(٩/ ٢٣٤)** عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: من بنىٰ ببلاد الأعاجم، فصنع

(١) ينظر: تفسير البغوي (٩٣٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٧١).

نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتىٰ يموت وهو كذلك، حشر معهم يوم القيامة اهـ وذكر ابن تيمية أن كلامه هذا يقتضي أنه جعله كافرًا بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور، وأن هذا هو ظاهر لفظه[1].

وقال القاضي عياض: وكذلك نكفِّر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر، وإن كان صاحبه مُصَرِّحًا بالإسلام مع فعله ذلك، كالسعي إلىٰ الكنائس والبيع مع أهلها بزيِّهم، من شدِّ الزنانير وفحص الرؤوس، فقد أجمع المسلمون أن هذا الفعل لايوجد إلا من كافر اهـ[2].

والتشبه بالكفار وتقليدهم له صور أخرىٰ دون الكفر، تختلف أحكامها، منها:

أ- أن يتشبه بهم فيما هو من خصائصهم، ولم يكن من شعائرهم وعقائدهم وعباداتهم، فهذا من جملة المعاصي التي تتفاوت بحسب نية صاحبها، وهذا التشبه محرم وإن لم يقصد صاحبه التشبه بهم، لقوله ﷺ: «**ومن تشبه بقوم فهو منهم**». رواه أحمد (٢/ ٥٠) وأبو داود (٤٠٣١) عن ابن عمر، والوعيد عليه يدل علىٰ أنه من كبائر الذنوب، والموافقة الظاهرة تقود إلىٰ الموافقة الباطنة كما قرره ابن تيمية[3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٥٩).

(٢) ينظر: «نواقض الإيمان» للعبد اللطيف (٣٧١-٣٧٢).

(٣) ينظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٧٩-٨٠). تحقيق د. العقل.

ب- وإن كان تقليدهم في أمرٍ ليس من خصائصهم:

فإن كان فيه مصلحة ونفع ولم يخالف شرع الله فلا بأس به.

وإن خالف شرع الله حرم الأخذ به وامتنع.

وإن لم يخالف شرع الله وليس فيه مصلحة ونفع فالأولىٰ عدم الأخذ به وقد يمتنع حتىٰ لا تظهر الأمة الإسلامية بمظهر التبعية لغير المسلمين وذلك من مقاصد الشرع الحكيم.

فإن كان المسلم بدار كفر وكان مقيمًا في بلادهم لضرورة، فإنه لا يلزم بمخالفتهم في الزِّيِّ الظاهر إذا كان لا يخالف الشرع، لما قد يلحقه في ذلك من ضرر، بل قد تستحب موافقتهم في ذلك لأنه قد يكون فيه مصلحة تتعلق بدعوتهم إلىٰ الإسلام أو دفع ضررهم[(١)]، قال ابن تيمية: ثم متىٰ كان المقصود بيان أن مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح لنا، فجميع الآيات دالة علىٰ ذلك، وإن كان المقصود أن مخالفتهم واجبة علينا فهذا إنما يدل عليه بعض الآيات دون بعض اهـ[(٢)].

٦- الإعراض التام عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، والمقصود بالإعراض التام: الإعراض عن تعلم أصل الدين، كالشهادتين، وأركان الإيمان، وما لا يثبت الإسلام إلا به.

(١) ينظر: «نواقض الإيمان» للدكتور عبد العزيز عبد اللطيف (٣٧٠) ونقله عن ابن تيمية.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٨٩).

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾ [طه: ١٢٤]، وفرق بين الإعراض والجهل، فالإعراض تولِّي وصدود، والجاهل قد يعذر إذا لم يبلغه العلم دون تفريط منه، فإن الله لايعذب ولا يؤاخذ إلا بعد بلوغ الشرائع.

قال تعالىٰ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٧] فمن تولىٰ وأعرض عن طاعة الله ورسوله إعراضًا تامًّا، وصدَّ عن قبول الشريعة، وامتنع من ذلك كمن لم يؤد واجبًا ولا عمل بطاعة، لا صلاة ولا زكاة ولا صيام فهذا هو المقصود هنا، وأما من أعرض عن فعل بعض الواجبات أو ترك بعض المحرمات، فهذه معاصي لا تخرجه من الملَّة.

٧- السِّحر، وهل يكفر الساحر؟ يحتاج الجواب عليه إلىٰ معرفة حقيقة السحر، وقد وقع في ذلك اختلافٌ، لأجله وقع الخلاف في كفر الساحر.

قال ابن قدامة: إن تعلم السحر وتعليمه حرام لانعلم فيه خلافا بين أهل العلم، قال أصحابنا: ويكفر الساحر بتعلمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته، وروي عن أحمد مايدل علىٰ أنه لايكفر اهـ(١).

وذكر ابن هبيرة القول بكفره عن أبي حنيفة ومالك وأحمد(٢).

---

(١) «المغني»: (١٢/ ٣٠٠) ط. دار هجر.

(٢) «الإفصاح» لابن هبيرة (٢/ ٢٢٦) ط. المؤسسة السعيدية.

لأن السحر المعروف عند كثير من الأمم، والذي سطرته كتبهم، وعُلِم من أحوالهم، هو الذي لا يَتَأَتَّىٰ إلا باستعمال الشياطين، والتقرب لها وللكواكب ومردة الجن، والقيام بأعمال شركية وكفرية، كتدنيس المصاحف وإهانتها، وإتيان النجاسات والموبقات، مما تأمر به الشياطين تقربًا لها، فهذا كفر أكبر.

وهو السحر المذكور في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ﴾ [البقرة: ١٠٢] فوصفه الله ﷻ بالكفر؛ تعلمًا وتعليمًا.

فإن قامت قرينة ظاهرة علىٰ أن عمل الشخص ليس هذا سبيله، كمن يستعين بخواصِّ الأشياء، أو يتظاهر بما يخفىٰ علىٰ بعض الناس، فهذا من الأمور التي لا تخفىٰ علىٰ الفطن في الغالب، لذا فإطلاق السحر عليه هو من باب المجاز أو المعنىٰ اللغوي.

أما السحر المعلوم بخفائه لدىٰ جميع الناس، المستتر عن العين بسبب الجان والشياطين فهذا الذي يطلق عليه سحر في الحقيقة، ويصدق عليه مسمىٰ السحر، وهو الذي يترتب عليه كفر صاحبه، وهو الذي وردت به النصوص، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾، وهذا النفي يعم جميع أنواع الفلاح، وذلك دليل كفره، لأن الفلاح لا ينفىٰ بالكلية نفيا عامًا إلا عمن لا خير فيه وهو الكافر، وباستقراء

القرآن فإن الغالب فيه أن لفظة (لايفلح) يراد بها الكافر، قرره الشنقيطي[(١)].

وأما الشافعي فلم ير كفره حتىٰ يستفصل منه، قال: فيقال للساحر: صِف السحر الذي تسحر به، فإن كان ما يسحر به كلامًا كفرًا صريحًا، استتيب منه، فإن تاب وإلا قُتل، وأُخِذ ماله فيئًا، وإن كان ما يسحر به كلامًا لا يكون كفرًا، وكان غير معروف ولم يضرّ به أحدٌ نُهي عنه، فإن عاد عُزِّر، وإن كان يعمل عملًا إذا عمله قَتَلَ المعمول به، وقال علمت قتله، قُتل به قودًا اهـ[(٢)].

والأقرب أن يقال: ليس كل من قيل عنه ساحر فهو ساحر حتىٰ يُنظر في عمله، فإن كان سحره له حقيقة ويضرُّ به فهو السحر المعروف عن السحرة ويكفر بذلك، وهذا قول الجمهور، علىٰ أن قول الشافعي قريب من قول الجمهور حتىٰ قيل إنهما متوافقان، لأن السحر الذي له حقيقة لايصدر إلا ممن وقع منه الكفر قولًا أو عملًا.

والآيات ظاهرة في كفره إذا فعله أو عَلَّمَهُ.

وأما تعلمه[(٣)] فقد ذهب الجمهور إلىٰ تحريم تعلم السحر، وقالوا بكفره مطلقًا، ونص المالكية علىٰ كفره ولو لم يعمل به، ونقلوه عن مالك، وسبق النقل عن ابن قدامة أنه لا يعلم في تحريمه خلافًا.

وحكىٰ ابن حجر[(٤)] عن بعض العلماء جواز تعلم السحر

---

(١) ينظر: «أضواء البيان» (٤/ ٤٧٩) ط. ابن تيمية.

(٢) «الأم» (١/ ٢٩٣) ط. دار الفكر.

(٣) ينظر: «السحر حقيقة أم خيال» د. أحمد الحمد (١٥١).

(٤) ينظر: «فتح الباري» (١٠/ ٢٧٥) «كتاب الطب» باب: (٤٧).

لأمرين: لأجل أن يميز ما فيه كفر، ولأن مجرد معرفة الشيء لا تستلزم منعًا، كمن يعرف كيفية عبادة الأوثان وهو لايعبدها. وقال ابن هبيرة: إلا أن من أصحاب أبي حنيفة من فصَّل في ذلك، فقال: إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلايكفر، وإن تعلمه معتقدًا لجوازه أو معتقدًا أنه ينفعه فإنه يكفر اهـ[1].

والأقرب أن الكفر لايحصل بتعلمه إلا إذا كان يترتب على ذلك العمل به وممارسته، وهذا قول قوي، فإن من الناس من قد يشاهد كيفية عمل السحر في القنوات الفضائية أو مواقع شبكة النت أو يقرأ كتبه لينظر في كيفية عمل السحرة، فهذا يختلف عمن يتعلمه بالممارسة والتطبيق، فهذا قد وقع في ملابسات السحر وانجر إلىٰ مستنقعه العفن، ومع ذلك فعلىٰ المسلم الحذر والاحتياط لدينه.

والكلام هنا يتعلق بمسألة كفر الساحر، وأما قتله فسيأتي الكلام عليه لاحقًا في بابه من فروع النواقض، فإن من أهل العلم من قال: يقتل سواء كان سحره تخييلا أو حقيقة.

٨- ترك الصلاة، والمقصود: من تركها تهاونًا وكسلًا، ولو لم يجحدها، والراجح في ذلك أن تارك الصلاة مطلقًا يكفر كفرًا أكبر، فإن محمد بن نصر المروزي قد حكىٰ[2] إجماع الصحابة علىٰ كفر تارك الصلاة في كتابه الموسوم بـ «تعظيم قدر الصلاة»، وكذا حكىٰ نحوه إسحاق بن راهوية[3]، ونقل المروزي وغيره في ذلك آثارًا كثيرة

---

(١) «الإفصاح» (٢/٢٢٦) ط. المؤسسة السعيدية.

(٢) «تعظيم قدر الصلاة» (٦٠٥) ط. مكتبة العلم.

(٣) ينظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٤/٢٢٦).

عن الصحابة تدل علىٰ ما ذهب إليه من الإجماع، ومن ذلك ما قاله التابعي الجليل عبد الله بن شقيق العُقَيلي قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. خرجه الترمذي (٢٦٢٢) وصححه النووي وغيره، وخرج الحاكم (١/ ٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة. قال الذهبي: إسناده صالح. وقال عمر رضي الله عنه: لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة. خرجه مالك في الموطأ (٨١)، وذلك بمحضر من الصحابة.

وأدلة الكتاب والسنة ظاهرة في كفر تارك الصلاة، من ذلك قوله تعالىٰ عن المجرمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، أي: تركوها. كما فسره ابن جرير وغيره، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١].

وقال ﷺ: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**». أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وذكر ابن تيمية(١) أن مجيء الكفر في الحديث مُعَرَّفًا بالألف واللام دَالٌّ علىٰ أن المراد به حقيقة الكفر، وأنه فرق بين الكفر المعرف باللام وبين كفر مُنَكَّرٌ في الإثبات، كما أن فيه عطف الشرك علىٰ الكفر لتأكيد حقيقة الكفر.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٠٨) تحقيق الدكتور العقل.

وقال ﷺ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**». خرجه أحمد (٣٤٦/٥) والترمذي (٢٦٢١) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه، وحديث الأئمة؛ وفيه قيل: يا رسول الله؛ أفلا ننابذهم بالسيف؟ قال: «**لا ما أقاموا فيكم الصلاة**». أخرجه مسلم في صحيحه، هذا مع ما رواه عبادة رضي الله عنه مرفوعًا؛ وفيه: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**». فدلَّ ذلك علىٰ أن فعل الصلاة مانع، وتركها غير مانع، فيحمل تركها علىٰ أنه من الكفر البواح.

واحتج من منع من التكفير بحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خمس صلوات افترضهن الله، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن وأتمَّ ركوعهن وخشوعهن كان له علىٰ الله عهد أن يغفر له، ومن لم يفعل فليس له علىٰ الله عهد؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذبه**». أخرجه أحمد (٣١٧/٥-٣٢٢)، وفي رواية: «**فمن حافظ عليهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يحافظ عليهن . . .**» الحديث.

والاستدلال بالحديث فيه ضعف؛ إذ ليس المراد منه المقارنة بين الفاعل والتارك، وإنما الذي يؤخذ من الحديث عند جمع الروايات هو المقارنة بين المفرِّط والمحسن، فمن فرط في محافظة أو خشوع أو تأخير ونحو ذلك فهو تحت المشيئة، وأما التارك لها المضيّع لها مطلقًا فهو المراد هنا.

وهنا صورة هي خارج محل النزاع، وهي: ما إذا قيل لتارك الصلاة: صلِّ، وعرض عليه السيف فامتنع فهذا كافر بالاتفاق حكاه ابن تيمية[1].

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤٨/٢٢).

- ٩ -

التكفير العيني والوصفي

بعد ذكر هذه النواقض لابد من ذكر بعض التنبيهات، وفيها فوائد وقواعد مهمة:

أولًا: يجب التفريق بين التكفير الوصفي الذي يقال فيه: هذا الفعل كفر، **وبين التكفير العيني**، الذي يقال فيه: هذا الفاعل المعيَّن كافر، فما كلُّ من فعل مكفِّرًا كَفَرَ، فثمة شروط ذكرها أهل العلم لابد من توفرها في تكفير المعين هي:

١- ثبوت الدليل علىٰ كون العمل كفرًا.

٢- وقوع القول أو العمل من المكلف.

٣- انتفاء الإكراه عن المكلف.

٤- انتفاء التأويل السائغ عن المكلف.

٥- انتفاء الجهالة عن المكلف، وذلك بإقامة الحجة عليه.

والعذر بالإكراه والتأويل والجهالة تتفاوت فيها الأحكام والأحوال.

وقد تَحدُثُ عند المُنكِر شبهةٌ أو تأويل، فلا يكفَّر حتىٰ يُنظَرَ في شبهته، ولهذا لم يكفر السلف من كان من المعتزلة في زمنهم، مع أنهم يقولون بخلق القرآن، لأجل ما عندهم من الشبه، وكَفَّروا القدرية الغلاة الذين نفوا علم الله تعالىٰ، وكفَّروا الجهمية الغلاة والباطنية

والفلاسفة الغلاة الذين أنكروا الأسماء والصفات، وأنكروا أمورًا أخرىٰ هي من ضروريات الشرع كأحوال القيامة والمعاد، كفّروهم لأن ذلك محض تكذيب وإنكار بلا تأويل.

ومن شرط التأويل: أن يكون سائغًا، والتأويل هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلىٰ معنىٰ آخر، والسائغ: أن يكون له وجه ومحملٌ في لسان العرب، ولا يعارض أصل الدين وما علم منه بالضرورة، وضده غير السائغ.

ويشترط في المتأول أن يكون ممن يقبل منه التأوُّل كالمجتهد ونحوه، أو أن يكون مقلدًا لمجتهدٍ ويكون ممن يصح تقليده ويجوز، كما لوقلد من قال بعدم كفر الساحر أو عدم كفر تارك الصلاة، أو قلد من يرىٰ تأول صفات الله تعالىٰ أو نحو ذلك.

فمن قامت عنده شبهة إما لكونه عالمًا متأوِّلًا أو جاهلًا مقلدًا، فلا يكفر حتى تزول هذه الشبهة.

يَدلُّ علىٰ ذلك ما روىٰ عبد الرزاق عن معمر عن ابن شهاب عن عبد الله ابن عامر ابن ربيعة في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجلده قدامة بن مظعون رضي الله عنه لما شرب الخمر وقد تأول قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ﴾ الآية. قال: لو شربت كما تقول ما كان لكم أن تُحِدُّوني. فقال عمر: أخطأت التأويل، أنت إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرَّم الله. الإصابة (٥/ ٣٢٤) ولم يقتله عمر رضي الله عنه مع إنكاره تحريم الخمر، فَتَأوَّل ذلك علىٰ من هو في مثل حاله، ولذا اعترض علىٰ الحدِّ.

وفي الإكراه ذكر ابن تيمية أنه يتفاوت بحسب حال المكره عليه، ونقل ذلك عن أحمد؛ وأن الإمام أحمد نصَّ علىٰ أنه لا يعذر في الإكراه علىٰ الكفر إذا كان الإكراه كلامًا، ويعذر في ذلك إن تعرض لتعذيب بضرب أو قيد، بخلاف الإكراه في باب الهبة، حيث اعتبر خوف المرأة من طلاق زوجها وإهدائه بعض مهرها له من الإكراه، وأن لها أن ترجع عن ذلك[1].

والجهل عذر يُعذَر به الجاهل باتفاق المسلمين في ما هو من حقوق الله، فلا يأثم ولا يكفر، وما كان من حقوق الآدميين فيجب أن يردَّها لأصحابها، ولكن اختلفوا متىٰ يكون الجهل عذرًا، ومن يُعذر ومن لا يُعذر، والأقرب أنه يعذر بالجهل إذا كان غير مفرط ومثله لا يعرف هذا الحكم، بخلاف ما إذا كان ناشئًا عن تفريط مع قيام المقتضي للعلم.

ويدل علىٰ العذر بالجهل في مسائل الإيمان ما ورد في الصحيحين عن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**قَالَ رَجُلٌ لَم يَعمَل حَسَنَةً قَطُّ لأهلِهِ: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذرُوا نِصفَهُ فِي البَرِّ، وَنِصفَهُ فِي البَحرِ، فَوَاللَّهِ لَئِن قَدَرَ اللهُ عَلَيهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِن العَالَمِينَ. فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُم، فَأَمَرَ اللَّهُ البَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ البَحرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلتَ هَذَا؟ قَالَ: مِن خَشيَتِكَ يَا رَبِّ، وَأَنتَ أَعلَمُ. فَغَفَرَ اللهُ لَهُ**». فهذا أنكر قدرة الله وعذره الله في ذلك لجهله.

(١) ينظر: «مجموعة التوحيد» (٢٩٧).

وروىٰ ابن ماجه (٤٠٤٩) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَدرُسُ الإِسلاَمُ كَمَا يَدرُسُ وَشيُ الثَّوبِ، حَتَّىٰ لاَ يُدرَىٰ مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ، وَلَيُسرَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ** عز وجل **فِي لَيلَةٍ، فَلاَ يَبقَىٰ فِي الأَرضِ مِنهُ آيَةٌ، وَتَبقَىٰ طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ: الشَّيخُ الكَبِيرُ، وَالعَجُوزُ، يَقُولُونَ: أَدرَكنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ هَذِهِ الكَلِمَةِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَنَحنُ نَقُولُهَا**». فقال له صِلَةُ: ما تغني عنهم «لا إله إلاَّ اللهُ» وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأَعرَضَ عنه حذيفةُ، ثمَّ رَدَّهَا عليه ثلاثًا، كُلَّ ذلك يُعرِضُ عنه حذيفةُ، أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صلةُ! تُنجيهم من النار -ثلاثًا-.

ووقع من بعض الصحابة ممن كان حديث عهد بالإسلام من مسلمة الفتح من قال: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. كما في حديث أبي واقد الليثي، وعذرهم النبي ﷺ لما كانوا حديثي عهد بإسلام، وإلا فمن اعتقد فعل القربىٰ لغير الله فإنه يؤاخذ علىٰ هذا الاعتقاد.

والجهل نوعان:

١- جهل بالحكم: بأن لا يعرف أصل الحكم وهل هو حلال أم حرام، كمن يجهل أن تصديق الساحر والكاهن فيما يدعيه من علم الغيب أنه كفر، أو أن الاستهزاء كفر.

ولا يكون جاهلًا من علم بالتحريم وجهل العقوبة أو عِظَمَ الإثم، فإن الذين استهزأوا بأصحاب النبي ﷺ في غزوة تبوك يُعلم من حالهم أنهم لم يكونوا يعلمون أن ما فعلوه من الاستهزاء بالقرَّاء كان

كفرًا، وكانوا يظنونه دون ذلك، ولذلك جاءوا يعتذرون ويتعلقون بناقته ﷺ لعله يعذرهم، وكانوا يعلمون أن ذلك معصية لله ورسوله، ومع ذلك جرىٰ عليهم حكم الكفر بنص القرآن.

٢- جهل بالحال: وذلك بأن يعرف الحكم ويجهل الحال التي هو فيها، كمن يقوم بأعمال كفرية يأمره بها السحرة والكهنة والعرافون ونحوهم وفيها تقرب للشياطين، وهو يجهل ذلك، ومن يعلم أن الذبح لغير الله شرك ولكنه يجهل أن الذبح عند طلوع الشمس أو غروبها دون ذكر اسم الله، فيه تقرب للشياطين، وقد قال النبي ﷺ: «**فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار**». رواه مسلم، أو يأمرونه بأقوال كفرية أو طلاسم وهو لايعلم أنها كفر، فهذا من الجهل بالحال، وكمن يعلم أن الاستهزاء كفر، لكن يجهل أن هذا الكلام الذي قاله أو الفعل الذي فعله فيه استهزاء، إما لجهله باللغة أو بالعرف، فانتفىٰ عنده قصد القول أو الفعل المحرم، ووجود القصد شرط في الجزاء علىٰ الأحكام التي تتعلق بحق الله ﷻ.

ولا بد من قيام الحجة وانتفاء الشبهة علىٰ من يغلب عليه الجهل أوفيما يخفىٰ دليله، كمسائل القدر والإرجاء، فلايكفر حتىٰ تُقام عليه الحجة، وذلك من حيث ثبوت الدليل، ومن حيث دلالته، وقد يكون في دلالة الدليل علىٰ المسألة خفاء حتىٰ علىٰ بعض أهل الفقه والفهم، إما لكثرة الشُّبَهِ أو أن إثباته مما يتنازع فيه أو يتوقف فيه، فلا يكفر ولو أقيم عليه الدليل(١)، فالمسائل العلمية تتفاوت من حيث الظهور والخفاء.

---

(١) ينظر: «الاختيارات الجلية» لابن بسام -بهامش «نيل الآرب» - (٢/٥٠٦).

وأما إن كانت المسألة من المسائل الظاهرة التي يعلمها العامة والخاصة أنها من دين المسلمين، كالأمر بعبادة الله وحده لاشريك له، والنهي عن عبادة غيره من الأشجار والأحجار والكواكب وغيرها من المعبودات، ومثل معرفة وجوب الصلوات والصيام والزكاة وتحريم الفواحش والربا والميسر، فهذه المسائل التي تعلم بالضرورة من أنكرها فقد كفر، لأنها ليست مما يجهل من دين الإسلام، إلا أن يقع ذلك ممن هو في بلاد نائية عن المسلمين أو حديث عهد بإسلام، ومثله يجهل ذلك، فهذه المسائل الظاهرة، وكذلك مايرد من شبهٍ ظاهرة البطلان لمن عرف دين الإسلام وقرأ القران، لايعذر فيها أحدٌ بجهله، كما لم يعذر الله تعالىٰ المشركين وهم يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله زلفىٰ، ولم يعذر الله من اتخذ الأحبار والرهبان أربابا من دون الله، رغم أنهم يقولون: لم نعبدهم، وبَيَّنَ النبي ﷺ أن طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال عبادة لهم، ولم يعذر من قال: إن الله ثالث ثلاثة. لأن عيسىٰ عليه السلام روحه من الله، فظن أنها بعض منه، وغيرها من الدلائل في هذا الباب.

فالقاعدة في هذا الباب واضحة ولكن التطبيقات التي تتعلق بها يتفاوت فيها الناس تفاوتا كبيرا. ولذا يجب علىٰ المسلم أن يتوخىٰ الحذر من الزلل، لئلا يزل لسانه، فيرمي مسلمًا بالكفر، وليس أهلًا لذلك فتزل قدمه.

ثانيًا: أن من ثبت دخوله في الإسلام بيقين فلا يجوز إخراجه منه إلا بيقين، ولا يجوز التخرص وأخذ الناس بالظن، ولهذا إذا كان في التكفير بمسألةٍ ما خِلافٌ ظاهر، وليست من مسائل الإجماع، فيُتَحَرَّز

من تكفير المعين بها؛ لأن الفاعل لها والواقع فيها ربما ظَهَر له رجحان القول بعدم التكفير، فيكون هذا من العذر الذي يمتنع معه التكفير، لكن ذلك لا يمنع من التكفير بها وصفًا، والأصل هو أن يتحرز المسلم من تكفير المعين إذ لا حاجة تدعوه إلىٰ تكفير أعيان الناس، وليس هو مخاطب بذلك شرعا، وإنما يلجأ إليه في حالات محدودةٍ جدًا، ولم يكن تكفير الأعيان من هدي سلف الأمة ولا الصحابة الكرام، وإنما كانوا يذكرون ما يكفر به المكلف من الأقوال والأفعال والمعتقدات، إذ الغاية هو الكلام عما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب، لا الحديث عن الأشخاص والذوات وتكفيرهم أو تفسيقهم أو تبديعهم، ولذلك لم يكن النبي ﷺ حريصًا علىٰ تكفير المنافقين وإظهار ذلك، رغم علمه بحالهم وما يقولون وما يفعلون، والأقوال التي وردت عن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان في تكفير الأعيان قليلة جدًا، وما جاء من ذلك كان في نطاق ضيق كتحذير الأمة من رؤوس أهل البدع والضلالة الذين يدعون الناس إلىٰ بدعتهم ويجاهرون بأقوالهم التي تصادم النصوص صراحة، كقول الجعد بن درهم: ما كلم الله موسىٰ تكليما، ولا اتخذ الله إبراهيم خليلا. فبلغت بهم البدع حد الكفر، وطفح بهم الكيل، فكان تحذير الأمة من شرورهم ضرورة لابد منها، فإذا أظهر المبتدع بدعته المكفرة وجاهر بها أو قاتل الناس عليها ومن أجلها، فمثل ذلك يوجب علىٰ علماء الأمة وولاتها أن ينصفوا أهل الإسلام وسواد المسلمين من سوأته وبدعته المكفرة، وذلك بعرضه علىٰ القضاء ليقضي فيه أمره.

ثالثًا: لا يجوز حمل الناس علىٰ أقوال لم يقولوها، كمن يكفر بلازم القول، فهذا مَزلَقٌ خطر، ضيق العَطَن، كمن يقول: فلان يقول كذا، ويلزم منه كذا، وهذا اللازم كفر، فهو كافر، فهذا المسلك غير سليم، فإنه من المعلوم أن لازم القول لاينسب إلىٰ القائل، ولا يؤاخذ به حتىٰ يعتقده.

رابعًا: إذا صدر من الشخص كلام صريح وكلام محتمل وغير واضح، فإن من الواجب تجاه المسلم ومن إحسان الظن به حمل كلامه المحتمل علىٰ كلامه الصريح، كما يحمل المتشابه علىٰ المحكم، وأيضًا يؤخذ بكلامه المتأخر ويعتبر ناسخًا لكلامه المتقدم فيما إذا صدر منه قولان أحدهما متأخر والآخر متقدم.

خامسًا: الناس في باب التكفير بين إفراط وتفريط:

فقوم أفرطوا وغلو وبغو وكفروا الناس بأعيانهم، دون مراعاة للشروط المعتبرة في تكفير المعين، وأثبتوا الكفر لكل من قال أو عمل بما قيل عنه إنه كفر، بل وكفروا كل من لم يكفر من كفروه، وسلكوا سبيل الخوارج والوعيدية وتوسعوا في التكفير.

وقوم نفوا الكفر القولي والعملي مطلقًا، ففرّطوا وسلكوا سبيل أهل الإرجاء، وقالوا: لا يكفر إلا باستحلال القلب فقط أوبالتكذيب فقط، وقد سبق أن هذا من قول المرجئة الذين يقولون إن الإيمان هو تصديق القلب فقط، مع أن النصوص وردت باعتبار الكفر قولًا وعملًا، قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وقال: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم

مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: ٥١]. وقال: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾. فسماها كلمة الكفر، ووصفهم بالكفر، فإذا دل الدليل علىٰ أن هذا القول أو الفعل من النواقض فلا يلزم منه الاستحلال القلبي، لأن الاستحلال كفر بذاته، ولهذا يكفر باستحلال الحرام ولو لم يفعله، ويكفر بالتكذيب بالشرع ولو فعله[1].

ومن ذلك: من لا يُكفِّر بعمل الجوارح، ويقول: إن الإيمان لا يزول من أصله بسبب عمل الجوارح.

وأبعد من هذه الأقوال قول من لا يكفر بشيء مما سبق إلا أن يكون كفرًا بتوحيد الربوبية، فجعلوا الكفر في إنكار وجود الله أو نسبة الخلق والتدبير والملك إلىٰ غيره، وعندهم غاية التوحيد وأعظمه توحيد الربوبية؛ وفهمهم هذا للتوحيد هو من أعظم الغلط في فهم توحيد الرسل ودعوتهم، فيجعلون غاية الشرك في الربوبية فقط، وكل ذلك منهم بسبب عدم تدبرهم للنصوص وبعدهم عنها، وبطلان هذا القول واضح لمن تأمَّله، وقد تابع علىٰ ذلك طوائف من المتصوِّفة ممن يريدون صرف الناس إلىٰ تعظيم أسيادهم وأوليائهم والتقرب لهم، فوجدوا في توحيد المتكلمين مايوافق مآربهم ومقاصدهم.

سادسًا: قتال البغاة والخوارج والمحاربين ونحوهم لا يعني كفرهم، فمن قوتل علىٰ أمرٍ شرعي لا يدل ذلك علىٰ أنه كافر، ولا يُحتَاجُ إلىٰ تكفيرِهِ لكي يُشرَعَ قتالُهُ، فالقتل والقتال عقوبةٌ شرعية،

(١) راجع كلام الشيخ محمد ابن عثيمين في رسالة «فتنة التكفير»: (٢٨) ط. دار الوطن.

ولهذا قاتل الصحابة الخوارج ولم يكفروهم، وقاتلوا البغاة ولم يكفروهم[1].

- ١٠ -

اللعن العيني والوصفي

بعد ذكر الفرق بين التكفير العيني والتكفير الوصفي يكون من المناسب أيضًا الإشارة إلىٰ أن اللعن والتبديع والتضليل والتفسيق يتناوله هذا التفريق، ففرق بين وصف القول أو الفعل بأنه بدعة أو ضلالة أو فسق أو ملعون فاعله علىٰ وجه الإطلاق، كما ورد في الكتاب والسنة أو أجمع عليه علماء الأمة، وبين تعيين القائل أو الفاعل بأنه مبتدع أو ضال أو فاسق أو ملعون، ولا شك أن هذه الأحكام مزلة أقدام ومضلة أفهام، فيجب التثبت عند إطلاقها ووجه التحذير من ذلك كون هذا الإطلاق إن لم يوافق من يستحقه وإلا باء به صاحبه، وقد جاء النصُّ بذلك في الكفر ورمي الناس به، كما جاء في الصحيحين عَن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا كَفَّرَ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَقَد بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**». وفيهما عَن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**وَمَن دَعَا رَجُلًا بِالكُفرِ أَو قَالَ: عَدُوَّ اللهِ. وَلَيسَ كَذَلِكَ إِلا حَارَ عَلَيهِ**». وورد في اللعن نحوًا منه، ففي سنن أبي داود (٤٩٠٥) عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: سَمِعْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ:

(١) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ»: (٢٨/ ٥٠٢-٥٠٣-٥٠٤).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا، صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا، رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا، وَإِلاَّ رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا**».

وقد ورد **النهي عن سب المسلم ولعنه، فمحبته من محبة الله،** وله من الولاء ما يلزم منه التأدب معه والرحمة به، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾، ومن صفاتهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

واللعن من الله هو: الطرد والإبعاد. ومن الخلق: السب والدعاء[1].

فالأصل هو تحريم اللعن إذا كان من يلعنه لا يستحقه، سواء قصد حقيقة اللعن، أو لم يقصد حقيقته وإنما جرىٰ علىٰ لسانه، فإن كان لا يقصد حقيقته فهو منهي عنه، ولا يُعَدُّ من الكبائر[2]. كما يجري الدعاء غير المقصود، والتخفيف فيما لا تُقصد حقيقته معروفٌ في كلام العرب، كقولهم: ثكلتك أمك، وتربت يمينك. ولا يريدون بذلك حقيقة الدعاء.

فإن قصد حقيقته فهو من الكبائر، وقد قال ﷺ: «**اللعانون لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**». رواه مسلم. وعن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**ولعن المؤمن كقتله**». وعن

(١) ينظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير(٤/ ٢٥٥) ط. دار الفكر.
(٢) ينظر: «فتح الباري»(١١/ ٢٠٦).

ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**». متفق عليهما، قال النووي: اعلم أنَّ لعن المسلم المصون حرامٌ بإجماع العلماء[(١)]. وقال ابن تيمية: الإجماع منعقدٌ على تحريم لعنة المعيَّن من أهل الفضل[(٢)].

فأما إن كان يستحق اللعن، ففيه تفصيل[(٣)]:

١- أن يكون اللعن علىٰ وجه الإطلاق لا التعيين فيجوز، كأن يقول: لعنة الله علىٰ الكافرين أو اليهود أو النصارىٰ، وكذا لعن الله آكل الربا، ولعنة الله علىٰ الظالمين، ولعن الله النامصة والمتنمصة.

٢- أن يكون علىٰ وجه التعيين[(٤)]:

أ- فيجوز لعن المعين إذا ثبت لعنه بالنص أومات وهو كافر كأبي جهل وأبي لهب وفرعون وهامان وقارون وغيرهم.

ب-وأما إن كان كافرًا وهو من الأحياء: فقيل: يجوز لعنه، لأنه حال كفره مستحقٌ للعن. وقيل: لا يجوز، قال ابن تيمية: وأما لعنه المعين فالأولىٰ تركها لأنه يمكن أن يتوب[(٥)]. اهـ ولما ورد أنه ﷺ لما قنت علىٰ أحياء من العرب، قال: اللهم العن فلانًا وفلانا . . .نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾. خرجاه في الصحيحين.

---

(١) «الأذكار» للنووي (٥٠٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٥٨/٢٠). «الأذكار» للنووي (٥٠٦).

(٣) ينظر: «مجموع فتاوي ابن تيمية» (٥١١/٦)، و«الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢٦٩/١) ط. مؤسسة قرطبة، و«تيسير العزيز الحميد» (١٩٢).

(٤) ينظر: السابق.

(٥) ينظر: السابق.

وأجيب عن تركه القنوت لما نزلت الآية: بأن هذا من بلاغات الزهري بينه مسلم في روايته، ومراسيل الزهري شديدة الضعف، ويدل عليه: أن الآية نزلت في موضع آخر، عندما شجوا رأسه وكسروا رباعيته ﷺ قال: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**». فنزلت الآية. رواه مسلم.

ج- وأما لعن المسلم المعين، إذا كان مستحقًا للعن حيث ارتكب ما ورد النص به فتقول: لعنة الله علىٰ فلان. وهو يأكل الربا أو يتشبه بالنساء أو يلعن والديه فتلعنه. فهذا فيه قولان[1]:

أحدهما: يجوز، قال به ابن الجوزي، وسلَّم بأن ترك اللعن أولىٰ، وقال في لعن يزيد بن معاوية: أجازها العلماء الورعون، منهم أحمد بن حنبل. اهـ قال ابن مفلح: وأنكر ذلك عليه الشيخ عبد المغيث الحربي وأكثر أصحابنا. اهـ

واستدلوا بحديث: «**اللهم إنما أنا بشرٌ، فأيُّمَا رجلٍ من المسلمين سَبَبْتُهُ أو لعنتُهُ أو جلدتُهُ فاجعلها له زكاةً ورحمة**». رواه مسلم وأصله متفق عليه. فدلَّ علىٰ جواز لعن المعين إذا كان يستحقه.

وأجيب عنه: بأن النبي ﷺ يعلم من يستحق اللعن، ولكن يقال: إن ذلك باجتهاده بدليل قوله في رواية: «وليس لها بأهل». وجوابه: أي ليس لها بأهل في باطن الأمر، وأما في ظاهره وهو مما يطلع عليه البشر فهو ﷺ يعلم أنه أهل لها، وهو مأمور بالحكم بالظاهر. وذكر

(١) ينظر: السابق.

القاضي عياض أن ما وقع من النبي ﷺ كان من جنس ما لا يراد حقيقته.

القول الثاني: أنه محرم ، وهو رواية عن أحمد رجحها أبو بكر من الحنابلة وابن تيمية وقال: إن نصوص أحمد تدل علىٰ كراهة لعن المسلم. ودليلهم: أنا لا ندري حال لعنه هل يستحق اللعن أم لا؟ فقد يكون جاهلًا أو ناسيًا والنبي ﷺ لم يلعن من بال في المسجد بل قال: دعوه لا تزرموه، وهو القائل: «اتقوا اللعانين ... الذي يتخلىٰ في طريق الناس أو في ظلهم». رواه مسلم واستدلوا بحديث شارب الخمر؛ أن النبي ﷺ لما أُتي بشارب خمر قال رجل من القوم: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَ اللهِ مَا عَلِمتُ، إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**» رواه البخاري. ومن أهل العلم من عكس الاستدلال: فاستدل به على جواز لعن المعين قال: فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يُلعن، والله تعالى أعلم.

وأورد بعضهم ما جاء عن بعض السلف كوكيع وأحمد من لعن رؤوس أهل البدع كبشر المريسي وغيره، ولعن أحمد الجهمية والمعتزلة وغيرهم، لكن هذا سبيله الإطلاق لا التعيين، ولذا توقف أحمد في لعن الحجاج، وفي رواية توقف في لعن يزيد.

قال ابن تيمية: المنصوص عن أحمد الذي قرره الخلال؛ اللعن المطلق العام لا المعين، كما قلنا في نصوص الوعيد والوعد وكما نقول في الشهادة بالجنة والنار ا.هـ وأما لعن رؤوس أهل البدع فقد قال ابن تيمية: وقد نقل عن أحمد لعنة أقوام معينين من دعاة أهل البدع، ولهذا فرَّق من فرق من الأصحاب بين لعنة الفاسق بالفعل وبين

دعاة أهل الضلالة إما بناء علىٰ تكفيرهم، وإما بناء علىٰ أن ضررهم أشد، ومن جوَّز لعنة المبتدع الـمُكَفَّر معينًا فإنه يجوِّز لعنة الكافر المعين بطريق الأولىٰ، ومن لم يجوز أن يلعن إلا من ثبت لعنه بالنص فإنه لا يجوز لعنة الكافر المعين. اهـ[(١)] وقال أيضا: نهى النبي ﷺ عن لعنة هذا المعين الذي كان يكثر شرب الخمر معلِّلًا ذلك بأنه يحب الله ورسوله مع أنه ﷺ لعن شارب الخمر مطلقًا، فدلَّ ذلك على أنه يجوز أن يُلعن المطلق، ولا يجوز لعنة المعين الذي يحب الله ورسوله، ومن المعلوم أنَّ كل مؤمن لا بدَّ أن يحب الله ورسوله[(٢)].

(١) «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (٤/ ٥٦٩ - ٥٧٠).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح: (١/ ٢٧٢-٢٧٤).

الإلحاد

- ١ -

معنى الإلحاد

هو في اللغة: الميل، ومنه اللحد في القبر، لأنه أُمِيلَ إلىٰ ناحية منه، ويقال ألحد في دين الله، أي حاد عنه، ولَحَدَ لغةٌ فيه. ذكره القرطبي[(١)].

وفي الاصطلاح: الميل والعدول عن الحق الذي جاءت به الرسل، إما بتكذيبه وإنكاره، أو تحريفه، وتبديله.

والإلحاد يرد في الشرع وفي كلام السلف علىٰ ضربين:

أولًا: التكذيب والإنكار:

ففي الربوبية، أن يكذب وينكر وجود الله، أو ينكر أفعاله كالخلق، أويزعم قدم العالم وأن الله لم يخلق الخلق، كإلحاد فرعون إذ قال: وما رب العالمين.

وإلحاد الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته وأنه لم يكن معدومًا أصلًا.

---

(١) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣٦٦) ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وفي الألوهية، بإنكار ألوهية الله.

وفي الأسماء والصفات، بإنكار الأسماء والصفات أو شيئًا منها، كما وقع من الجهمية والقرامطة.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: يلحدون أي يكذبون اهـ[1]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾، قال قتادة: يكذبون في آياتنا اهـ قال القرطبي: هم الذين قالوا: ليس القرآن من عند الله أو هو شعر أو سحر اهـ[2].

ثانيًا: التحريف والتبديل والعدول بها عن مراد الله ورسوله إلىٰ غيره:

ففي الربوبية، يثبتون أفعال الربوبية لغير الله، أو يحرفون معنىٰ هذه الأفعال ويحملونها علىٰ غير ما دلت عليه في اللغة والشرع.

وفي الألوهية؛ يعبدون غير الله، أو يحرفون معنىٰ الألوهية ويحملونها علىٰ غير ما دلت عليه في اللغة والشرع.

وفي الأسماء والصفات، بتحريفها عن معناها، أو أن يسمىٰ بها أو يوصف بها غير الله، أو يُوصف ﷻ بما لايصح وصفه به.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ﴾، قال ابن عباس: هو تبديل الكلام ووضعه في غير موضعه اهـ ذكره

---

(١) «تفسير البغوي» (٥٠٤) ط. دار ابن حزم، سورة الأعراف آية (١٨٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/١٦٦).

القرطبي[1]، وقال البغوي: أي يميلون عن الحقِّ في أدلتنا اهـ[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: هم المشركون عدلوا بأسماء الله تعالىٰ عما هي عليه فسموا بها أوثانهم ... اللات من الله والعُزَّىٰ من العزيز اهـ[3].

وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾، قال النضر بن شميل: الباء بمعنىٰ عن، أي عن ربهم يعدلون، أي يميلون وينحرفون، من العدول اهـ وهذا من أوجه تفسير الآية ذكره البغوي[4].

وللإلحاد إطلاقٌ أخصُّ عند المتأخرين، وهو: عدم الإيمان بوجود الخالق سبحانه، أو التكذيب به، أو إنكار وجوده، فإذا ادعىٰ عدم وجود الخالق، ادعىٰ أن الكون والعالم لم يخلق، وأنه أزلي أبدي، وهذا أقرب إليه كلمة (زنديق) وهي كلمة جرت قديمًا علىٰ لسان الأئمة في القرن الثاني والثالث، يقول في لسان العرب: الزنديق القائل ببقاء الدهر، قال: وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الله[5]، وهذا هو قول الحنفية وبعض الشافعية، وقيل: الزنديق هو المنافق، وهو قول الجمهور[6].

---

(١) السابق.

(٢) «تفسير البغوي» (١١٥٢) سورة فصلت آية (٤٠).

(٣) السابق (٥٠٤).

(٤) السابق (٤١١)، سورة الأنعام آية (١).

(٥) لسان العرب: (١٠/ ١٤٧) ط. ١ بها زها، دار الفكر.

(٦) راجع: «الموسوعة الفقهية الكويتية»: (٢٤/ ٤٩).

- ٢ -

الإلحاد المعاصر

الإلحاد في الوقت المعاصر لايبتعد كثيرا عن الإلحاد في العصر القديم، في معتقداته ومقاصده ومآلاته.

إلا أن الإلحاد القديم كان في بعض صوره -كإنكار وجود الخالق- ظاهرة فردية شاذة وطارئة عند فئات محدودة من البشر، حيث كان عند بعض الطبائعيين والدهريين والفلاسفة الأولين، فمنهم من أنكر وجود الخالق ومنهم من أنكر خلق المخلوقات وقال: الدَّهرُ دائرٌ لا أوَّلَ له ولا آخر. وربما حصل من بعض المعاندين والجاحدين طلبا للعلوِّ في الأرض كما حصل من النمرود لماحاجَّ إبراهيم عليه السلام وقال: أنا أحيي وأميت، وفرعون مع موسىٰ عليه السلام لمَّا قال: أنا ربكم الأعلىٰ، وماعلمت لكم من إله غيري، وإنما كان الشائع في كثير من أمم الأرض الشرك بالله في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وأما الإلحاد المعاصر وتقريبًا منذ مائتي سنة فقد تميز بأمور:

منها: أنه أكثر انتشارًا وظهورًا.

ومنها: أنه أكثر ترتيبًا وتقنينًا وتنظيرًا.

ومنها: انتشاره في النخب المثقفة والتيارات الفكرية في العالم الغربي، بل وتدرس الآراء الإلحادية في بعض حقول العلم.

ومنها: نسبة الإلحاد إلىٰ العلم والبحث التجريبي.

وهذا ينذر بشر وبلاء مستطير، فالتيارات الإلحادية شرقت وغربت وأظهرت الفساد في الأرض، بل إن كثيرًا من المجتمعات الغربية والشرقية لما تخلت عن دياناتها وانسلخت تركت الدين وجميع مقرارته خلفها بما في ذلك الإيمان بوجود الخالق وأنه المعبود، واتجهت نحو اللادينية سواء تبنت الإلحاد كمعتقد أو تخلت عن كل ما يتعلق بالأديان، ولذلك فإن كفر العالم اليوم وهو ينزع إلىٰ الإلحاد أشد من كفر العالم إبان النبوات والرسالات.

وكان من آثار ظهور التيارات الإلحادية:

محاربة الإيمان بالله تعالىٰ، ومحاربة الفطر السليمة.

ومحاربة التدين وحرمان الناس منه ومن التفيؤ بظلاله ومن الطمأنينة النفسية والحياة الطيبة، واستبدالها بالحياة الضنك وتقديس الدنيا والمال والشهوات وحب الذات وانتشار الجريمة، لغياب الدين والخوف من الله، فحورب الدين والفضيلة، ونسب الدين إلىٰ الخرافة، والفضيلة إلىٰ الرجعية، وأصبح الكفر والإباحية تقدمًا وحضارة وحرية.

وبرزت مقررات إلحادية طغت في الواقع الإلحادي المعاصر[1]:

منها: تغيير مفهوم الإله، وادعاء أن اسم «الله» لا يدل في الحقيقة علىٰ إله، وإنما يرمز إلىٰ الإيمان بمُثُلٍ ومبادئ كالعدالة والحرية والكرامة، وأن هذه هي التي ترمز إلىٰ الإله، وهذا يعتبر أنموذجًا جديدًا للتأله.

---

(١) ينظر: «نواقض وقوادح توحيد الربوبية المعاصرة» د. أيمن الحمدان.

ومنها: ادعاء أن الإله وإن كان موجودًا فليس له دور ولا تدبير في الحياة، وأن الإله خَلَقَ الطبيعة ثم لم يعد بعد يتدخل فيها بل هي تدبر نفسها. ومنهم من ذهب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك: فوصف الإله بالفناء، أو مايعبر عنه بعضهم بموت الإله.

ومنها: ادعاء أن العلم التجريبي يتناقض مع وجود الإله الخالق.

ومنها: ادعاء أن هناك تناقضًا بين صفة الخلق لله تعالىٰ وبين أسباب الخلق الكونية.

وكان من أسباب الإلحاد المعاصر وانتشاره:

١- ظهور مذاهب فكرية اقتصادية معاصرة كالشيوعية تتبنىٰ مثل هذه المعتقدات وتحارب الأديان وتدعي رفع الظلم عن الشعوب الفقيرة.

٢- وجود تيارات فكرية غربية إلحادية كالليبرالية والعلمانية -اللادينية- تتبنىٰ المعتقدات الإلحادية باسم الحرية الشخصية والدفاع عن الظلم الذي ينال الإنسان من قبل انتهازية الأديان.

٣- تبني المنظمات اليهودية والماسونية العالمية لمذاهب الإلحاد بهدف نشر هذا المعتقد في أتباع الديانات حتىٰ ينسلخوا من ديانتهم.

٤- ظهور الصراع بين العلم التجريبي وتعاليم الكنيسة التي يُظَنُّ أنها تمثل الدين الرباني والعلم الإلهي، وإنما هي من وضع أرباب الكنائس ودهاقنتهم وباباواتهم، ولذا فقد عارض العلم كثيرًا من خرافات الكنيسة وتصوراتها عن الأرض والكون والحياة، فلما انتصر العلم علىٰ الكنيسة نُبِذَ الدين ونبذت جميع تعاليمه ونسب إلىٰ الخرافة،

ولم يعد للدين أي دور في واقع الحياة، وإنما غيب في دهاليز الكنيسة.

٥- ظهور العلم التجريبي الذي يصدق بالمحسوسات والتجارب، ولا يلتفت إلىٰ ما وراء ذلك من الغيبيات التي هي غالب دين الرسل.

٦- ومن أسباب نشأة هذا الضلال: تشبيه الخالق بالمخلوق، فإذا كان المخلوق له خالق فلابد أن يكون للخالق خالق، وهذا ما أخبر عنه النبي ﷺ، فعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه؛ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللَّهُ ﷻ: إِنَّ أُمَّتَكَ لا يَزَالُونَ يَقُولُونَ: مَا كَذَا، مَا كَذَا، حَتَّىٰ يَقُولُوا: هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الخَلقَ؛ فَمَن خَلَقَ اللَّهَ؟**» متفق عليه. وقال: «**يَأتِي الشَّيطَانُ أَحَدَكُم فَيَقُولَ: مَن خَلَقَ كَذَا وَكَذَا؟ حَتَّىٰ يَقُولَ لَهُ: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَ ذَلِكَ فَليَستَعِذ بِاللَّهِ وَليَنتَهِ**». متفق عليه عن أبي هريرة.

- ٣ -

فساد الإلحاد

يكفي في بيان فساد الإلحاد ماذكرناه من أدلة التوحيد والإيمان، وأدلة الكتاب والسنة التي جاءت في بيان العقيدة والتوحيد والإيمان وقصص المؤمنين الموحدين وماجرىٰ بين أنبياء الله وأقوامهم المكذبين من حوارات ومناظرات كلها تبطل هذه القضية وتبين فسادها، ومن زاغ وسلك سبيل الملاحدة إما أن يكون دافعه الشهوات ككثير من ليبرالية

العرب وعلمانييهم، فهو يستخدم الإلحاد مَركَبُا لبلوغ شهواته، فهذا لاتنفع معه الأدلة وإنما يوعظ بواعظ القرآن، ومنهم من تبنىٰ الإلحاد عن طريق الشبهات والفلسفة والنظر في كتب الملاحدة وشبهاتهم فهذا يحتاج في دعوته إلىٰ الحكمة والمجادلة بالتي هي أحسن، وبيان الأدلة العقلية والفطرية والحسية علىٰ فساد هذه القضية، فمن ذلك:

أ- الدلائل العقلية:

١- كثير من آيات القرآن جاءت بالحجج والبراهين علىٰ إثبات وجود الخالق، ومنها أدلة عقلية كالدليل العقلي المذكور في سورة الطور، قال الله تعالىٰ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾. ففي الآية أن المخلوقات والكائنات إما أن تكون خُلِقَت من غير شئ، وهذا يستحيل، أو أنها خلقت نفسها وهذا يستحيل أيضًا، فلم يبق إلا أن يكون لها خالقًا عظيمًا متفردا، مستحقا للربوبية والألوهية، وهو الله جل في علاه، وفي الصحيحين عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقرَأُ بِالطُّورِ فِي المَغرِبِ. وفي رواية للبخاري معلقة: عنه قال: فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ﴾، قال: كاد قلبي أن يطير. ومنها حوار إبراهيم عليه السلام مع الذي حاجه في ربه -وهو النمرود- كما في سورة البقرة.

٢- دعوة القرآن إلىٰ التأمل في مخلوقات الله العظيمة، فإنها دالة عليه، وكما قال الأعرابي: البعرة تدل علىٰ البعير والأثر يدل علىٰ

المسير، بحار ذات أمواج وأرض ذات فجاج وسماء ذات أبراج ألا تدل علىٰ اللطيف الخبير. قال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كيف يطلب الدليل علىٰ من هو دليل علىٰ كل شئ، وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

وكيف يصِحُّ في الأذهان شيءٌ
إذا احتاج النهار إلىٰ دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالىٰ أظهر للعقول والفِطر من وجود النهار اهـ(١).

فآيات الله المشاهدة حجة قاطعة قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ... الآية. فهذا الكون بحركته وأفلاكه ومجراته ونظامه العجيب يدل علىٰ أن له خالقًا متصرفًا مدبرًا، وكذا الرياح وهبوبها والسحاب ومسيرها وإنزال الغيث وإنبات الأرض، وجلب الرزق ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾. وكما قيل:

تأمل في رياض الأرض وانظر
إلىٰ آثار ما صنع المليك

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٨٢-٨٣) ط. دار الكتاب العربي.

عـيــون مــن لــجــيــن شــاخِــصَــات
بـأحــداق كــمــا الــذهــب الــســبــيــك
عـلــىٰ قُــضُــب الــزُّبــرجــد شــاهــدات
بــأن الــلــه لــيــس لـــه شــريـــك

٣- الإعجاز القرآني، وقد تكفل الله ﷻ بحفظه، وليس كالكتب الأخرىٰ التي حرَّفها أتباعها وعبثت بها أقلام البشر وعقولهم ففقدت الصبغة الربانية وأصبحت إرثًا بشريًا فتصادمت مع العلم الصحيح، فشأنه شأنٌ آخر، إنه تنزيل من حكيم حميد، محفوظ من كل عبث أو تحريف، ولم يقع فيه اختلاف ولاعارضَ العلمَ الصحيحَ بل وافقه العلمُ وصدقه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، بل وأتىٰ بالمعجز من ذلك، حيث الإعجاز البياني والإعجاز العلمي، فأما الأول فذهب أربابه وهم أهل الفصاحة والبيان وما استطاعوا أن يعارضوه، واليوم نرىٰ الإعجاز العلمي كيف يبهر عقول علماء أفنوا حياتهم في دقائق العلوم العصرية كعلم الذَّرَّة وعلم الأجنَّة والكائنات وعلوم الفضاء وغيرها. فأولًا: لم يستطع العلم أن يكذب القرآن في قضية واحدة، وثانيًا: أنه صدَّقَهُ في كثير من قضاياه، وقد ذكر بعض المتخصصين أنه صدقه بنسبة ثمانين بالمائة، وثالثًا: أنه سكت عن بقيتها ولم يصل بعد إلىٰ نتيجة، لا تصديق ولا تكذيب، ولاشك أن مثل هذا الإعجاز يقتضي التصديق بالقرآن وبجميع ما فيه من معاني ودلالات، ومن ذلك دلالته علىٰ الخالق والإله المعبود، فرغم أنه أنزل علىٰ النبي الأمي وفي الجاهلية وقبل أربعة عشر قرنًا إلا أن العلم الذي يفيض به علم رباني، فيه من الدقائق العلمية التي ما

زال العلم يكتشفها حتىٰ اليوم وهو مغتبط ومهتبل بها ثم يجد القرآن قد سبقه إلىٰ هذه الحقائق، وهذا من أصدق الأدلة علىٰ أن ماجاء به القرآن هو الحق، هذا مع إيماننا بأن القرآن لم يُنَزّل ليكون كتابًا علميًا متخصصا في العلوم الأرضية كالفيزياء أو الكيمياء أو الطب أو التشريح، وإنما القرآن العظيم كتاب رباني إلهي له رسالته العظيمة التي أنزله الله من أجلها، وهي الدعوة إلىٰ عبادة الله والإيمان به والاستسلام له وتوحيده وإصلاح الخلق وتطهير الاعتقاد وتكميل الأخلاق وحياة الروح، فهو مُنَزَّلٌ لأجل إصلاح البشرية وتطهيرها من الرجس الشيطاني والارتقاء بها في علاقتها مع ربها وخالقها.

وقد جاء القرآن أيضًا بالإعجاز التأثيري، وهو مايحدثه في قلب سامعه وقارئه من السكينة والرقة والانشراح وشفاء الصدور والأبدان مما لايوجد في أي كتاب آخر، وأثره علىٰ النفوس والأبدان معلوم لذوي البصائر.

٤- التحدي القرآني للعالم بأسره أن يخلقوا ذبابا أو أي كائن حي، فرغم التقدم العلمي الهائل فإن العلم يظل صغيرًا أمام القدرة الربانية، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾، فالعلم يكتشف ويجمع ويفرق، لكنه لايستطيع أن يوجد شيئا لم يكن موجودا[1]، فلن يستطيع أن يلغي الجاذبية أويمنع شعاع الشمس

(١) ينظر: «عقيدة المسلمين والرد علىٰ الملحدين والمبتدعين» الشيخ صالح البليهي.

أو ينزل المطر، أويخلق الجنين، أو يحيي ويميت، أو يمسك السموات والأرض، أو يأتي بالشمس من مغربها، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، والقرآن عندما يتكلم عن أفعال الله تبارك وتعالىٰ يأمر بالتأمل فيها وفي آثارها، والتأمل في أنها أفعال مختصة به لايستطيعها العباد مهما أوتوا من قوة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ كل ذلك ليعلم العباد عظمة الخالق التي تتجلىٰ في خلقه، فيخلصوا له العبادة.

٥- ليس كل مانؤمن به لابد أن يكون مشاهدًا أو محسوسًا[١]:

فهذه (الروح) التي لاينكرها أحد، تسري في الجسد وتدخل وتخرج وتنزل وتصعد وتنعم وتعذب، ولم يرها أحد.

وفي اكتشافات العلم الحديث مايسمىٰ بـ (الذرة) المتكونة من بروتونات وألكترونات وغيرها أو ما هو أصغر منها في التكوين، فقد آمن بها علماء المادة قبل أن يروها لما عرفوه ولمسوه من آثارها وتفاعلاتها.

قال ملحدٌ لمؤمن: أنت تؤمن بوجود الله؟ قال: نعم. قال: هل رأيته؟ قال: لا. قال: هل سمعته؟ قال: لا. قال: هل شممته أو لمسته؟ قال: لا. قال: فكيف تؤمن به؟ قال المؤمن للملحد: هل

---

(١) ينظر: السابق.

أنت عاقل؟ قال: نعم. قال: هل رأيت عقلك؟ قال: لا. قال: هل سمعته؟ هل شممته؟ هل لمسته؟ قال: لا. قال: فأين عقلك إذن؟

٦- أودع الله جل وعلا في الفطرة البشرية القدرة علىٰ الإيمان بالغيب، وكَرَّمَ بني آدم وفضلهم بالقدرة علىٰ إدراك ما وراء المحسوسات وذلك خلاف البهائم التي تعيش في حدود ما تدركه حواسها، ولذا فإن الله امتحن بني آدم بالإيمان بالغيب، لأن الإيمان بالمشاهدة وبما تدركه الحواس أمر مفروغ منه، ولذا تجد الكافر إذا عاين الموت وفي البرزخ ويوم يُوقَف علىٰ النار يعلن إيمانه ولو كان من أجحد الناس كحال فرعون لما أدركه الغرق، فالإيمان بالمحسوسات ليس فيه امتحان يتبين به المؤمن من الكافر وليس فيه ابتلاء يتميَّز فيه الحق من الباطل، والله تعالىٰ جعل الدنيا دار ابتلاء، قال تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

٧- من المتقرر في جميع اللغات وعند جميع الأمم؛ أن المعاني أو الذوات توجد أولًا ثم توضع لها الألفاظ التي تدل عليها، وما كان عدمًا محضًا لايوضع له لفظ يدل عليه حتىٰ يوجد، فنقول: لفظ (الإله) يوجد في جميع لغات البشر، فمن أين جاء إذا كان مايدل عليه أمرًا عدميًا؟ ولذا فإن ذات الإله موجودة قبل أن يطرأ الجحود والإنكار من قبل الملاحدة، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَالِقِينَ﴾ وقال: ﴿ٱللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

٨- وفي نشأة الإنسان في هذه الدنيا، يُولَد وهو لا يعلم شيئًا، قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ ثم يتفتَّقُ ذهنه عن الاستدلال، وهو استدلال فطري، يحصل منه بلا تعلم، وهو نوعان:

الأول: أن يستدل بالمثيل علىٰ مثيله، فلو ذاق طعم التفاحة فأعجبته أَكَلَ كُلَّ تفاحة، ويعتمد هذا القياس علىٰ قوة العقل تارة أو علىٰ التجارب والوقائع تارة أخرىٰ.

الثاني: أن يستدل علىٰ الشيء بوجود أثره، كما قال الأول: البعرة تدل علىٰ البعير، والأثر يدل على المسير.

ثمَّ إن القرآن خاطب الفطرة بهذين الدليلين الذين هما من أوسع الأدلة التي جاءت في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾، وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ﴾ والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا.

ب- الدلائل الفطرية:

١- إذا ادلهمت بالإنسان الخطوب فلمن يلجأ ومن يدعو؟ إن داعي الفطرة يقوده إلىٰ السماء والعلو، ويجد في نفسه حاجة ملحة إلىٰ إله يدعوه ورب يرجوه، يبكي بين يديه بكاء الصبي الصغير، ويعلم بفطرته وقرارة نفسه أن هذا الذي يتوجه إليه هو القوة العظمىٰ التي لا تقهر، والعظيم الذي لا أعظم منه، وعلىٰ ذلك يولد الصغير ويهرم

الكبير، بل وحتىٰ الحيوانات تلجأ إليه، ففي سنن الدارقطني عن أبي هريرة مرفوعًا: «خرج سليمان عليه السلام يستسقي فرأىٰ نملة مستلقية علىٰ ظهرها، رافعة قوائمها إلىٰ السماء تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنىٰ عن سقياك. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم».

٢- فطرة المولود، وهي فطرة سليمة تتجه إلىٰ خالقها، وتؤمن به، ولو قدِّر أن مخلوقًا عاش وحيدًا بعيدًا عن المؤثرات، فإنا علىٰ يقين من أنه سيؤمن بأن للكون خالقًا وإلهًا وربًا عظيمًا يُدعىٰ ويُرجىٰ ويدبِّر الأمور ويصرِّف الدهور، ففي الصحيحين عن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِن مَولُودٍ إلا يُولَدُ عَلَىٰ الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمعَاءَ؛ هَل تُحِسُّونَ فِيهَا مِن جَدعَاءَ؟**» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيرَةَ: وَاقرَؤوا إِن شِئتُم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ الآيَةَ.

ويَدُلُّ علىٰ هذه الفطرة ظهورها في أوقات الشدائد، حيث تتطلع له النفوس وتتعلق به القلوب، ويجد الإنسان في نفسه أنه إذا خاف أو خشي مكروها قال: يا إلهي. ومن ذلك ظهور إيمان الملحدين في الشدائد، وهذا يظهر من حال فرعون لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾.

ج- الدلائل الواقعية:

١- فمن ذلك: إجابة دعاء الداعي والمضطر والمستغيث والمستجير وسماع الله تعالىٰ للدعوات والأصوات مع اختلاف اللغات، كما يحقق الله لهم من الاستجابة والتيسير ما يجعل الداعي يؤمن بأن هناك إلهًا قادرًا عظيمًا قد استجاب دعوته.

٢- معجزات الرسل التي أجراها الله علىٰ أيديهم، تدل علىٰ أنهم مؤيدون من عند الله، وإلا فإن قدرة البشر تتضاءل أمامها، فالنار تصبح بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم، وينشق القمر وينبع الماء بين أصابع النبي ﷺ، وعصىٰ موسىٰ تنقلب حية تسعىٰ وتلقف ماصنعوا فيراها السحرة ويوقنون أنها معجزة إلهية لايستطيعونها ولا يقدر عليها البشر.

من فروع النواقض

- السحر
- العرافة والكهانة
- التنجيم والاستسقاء بالأنواء

السِّحر

- ١ -

حقيقة السحر

السِّحر في اللغة: هو ما خفي ولطف سببه، أوهو صرف الشيء عن حقيقته إلىٰ غيره بطريقة فيها دقة وخفاء ولطف. وقيل: هو إخراج الباطل في صورة الحق، ويقال: هو الخديعة اهـ قاله ابن فارس

وأما في الاصطلاح فتعريفه غير منضبط لتشعبه وتنوعه، وما نذكره من نوعيه يبين ويجلي معناه، فهو يقع علىٰ ضربين:

١- سحر تخييل وخداع، كمن يستخدمون خواص الأشياء وخصائص الأجسام والحيوان والمعدن والعقاقير والمخدرات في الخداع والتمويه، ويصرفون الأبصار عن حقيقة ما يفعلونه بالشعوذة والحركة السريعة لخفة أيديهم وبراعتهم، أو بتأثيرات نفسانية مع استغلال ضعف المسحور، وهذا لا حقيقة له، وهو سحر مجازي، ومثل هذا يدركه ذوو العقول.

٢- سحر تأثير، وهذا له حقيقة وتأثير في الأشياء وتغيير في الأحوال والأشخاص والأمزجة والنفوس ونحوها، فيفرق ويجمع، ويمرض ويصرع، ويضر وينفع، وكل ذلك بإذن الله، قال تعالىٰ:

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ وقال: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾. ولا يحصل إلا بالتقرب للشياطين واستجلابهم ومن ثم استخدامهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وهذا هو السحر المقصود هنا.

والقول بأن له حقيقة هو قول جمهور أهل السنة وصرح به ابن قتيبة وابن العربي وابن قدامة والنووي[١]، للآية حيث يفرقون به بين المرء وزوجه، ولحديث عائشة في الصحيحين أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي ﷺ، ولحديث: «**من تصبح بسبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولا سحر**». متفق عليه.

ولهذا عرفه ابن قدامة بقوله[٢]: عزائم ورقىٰ وعُقَد يؤثر في القلوب والأبدان فيُمرِض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

وأنكر ذلك المعتزلة والماتريدي وأبو بكر الجصاص من الأحناف[٣]. وقال ابن هبيرة: وأجمعوا علىٰ أن السحر له حقيقة، إلا أبا حنيفة فإنه قال: لا حقيقة له عندي اهـ[٤].

وقد فصَّل في ذكر أنواعه الرازي وابن كثير بأطول مما ذكرنا[٥].

---

(١) ينظر: «السحر بين الحقيقة والخيال» د. أحمد الحمد (٣٨-٣٩).

(٢) «الكافي» (٥/ ٣٣١) ط. دار هجر.

(٣) ينظر: «السحر بين الحقيقة والخيال» د. أحمد الحمد (٥٦).

(٤) «الإفصاح» (٢/ ٢٢٦).

(٥) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٤٤-١٤٦).

- ٢ -

حكم عمل السحر وتعلمه وتعليمه

أ- الحكم بكفر الساحر مطلقًا، هو قول الجمهور وقد سبق بيانه.

والعلة في ذلك أحد أمور: ١- التقرب للشياطين، **٢**- ادعاؤه علم الغيب، **٣**- أن يقع الساحرُ في شيءٍ من المكفرات كتدنيس المصحف أو الذبح للشياطين ونحو ذلك، **٤**- أن يأمر المسحور بأحد هذه المكفرات.

والسحر الذي له حقيقة وتأثير لايتأتىٰ إلا من قبل الشياطين، وذلك يستدعي عبادتهم والشرك بالله وعمل المكفرات، وتعظيم الكواكب والتعلق بها وأن لها من الفيض والتأثير ما يستجلب به الخير والحظ ويدفع به الشر والنحس.

وليس للكواكب في ذلك أي معنىٰ إلا ما تغوي به الشياطين السحرةَ وضلالَ بني آدم وتوهمهم بها.

وفي التنزيل التحذير من السحر، والتعليل بأنه كفر، فقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾. قال الشوكاني: وفيه دليل علىٰ أن تعلم السحر كفر، وظاهره عدم الفرق بين المعتقد وغير المعتقد، وبين من تعلمه ليكون ساحرًا ومن تعلمه ليقدر علىٰ دفعه[(١)].

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ١٧٨) ط. دار زمزم.

ب- السحر الذي من قبيل التخييل والخداع لايقتضي كفر الساحر، كالاستعانة بخواصِّ الأشياء من دهانات وأدوية وغيرها وإن كان ذلك محرمًا كما سبق.

ج- الساحر يقتل إذا عمل السحر الذي له حقيقة، وهو قول مالك وأحمد، وقال أبوحنيفة: إذا تكرر منه ذلك[(١)]. قال أحمد: صحَّ عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر اهـ[(٢)]. وهم عمر وجُندَبُ وحفصة ﭫ، وهو فعل الصحابة: فقد كتب عمر ﭬ لجزء بن معاوية: أن اقتلوا كل ساحر وساحرةٍ. أخرجه أحمد (١/ ١٩٠) وأبوداود (٣٠٤٣)، وعمل به الصحابة ولم ينكر فهو إجماع، وروي عن جماعة من الصحابة والتابعين، وأما عدمُ قتلِ النبيِّ ﷺ لبيدَ بنَ الأعصم اليهودي لما سحره، لأنه خشي أن يَحدُثَ بين الناس سوءٌ أوشرٌ، ولذا فإن الراجح أن المسلم والذمي سواء في القتل.

والجمهور أنه يقتل لردَّته وكفره.

والشافعي يرىٰ أنه لايقتل بمجرد السحر ولو كان له حقيقة، إلا إذا أقر علىٰ نفسه بقولٍ أو فعلٍ فيه كفر، فإن قَتَلَ بسحره إنسانًا فيقتل قصاصًا، وهو اختيار ابن المنذر[(٣)]. قال القرطبي: وهذا صحيح ودماء المسلمين محظورة لاتُستباح إلا بيقين ولا يقين مع الاختلاف والله تعالىٰ أعلم، وقال: بعض العلماء: إن قال أهل الصناعة أن السحر

(١) ينظر: «الإفصاح» لابن هبيرة (٢/ ٢٢٦) ط. المؤسسة السعيدية بالرياض.

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٤٤) «تيسير العزيز الحميد» (٣٩٦).

(٣) ينظر: «الإفصاح» لابن هبيره (٢/ ٢٢٦)، و«المغني» لابن قدامة (١٢/ ٣٠٢) و«الجامع» للقرطبي (٢/ ٤٨).

لا يتمُّ إلا مع الكفر والاستكبار أوتعظيم الشيطان فالسحرُ إذًا دالٌّ علىٰ الكفر علىٰ هذا التقدير والله تعالىٰ أعلم، وروي عن الشافعي: لايقتل الساحر ... -فذكر القرطبي قوله- ثم نقل عن ابن العربي قوله: وهذا باطل من وجهين: أحدهما: أنه لم يعلم السحر، وحقيقته أنه كلامٌ مُؤلفٌ يُعظّم به غير الله تعالىٰ وتنسب إليه المقادير والكائنات، الثاني: أن الله سبحانه قد صرح في كتابه بأنه كفر وقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ ... اهـ[(١)].

وهل يستتاب؟ أي تطلب منه التوبة، فإذا تاب عُفي عنه:

الجمهور أنه لا تقبل توبته، أي في الظاهر فلايستتاب، وقال الشافعي وأحمد في رواية: تقبل توبته[(٢)]. والأقرب أنه راجعٌ إلىٰ اجتهاد الإمام في استتابته أو قتله من غير استتابة.

د-وهل يقتل إذا عمل السِّحرَ الذي من قَبيل التخييل؟[(٣)] فقيل: لايقتل وهو قول الشافعي وابن المنذر وبعض الأحناف والحنابلة، لأنه لم يرتكب مايكفره، وقيل: يقتل، قال الشنقيطي: والآثار المذكورة والحديث فيهما الدلالة علىٰ أنه يقتل ولو لم يبلغ به سحرُهُ الكفر، لأن الساحر الذي قتله جندب رضي الله عنه كان سحره من نوع الشعوذة والأخذ بالعيون اهـ[(٤)].

---

(١) «الجامع للقرطبي» (٢/ ٤٨-٤٩)

(٢) ينظر: «الإفصاح» (٢/ ٢٢٦) و«المغني» (١٢/ ٣٠٢).

(٣) ينظر: «السحر حقيقة أم خيال» د. الحمد (١٦٦-١٧٠) و«شرح منتهىٰ الإيرادات» للبهوتي (٣/ ٢٩٤) ط. دار الإفتاء.

(٤) «أضواء البيان» (٤/ ٤٦١).

وهذه الرواية التي أشار إليها الشنقيطي عند البيهقي في السنن (٨/ ١٣٦)؛ أن الوليد بن عقبة كان بالعراق، يلعب بين يديه ساحرٌ، وكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيقوم خارجًا فيرتد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتىٰ، ورآه رجل من صالح المهاجرين فنظر إليه، فلما كان من الغد اشتمل علىٰ سيفه فذهب يلعب لعبه ذلك، فاخترط الرجل سيفه فضرب عنقه، فقال: إن كان صادقًا فليحيي نفسه. وأمر به الوليدُ دينارًا صاحبَ السجن، وكان رجلًا صالحًا فسجنه، فأعجبه الرجل، فقال: أفتستطيع أن تهرب؟ قال: نعم. قال: فاخرج لايسألني الله عنك أبدا اهـ.

ويظهر لي أن هذا العمل من السحر لايقع إلا بالاستعانة بالشياطين، ولهذا قتله جندب، بخلاف سحر التخييل والتمويه.

وذكر ابن قدامة أن هذا الرجل هو جُندَبُ بن كعب[(١)].

وروىٰ الترمذي (١٤٦٠) عن جندب عن النبي ﷺ قال: «**حَدُّ الساحر ضربة بالسيف**». والصحيح وقفه عليه.

(١) «المغني» (١٢/ ٣٠٣).

- ٣ -

ما يستطيع الساحر فعله

أ- استخدام العقاقير وبعض الأعمال التمويهية والتخييلية والشعوذة والأخذ بالعيون، وهذا يستطيعه بالاتفاق.

ب- القيام بعمل شيء يؤثر في النفوس والعقول والأبدان والأبصار والحواس كالتفريق بين الزوجين، والعطف، وغاية مايبلغه الساحر من الأثر هو ماتبلغه الأمراض من تغير المزاج وفساده، ولايبلغ مايفعله الساحر مبلغ آيات الرسل ومعجزاتهم، حكىٰ القرطبي الإجماع عليه[(١)].

ج- اختُلِفَ: هل يستطيع الطيران في الهواء أوالمشي فوق الماء، فقيل: إنه يستطيع ذلك بمعونة من الشياطين، وقد ذكر الفقهاء أخبارًا عنهم في هذا الشأن[(٢)].

د- لا يستطيع أن يغير في ظواهر الكون، كأن يحيي ميتًا، أو يقلب خواص المواد كالحديد ذهبًا أو يفتح مغلقًا ونحو ذلك.

---

(١) ينظر: «الجامع» القرطبي (٢/ ٤٧) و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٤/ ٣٩٧) ط. دار المعرفة، و«المغني» (١٢/ ٢٩٩) و«شرح منتهىٰ الإيرادات» للبهوتي (٣/ ٣٩٤).

(٢) السابق.

- ٤ -

حكم إتيان السحرة

سيأتي في الكهان والعرافين

- ٥ -

الـنُّشـرَة

أ- معنىٰ النُّشرَة: في اللغة من النَّشر؛ وهو التفريق، وهي: حَلُّ السحر عن المسحور.

ب- حكمها: لها ثلاثة أحوال:

١- أن تقع النشرة بالأدعية والأذكار والرقىٰ المشروعة، فهذه مشروعة بالإجماع لتواتر الخبر بذلك كما في الصحيحين من الرقية بالمعوذات.

٢- أن تقع النشرة بطرق ووسائل أثبتت التجارب والعرف كونها تؤذي الشياطين وتطردهم من جسد المسحور مثل: دَقّ ورق شجر السدر، أو التبخير، وأما الضرب واستعمال الكهرباء فهذا محل نظر.

فهذا القسم يجوز بضوابط:

أ- ألا يكون فيه أذىٰ علىٰ المسحور، بحيث يساوي أو يزيد علىٰ الأذىٰ الذي يحصل بسبب السحر.

ب- أن يكون مجربًا نفعه.

ج- ألا يكون من القسم الثالث، وقد قال النبي ﷺ: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيها شرك**». رواه مسلم.

ويدخل في ذلك البحث عن العقد وحلها بطرق وأدوات.

٣- أن تقع النشرة بالذهاب إلىٰ الساحر، فيحل السحر عن المسحور بسحرٍ مثله، أو يستدل علىٰ مكان السحر لتمكن المسحور من إحضاره وفك الساحر له، فهذه النشرة محرمة، وربما كانت شركًا وكفرًا لما فيه من الاستعانة بالشياطين في حال من الشرك والكفر يقع فيه الساحر والمسحور، وربما المسحور لا يعلم، وقيل: تجوز للضرورة(١)، قلت: وعلىٰ القول بالجواز -رغم أني لا أصححه- فلا بد من هذه الشروط: ألا يفعل المسحور أو وليُّه شركًا أوكفرًا يأمره به الساحر، وألا يصدقه فيما يخبر به من الغيب، ولا يسلطه علىٰ أحد فيؤذيه، وإنما يستخبره عن مكان السحر أو يستعين به علىٰ فك السحر. فهذا قال به بعض أهل العلم، لأن ضرورة السحر فيها معنىٰ الإكراه، والأقرب والله تعالىٰ أعلم أن مصلحة فك السحر عن طريق الساحر مظنونة، وهي مصلحة خاصة، ومفسدة تمكين السحرة

---

(١) ما جاء عن بعض أهل العلم من جواز ذلك فهو محمول علىٰ الحالة الثانية، ولذا لما سئل ابن سيرين وكذا الإمام أحمد عن أعمالٍ يُحَلُّ بها السحر عن المسحور، ولم تكن معلومة أو ظاهرة توقفوا فيها. ينظر: «المغني» (١٢/ ٣٠٤-٣٠٥) ويحتمل أن يُحمل علىٰ الحالة الثانية ما جاء عن ابن المسيب ومال إليه المزني وهو قول الشعبي، ينظر: «الجامع» للقرطبي (٢/ ٤٩) وذهب بعضهم إلىٰ حملها علىٰ حلِّ السحر عن المسحور بسحر، فأجازها للضرورة، ينظر: «شرح منتهىٰ الإرادات» للبهوتي (٣/ ٣٩٥).

وإعطائهم دورا في المجتمع أمر خطير، ومصلحة عدم الذهاب إليهم مصلحة عامة وهي مقدمة علىٰ المصلحة الخاصة، وفك السحر بالطرق المشروعة ممكنة فلماذا يلجأ إلىٰ المظنون المفسد ويترك المتيقن المصلح؟! ولكن الشيطان قد يزين لبني آدم المنكر، ويتحايل عليه من باب الضرورات.

وقد جاء في مسند أحمد **(٣/ ٢٩٤)** عن جابر بن عبد الله ﵁؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «**هي من عمل الشيطان**». حسنه ابن حجر[(١)].

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٢٨٦) شرح حديث رقم (٥٧٦٥) ورواه ابن ابي شيبة في «المصنف» عن الحسن مرسلًا، «المصنف» رقم (٢٣٨٦٣) (٨/ ٢٥) ط. مكتبة الرشد.

العَرَافَة والكِهَانَة

- ١ -

معنى الكاهن والعراف

قال ابن الأثير: الكاهن هو الذي يتعاطىٰ الخَبَرَ عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدَّعِي معرفة الأسرار، وقد كان في العرب كَهَنَةٌ كَشِقٌّ وسَطِيحٌ وغيرهما، فمنهم من كان يزعم أن له تابعًا من الجنِّ ورئيًا يُلقِي إليه الأخبار، ومنهم من يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدلُّ بها علىٰ مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصُّونه باسم العرَّاف، كالذي يدعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالّة ونحوها اهـ[(١)].

فعلىٰ هذا الكاهن من يدعي علم الأمور المستقبلية والماضية، والعَرَّاف من يدعي علم الأمور الماضية.

ويدخل في هذا كل من يشمله هذا المعنىٰ كالرَّمَّال وقارئ الفنجان ونحوهم.

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/ ٢١٤-٢١٥) ط. دار الفكر.

وقال الراغب: الكاهن هو الذي يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن، قال: والعرب تسمي كل من يتعاطىٰ علمًا دقيقًا: كاهنًا، ومنهم من كان يسمي المنجِّم والطبيب كاهنًا اهـ[1].

وقيل: العراف يطلق علىٰ الجميع؛ فيطلق علىٰ الكاهن والمنجم والرمال ونحوهم كالحازر الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف[2].

- ٢ -

حكم الكاهن والعرَّاف

الكِهانة والعرافة صنعة معروفة في الجاهلية، وقد روىٰ أحمد (٢/ ٤٢٩) حدثنا يحيىٰ بن سعيد عن عوف عن خلاس عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**من أتىٰ كاهنا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد**»[3].

فإذا كان هذا الحكم فيمن ذهب إليهم وصدقهم، فكيف بمن يتعاطىٰ صنعتهم وفعلتهم.

---

(١) «المفردات» (٤٤٢-٤٤٣).

(٢) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٤١٥).

(٣) وفي الحديث: «**من أتىٰ حائضًا أو امرأة في دبرها أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزِل علىٰ محمد** ﷺ». رواه أحمد (٢/ ٤٧٦)، والأربعة من طريق حكيم الأثرم عن أبي تميمة عن أبي هريرة، قال الترمذي: وضعف محمدٌ هذا الحديث من جهة إسناده اهـ وقال البغوي: سنده ضعيف اهـ وفي متنه نكارة وذلك بذكر إتيان الحائض

وقد يوجد من يدعي ذلك، فهذا له حالتان:

الأولىٰ: أن توجد عنده أمور مكفرة؛ وهي غالبًا:

أ- أن يدعي علم الغيب.

ب- أن يستخدم الجن علىٰ وجه التقرب لهم، فتصدر منه أقوال وأفعال يتقرب بها إلىٰ الشياطين.

ج- أن يقع منه أعمال هي من نواقض الإيمان كسب الله أو رسوله أو إهانة المصحف أو نحو ذلك.

الحالة الثانية: ألا توجد عنده أمور مكفرة، فقد صرَّحَ بعض الأحناف والحنابلة أنه لايكفر.

لكن إن ادعىٰ الكهانة وأنه يعلم أمورًا في المستقبل فمجرد ادعاؤه كفر وناقض من نواقض الإيمان.

وأما من يكذب ويلبِّس علىٰ الناس ولم يثبت عليه ما يدل علىٰ الكفر فلا يجزم بكفره، وللإمام تعزيره.

- ٣ -

أمور يمكن أن يعرف بها الكاهن والعراف والساحر

١- أقوال شركية أو كتابات شركية، فيها تقرب للجن ودعاؤهم، وذكر أسماء غير معروفة ونداؤها وتحضيرها.

٢- التلاعب بآيات القرآن كمن يقطع ألفاظًا منها أويحرف في معانيها، أو يتلوها بطريقة متعارضة، أو يعرضها بطريقة منكسة،

أو يكتبها بالنجاسات، ويستدعي الشياطين بأقوال شركية لا تحضر عنده إلا بعد تلاوتها.

٣- أفعال شركية يفعلها أو يأمر بها كالذبح للشياطين عند طلوع الشمس أو غروبها دون ذكر اسم الله حال الذبح ونحو ذلك من الأفعال الكفرية كإهانة المصحف بالجلوس عليه أو تنجيسه.

٤- ترك الطهارة الشرعية والأعمال الشرعية وذكر الله.

٥- هناك قرائن تدل عليهم منها: استخدام الميتات وجلود السباع، والبقاء في أماكن النجاسات كالحشوش ونحوها أوقاتًا طويلة، واستخدام الأبخرة النتنة، ووجود النجاسات عنده، ومثله ذهابه للأماكن الخالية الخربة، ومثله الطلاسم والتمتمات التي لا تُعرف ولا تتبين لمن يسمعها.

٦- ادعاؤه علم الغيب، ومعرفة ما يقع في المستقبل.

- ٤ -

أمور لا تدخل في الكهانة

أ- الاعتماد علىٰ الحساب وعلم الفلك في معرفة بعض الأحوال كالكسوف والرياح والتنبأ بالمطر ونحو ذلك.

ب- القيافة وعلم الأثر فهذا مبناه علىٰ الوراثة والحس والفكر والدربة ونحوها.

ج- الفراسة والإلهام والتحديث كما ثبت في الصحيح أن عمر رضي الله عنه منهم.

د- كرامات الأولياء، بشرط أن يُعرَف الرجل بصلاحه في الظاهر والباطن ووقوفه عند الأمر والنهي، فمن كان لله تقيًا كان لله وليًا، فإذا حصل له إجابة دعاء أو رؤيا في منام أو أجرىٰ الله علىٰ لسانه أو جوارحه الحق، وكان لا يخالف أصول الكتاب والسنة وما أخبر الله به من الغيبيات، فهذا من كرامة الله له في الدنيا، كما وقع لعمر رضي الله عنه عندما قال لرجل من قادة المسلمين -وهو في ميدان المعركة وعمر علىٰ المنبر-: ياسارية الجبل. فاسندوا إلىٰ الجبل ظهرورهم فهزم الله عدوهم. رواه أحمد في فضائل الصحابة[1].

- ٥ -

حكم إتيان الكهان والعرافين والسحرة والمنجمين ونحوهم

فهذا له أحوال:

أ- أن يأتيهم ويصدقهم، فقيل في حكمه: أنه كفر دون كفر، وقيل: يجب التوقف ولايقال: إنه ينقل من الملة، ذكرهما سليمان بن

(١) «الإصابة في معرفة الصحابة» (٣/ ٥)، ترجمة: سارية ابن زنيم، وحسن إسناده، ورواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢٥٣٧). وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد حسن اهـ «البداية والنهاية» (١٧/ ٥٨٠) ط. دار هجر.

عبد الله[1] روايتين عن أحمد، ثم ذكر قولين آخرين هما: أن هذا للتشديد والتأكيد، أي قارب الكفر، أو المراد: كفر النعمة، قال: وهذان القولان باطلان اهـ.

والتحقيق أن يقال: إن صدقه في أمر ماضٍ كحدث وقع بالأمس فيصدقه فهو كفر أصغر، كأن يخبره بمن سرق ماله، أو أحرق متاعه.

وإن كان في أمر مستقبل فهو كفر أكبر لتكذيبه بالقرآن، والله تعالىٰ يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] ويقول: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ويقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال النبي ﷺ: «**مفاتح الغيب خمس**»، ثم قرأ الآية، وفي رواية: «**لايعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله**». رواه البخاري عن ابن عمر.

ولقول النبيِّ ﷺ: «**من أتىٰ كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل علىٰ محمد**». رواه أحمد (٢/ ٤٢٩) من حديث أبي هريرة، وهو صحيح بشواهده، وعند البزار (١٨٧٣-١٩٣١) عن عبد الله بن مسعود قال: من أتىٰ كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد.

ب- أن يأتيهم ويأمرونه بفعل أو قول فيه كفر فيفعله فيكفر بهذا العمل.

---

(١) «تيسير العزيز الحميد»: (٤١٣) ط. مكتبة العلوم والحكم

ج- أن يأتيهم ويسألهم ولا يصدقهم فهذا لايكفر، ولكن لا تقبل له صلاة أربعين يومًا لحديث: «**من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**» رواه مسلم.

د- أن يأتيهم ليكشف الباطل الذي عندهم أويوضح بطلان عملهم، ولأجل أن يطلع علىٰ أحوالهم ويعرف ألاعيبهم ليكشف زيغهم ويحذر منهم فهذا جائز أو مندوب، وقد يجب إذا كان فيه إنكار للمنكر.

التَّنجِيم والاستسقاء بالأَنوَاءِ

- ١ -

معنى التنجيم

التنجيم: تفعيل من النجم، والنجم هو الكوكب الذي يضيء من ذاته.

و يراد به: طلب علم النجوم والنظر فيها وسيرها ومواقيتها وخصائص الأجرام السماوية وأبعادها وحركاتها، وهو الذي يطلق عليه علم الفضاء والفلك.

أو يراد به: ضرب من السحر وشعبة منه، وهو سحر عبدة الكواكب ممن يزعم أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم، وأنها مصدر الخير والشر والسعادة والنحس، ولهذا جاء في الحديث: «**من اقتبس علمًا من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**». رواه أبو داود (**٣٩٠٥**) عن ابن عباس. وذكر القاضي عياض أنه ضرب من الكهانة[١].

وعلىٰ هذا فالتنجيم نوعان.

(١) ينظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٤/ ٤٤٢-٤٤٣) ط. دار المعرفة.

- ٢ -

أنـواعـه

١- **علم التسيير**: أي معرفة مسارات الأفلاك والنجوم، دون أن يعتقد أن للفلك تأثيرًا علىٰ الوقائع الأرضية، وإنما يتعرف علىٰ الأفلاك ومواقعها ومساراتها وظهورها واختفائها ووقوع ظواهر أرضية في هذه الأزمان، دون الربط بين الفلك وتلك الظواهر علىٰ وجه التأثير، ومثل معرفة كيفية الاستفادة منها في معرفة الجهات الأربع والقبلة ومعرفة أوقات الزراعة، ومعرفة منازل القمر.

فهذا العلم جائز مرخص فيه.

٢- **علم التأثير**: أن يعتقد أن للنجوم تأثيرًا علىٰ الوقائع الأرضية كموت إنسان أو خسارة مالٍ أو ظهور أمراضٍ فهذا له أحوال:

* أن يعتقد في النجم شيئًا من صفات الربوبية كالخلق والتدبير والتصرف فهذا كفر أكبر، وهذا من كفر قوم إبراهيم والصابئة وغيرهم، ممن كانوا يعبدون النجوم، ويبنون لها الهياكل ويعظمونها، زاعمين أن لها روحانية تتنزل عليهم وتخاطبهم وتقضي حوائجهم.

* أن يعتقد أن النجم سببٌ فهذا كفر أصغر، لكون النجوم ليست أسبابًا قال ﷺ: «**قال الله تعالىٰ: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر . . .**، وفيه: **فأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب**». متفق عليه من حديث زيد بن خالد.

ويدخل في هذا: النظر في الأبراج:

أ- فإن اعتقد تأثيرها في النفوس بجلب السعادة والنصر، والصحة والمرض، والنفع والضر بذاتها من دون الله فهذا اعتقادٌ في النجوم، وهو كفر مخرج من الملة، وهو من جنس عبادة الصابئة لها، وهو شركٌ في الربوبية والألوهية.

ب- وإن تكهن بها للمستقبل فهي كهانة تدخل في ادعاء علم الغيب كمن يقول: إن نجمك الفلاني يدل علىٰ أنك لن توفق في دراستك أو زواجك، فهذا تكهن وادعاء للغيب، وهو كفر وقد سبق.

ويوجد في المواقع علىٰ الشبكة العالمية من يبث هذه الضلالات ومن يصدق هذه الخزعبلات، ويصطادون بها ضعاف العقول، ويروجون لأكاذيبهم، وهذا ضرب من التنجيم وادعاء علم الغيب.

ومن صَدَّقَ المنجِّم والكاهن في ذلك فقد كفر، لأنه كَذَّبَ بالقرآن والله تعالىٰ يقول: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النمل: ٦٥].

- ٣ -

الاستسقاء بالأنواء

الأنواء جمع نوء وهو النجم، وأصله من ناء النجم إذا سقط وغاب والاستسقاء: طلب السقيا، أي طلب ذلك من النجوم.

فهذا حكمه حسب ما يقع في قلب صاحبه، وله حالات:

١- أن يعتقد في النجم أنه المدبر والمنزل للمطر، فهذا شرك في الربوبية، فإن النجوم خَلقٌ من خَلقِ الله لا ينزل مطرًا ولا يجلب خيرًا ولا يدفع شرًا، وعليه فالباء في قوله: الاستسقاء بالأنواء، للتعدية، أي استسقاء الأنواء بدعائها والاستعانة بها وهذا شرك أكبر لا يقع إلا ممن يعتقد فيها صفات الربوبية.

٢- أن يعتقد في النجم أنه سبب لنزول المطر، وليس النجم بسبب شرعي ولا حسي، وعليه فتكون الباء للسببية، أي جعل الأنواء سببًا، فهذا كفر أصغر، وعليه يحمل الحديث السابق: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**». وروىٰ الإمام أحمد (١/١٠٨) عن عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾ **يقول شكركم** ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ **تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا**».

٣- أن لا يعتقد فيها شيئًا وإنما ينسبها إليها علىٰ سبيل الظرفية، للعادة الجارية في وقت النجم فيقول: مطرنا في وقت هذا النجم، أو زراعة كذا مفيدة في هذا النجم، فهذا جائز. قال الشافعي: من قال: مطرنا بنوء كذا، علىٰ معنىٰ: مطرنا في وقت كذا، فلايكون كفرًا، وغيره من الكلام أحب إلي اهـ(١). أي أن الأولىٰ أن يأتي بـ(في) التي تفيد الظرفية، ولا يأتي بالباء التي تفيد السببية، ومنهم من منع من ذلك لكونه ذريعة، ولكن هذا القول فيه ضعف، لأن إفادة السببية ناشيء عن اعتقاد.

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٤٦٦)، وقال: إن كلام الشافعي لايدل علىٰ جواز ذلك، وإنما يدل علىٰ أنه لايكون كفرَ شركٍ، وغيره من الكلام أحسن منه، أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لايجوز فالصحيح أنه لا يجوز اهـ.

قوادح التوحيد
ووسائل الشرك والكفر

- شرك الرياء
- إرادة الإنسان بعمله الدنيا
- شرك الألفاظ والأيمان
- شرك الأسباب
- التبرك الشركي والبدعي
- الغلو
- وسائل الشرك والكفر

شرك الرِّيَاء

- ١ -

معنى الرياء

الرياء أصله من الرؤية، فالمرائي يطلب رؤية الناس، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: «**من سمَّع سمَّع الله به ومن راءىٰ راءىٰ الله به**»، متفق عليه، فالمرائي يطلب الرؤية، والمسمِّع يطلب السماع، وبابهما واحد وهو طلب ثناء الناس والتعلق بهم وبمدحهم.

- ٢ -

أثر الرياء على العمل الصالح

له أحوال ثلاثة:

أولًا: الرياء المحض: وهوأن يحصل الرياء في أصل الإيمان وأصل العمل، فيكون الحامل علىٰ العمل من أصله هو الرياء، فلا يريد به إلا الناس، كحال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ومنهم من يؤدي الفرائض ليُحقَنَ دمُهُ ويُعصَم ماله أو يريد جاهًا

ورياسةً، فهذا العمل حابط بلا نزاع: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ [النساء: ١٤٢].

قال ابن رجب: وهذا الرياء المحض لايكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدَّىٰ نفعها، قال: وهذا العمل لايشك مسلمٌ أنه حابطٌ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة اهـ[١].

ثانيًا: أن يشارك الرياء العمل في أصله، بحيث يكون الباعث عليه إرادة وجه الله وطلب محمدة الناس وثنائهم، فيريد به الله والناس، فالعمل باطل، ذكر ذلك المحاسبي والقرافي وابن نجيم والقرطبي وابن القيم[٢]، وقال ابن رجب: فالنصوص الصحيحة تدل علىٰ بطلانه وحبوطه أيضا، ولانعرف عن السلف في هذا خلافا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين اهـ[٣]. ولا عبرة بما قاله الغزالي من النظر إلىٰ قدر قوة الباعث وأن الأجر ينقص بحسبه[٤].

دلَّ علىٰ ذلك: الحديث القدسي المرفوع: «**أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**». رواه

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٧٩) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) ينظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٢٥) ط. دار الكتب العلمية، و«مقاصد المكلفين» د. عمر الأشقر (٤٤٨-٤٤٩-٤٥٠) ط. دار النفائس.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٧٩).

(٤) ينظر كلامه في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٨٤-٣٨٥) وقد بين الدكتور عمر الأشقر ضعف هذا القول في «مقاصد المكلفين» (٤٤٤) ومابعدها.

مسلم عن أبي هريرة، وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه: أن رجلًا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله؛ أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ قال: «**لا شيء له**»، وفيه: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه**». رواه النسائي (٣١٤٠). بإسناد جيد. قاله ابن رجب، وساق الأحاديث والآثار في هذا المعنىٰ[(١)].

وهذا من الشرك الأصغر وصاحبه معرضٌ للعقوبة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «**أول من تسعر بهم النار ثلاثة**»، ثم ذكر قاريء القرآن ليقال: قاريء، والمجاهد ليقال: جريء، والمنفق ليقال: جواد.

وحكىٰ ابن نجيم فيه عن الحنفية ثلاثة أقوال: أنه كفر، وأنه لا أجر له وعليه الوزر، وأنه لا أجر له ولا وزر عليه[(٢)]. وإذا كان العمل واجبًا فهذا يؤزر علىٰ الرياء، لأنه أبطل عمله بهذا الرياء، وكان واجبًا عليه أن يؤديه، قال ابن القيم: إن كانت النية شرطًا في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادة اهـ[(٣)].

ثالثًا: أن يحصل الرياء في وصف العمل لا أصله، فيكون مخلصًا في أصل العمل؛ ويريد به وجه الله، ثم طرأ الرياء عليه بعد ذلك، فله ثلاثة أحوال:

أ- أن يكون خاطرةً وحديثَ نفسٍ دون أن يستقرَّ في القلب

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (٨٠-٨١) و«مقاصد المكلفين» (٤٤٨).
(٢) ينظر: «الأشباه والنظائر» لابن نجيم (٣٩) ط. الحلبي وشركاه.
(٣) إعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ١٢٥) ط. دار الكتب العلمية.

ويترتب عليه عمل فهذا معفوٌ عنه، لحديث: «**إن الله تَجَاوَزَ عن أمتي ما حَدَّثَت به أنفُسَهَا ما لم يتكلموا أو يعملوا به**» متفق عليه. وينال الأجر علىٰ مجاهدة النفس في دفع هذا الخاطر.

ب- أن يطرأ علىٰ عمل يتجزأ كالصدقة فهذا يبطل ما دخل عليه الرياء دون ما لم يدخل عليه بالاتفاق.

ج- أن يطرأ علىٰ عمل لا يتجزأ، فهذه المسألة فيها خلاف[(١)]، وقد ذهب ابن جرير وأحمد والعز بن عبد السلام أن العمل لا يبطل، ونقل ابن نجيم عن بعض الأحناف: أن من افتتح الصلاة خالصًا لله تعالىٰ، ثم دخل في قلبه الرياء فهو علىٰ ما افتتح اهـ وقرر ابن القيم في «إعلام الموقعين» أنه لايبطل، وقال ابن رجب: وأرجو أن عمله لايبطل بذلك، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره اهـ.

وهو ظاهر كلام ابن سعدي، وأنه يحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء، قال ابن سعدي: الرياء آفةٌ عظيمةٌ، ويحتاج إلىٰ علاج شديد وتمرين النفس علىٰ الإخلاص ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء اهـ[(٢)].

وهذا من الشرك الأصغر الذي خافه النبي ﷺ علىٰ أمته:

فعَن مَحمُودِ بنِ لَبِيدٍ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أَخوَفَ مَا**

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد»: (٥٣٤) و«الأشباه والنظائر» لابن نجيم (٣٩)، و«إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٢٥) ط. دار الكتب العلمية، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب: (٨٢-٨٣) و«مقاصد المكلفين» د. عمر الأشقر (٤٦٠) و«القول السديد» لابن سعدي: (٣٩)

(٢) «القول السديد» لابن سعدي: (٣٩)

أَخَافُ عَلَيكُم الشِّركُ الأَصغَرُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الشِّركُ الأَصغَرُ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ يَومَ تُجَازَىٰ العِبَادُ بِأَعمَالِهِم: اذهَبُوا إِلَىٰ الَّذِينَ كُنتُم تُرَاءُونَ بِأَعمَالِكُم فِي الدُّنيَا، فَانظُرُوا هَل تَجِدُونَ عِندَهُم جَزَاءً**». رواه أحمد (٥/ ٤٢٨) وحسن إسناده ابن حجر في البلوغ[(١)].

وفي حديث أبي سعيد نحوه، وفيه: فقلنا: بلىٰ، قال: «**الشرك الخفي؛ أن يقوم الرجل يصلي فيُزَيِّنُ صلاته لما يَرَىٰ من نَظَرِ رجلٍ**». رواه أحمد (٣/ ٣٠)، وروىٰ البيهقي (٢/ ٢٩١) عن محمود بن لبيد معناه، وفيه: «**إياكم وشرك السرائر**». وروىٰ ابن ماجه (٤٢٠٥) عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَخوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَىٰ أُمَّتِي الإِشرَاكُ بِاللَّهِ، أَمَا إِنِّي لَستُ أَقُولُ يَعبُدُونَ شَمسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا وَثَنًا، وَلَكِن أَعمَالًا لِغَيرِ اللَّهِ، وَشَهوَةً خَفِيَّةً**». وفي إسناده مقال.

ومما يدفع الرياء ويزيله من القلب:

عمل السرائر، وتدبر القرآن وقراءته بخشوع وطمأنينة وسكينة، وتذكر الآخرة، وتربية النفس علىٰ الخوف من الله والرجاء فيما عنده، وعدم التعلق بما في أيدي الناس، وأن يتفكر في حال المخلوق وضعفه، وأنه لايستحق أن يلتفت إليه أو يتعلق بثنائه أو يهاب مَذَمَّتَه، والتوسل إلىٰ الله ودعائه، فلقد كان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا. رواه أحمد في الزهد وفيه انقطاع.

---

(١) ينظر: «بلوغ المرام» (١٥٢٦) ط. مكتبة الرشد.

وروىٰ البخاري في الأدب المفرد (٧١٦) عَن مَعقِل بن يَسَارٍ قَال: انطَلَقتُ مَعَ أَبِي بَكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا بَكرٍ، لَلشِّركُ فِيكُم أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ**». قَالَ أَبُو بَكر: هَلِ الشِّركُ إلا مَن جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ، لَلشِّركُ أَخفَىٰ مِن دَبِيبِ النَّملِ، أَلا أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَيءٍ إِذَا قُلتَهُ ذَهَبَ عَنكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قَالَ: قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَن أُشرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعلَمُ، وَأَستَغفِرُكَ لِمَا لا أَعلَمُ**».

وأما إذا عمل العمل لله خالصًا، ثم ألقىٰ الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين، واستبشر بذلك لم يضره، لما رواه مسلم عَن أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرَأَيتَ الرَّجُلَ يَعمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيرِ وَيَحمَدُهُ النَّاسُ عَلَيهِ؟ قَالَ: «**تِلكَ عَاجِلُ بُشرَىٰ المُؤمِنِ**».

وعلامة الإخلاص والرياء: هو ما ذكره بعض السلف: إن كان ينشط للطاعة إذا أثنىٰ عليه الناس أو رأوه فذلك دليل الرياء، وإن كان حاله مع مدحهم وذمهم سواء فذلك علامة الإخلاص، لكن قد ينشط للطاعة لدواعٍ أُخرىٰ سوىٰ المديح والثناء فهذا لايدل علىٰ الرياء، مثل أن يجد في الاجتماع مايعينه علىٰ الطاعة فينشط، أويكون في حال موعظة فيرق قلبه وتحين منه ساعة إيمان فينشط.

إرادة الإنسان بعمله الدنيا

- ١ -

الفرق بينه وبين الرياء

الرياء فيه طلب لمحمدة الناس وثنائهم علىٰ فعل الطاعات وهذا محرم وشرك، لأن الطالب للمدح والثناء قد أشرك مع الله غيره في نيته وقصده، ثم إنَّ طَلَب ثناءِ الناس ومدحِهِم مذمومٌ في الشرع مطلقًا، والرياء يظهر فيه إشراك مخلوق قائم بذاته وصفاته مع الخالق، فتحصل المشاركة والمنازعة، فيصدق عليه الشرك.

وأما إرادة الإنسان بعمله الدنيا فهو فِعلُ الطاعة تقربًا لله وحده، لكنه خَلَطَ في نيته إرادة ثواب الدنيا مع إرادة ثواب الآخرة، فنيته تعلقت بتحقيق أمر دنيوي، وعَرَضٍ من أعراض الدنيا، كدفع الشرور والأذىٰ أو نيل مال أو غنيمة أو شفاء أو حفظ أو تحقيق سعادة، وهي مقاصد دنيوية هي في الأصل مباحة شرعًا أو مرغب فيها، ولا يذم طالبها، وهذه الأغراض لا يدخل فيها الشرك الذي فيه تعظيم الخلق ولا العمل لأجلهم، **وإنما هو تشريكٌ في الإرادة بين طلب الأجر الأخروي وطلب الأجر الدنيوي ومصالح الدنيا.**

- ٢ -

صور إرادة الإنسان بعمله الدنيا أو الآخرة

الأولىٰ: أن يتمحض العمل لأجل الدنيا وثوابها:

فهو لا يريد بالعمل إلا ثواب الدنيا، فهذا ينال نصيبه منها وماله في الآخرة من خلاق، ويتناول هذا المعنىٰ صنفين:

أ- الكافر الذي لا يرجو لقاء ربه، فإنه وإن عمل طاعة أو صنع معروفًا فهو لايرجو به إلا حظ الدنيا ونصيبها، ولا يوفيه الله إلا ثواب الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب.

ب- المسلم الذي تمحضت إرادته بعمله طلب ثواب الدنيا ولم يرد به الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، ويقول: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وقال ﷺ: «**ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**». متفق عليه.

فإذا تمحضت إرادته للدنيا فهذا يعطىٰ ثواب عمله في الدنيا وما له في الآخرة من نصيب، وماورد في النصوص أنه من عمل للدنيا فلا أجر له محمولٌ علىٰ هذه الصورة، قاله ابن رجب.

وضابط ذلك: أن تكون نيته: أنه متىٰ ما حصَّل ثواب الدنيا عَمِلَ، وإن لم يحصِّله لم يعمل.

ويدلُّ علىٰ ذلك ما نقله ابن رجب[1] عن عبد الله بن عمرو ﵄ قال: إذا أَجْمَعَ أَحَدُكُم علىٰ الغزو فعوضه الله رزقًا فلابأس بذلك، وأما إن أُعطي درهمًا غزا، وإن لم يُعط درهمًا لم يغز فلا خير في ذلك اهـ.

وهذا مثل من حجَّ ولم يكن قصده إلا أن يأخذ، أو صلَّىٰ بالناس لا يرجو إلا ما يُعطىٰ من المال، فهذا جعل الدين وسيلة إلىٰ المال. قال ابن تيمية: ففرق بين من يكون الدين مقصوده والدنيا وسيلة، ومن تكون الدنيا مقصوده والدين وسيلة، والأشبه أن هذا ليس له في الآخرة من خلاق كما دلت عليه نصوص ليس هذا موضعها اهـ[2].

فهذا ليس له في الآخرة من نصيب وهل يعاقب ويتناوله الوعيد علىٰ هذا القصد؟ اختلف أهل العلم في ذلك لاختلافهم في المراد بالآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ [هود: ١٥].

فقيل: المراد بها الكفار، بدليل الآية بعدها: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾[3]. وقيل: المراد بها المؤمنون، وقال الضحاك: من عمل صالحًا من أهل الإيمان من غير تقوىٰ عُجِّل له

(١) «جامع العلوم والحكم» (٨٢) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) «مجموع الفتاوي» (٢٦/ ٢٠).

(٣) ينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٩/ ١٤).

ثواب عمله في الدنيا[1]. واختاره الفراء[2]، وقال ابن القيم[3]: وهذا القول أرجح اهـ وقيل: الرياء، قال مجاهد[4]: هم أهل الرياء اهـ فمن أراد ثواب الدنيا عُجِّل له، وله في الآخرة العذاب الأليم.

وقيل: عامة في كل من ينوي بعمله غير الله، كان معه أصل الإيمان أو لم يكن[5].

وعلىٰ المؤمن الحذر من هذا المنحدر وأن لا يتعجل ثمرة عمله وهو قادر علىٰ أن يؤخرها ليوم تشخص فيه الأبصار ويكون الإنسان بأشد الحاجة إلىٰ الحسنات، قال ابن رجب: يا هذا، اعبد الله لمراده منك لا لمرادك منه، فمن عبده لمراده منه فهو ممن يعبد الله علىٰ حرف، إن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه خسر الدنيا والآخرة، ومتىٰ قويت المعرفة والمحبة لم يرد صاحبها إلا ما يريده مولاه[6].

الثانية: أن يقع تشريك في نية العبادة بين إرادة ثواب الدنيا وإرادة ثواب الآخرة:

فمن الأمثلة علىٰ ذلك:

إمام يصلي بالناس يريد بذلك وجه الله تعالىٰ وليحصل علىٰ

(١) ينظر: «بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية» (٢/ ٤٢١) ط. دار ابن الجوزي.
(٢) السابق.
(٣) السابق.
(٤) «تفسير البغوي» (٦١٥) سورة هود آية (١٥).
(٥) السابق.
(٦) كلمة الإخلاص (٢٨) ط. المؤيد.

المكافأة، أو من يدرس القرآن لله ولأجل المكافأة، ومن يقرأ علىٰ الناس ويرقيهم لأجر التلاوة وشفاء المريض وليأخذ علىٰ ذلك مالًا، أو يجاهد لإعلاء كلمة الله وليصيب من المغنم، أو من يقول الأذكار لله تعالىٰ ولأجل أن يحفظه الله من الشرور، أومن يتصدق لله تعالىٰ ولأجل أن ينمو ماله، أومن حج لله تعالىٰ ولأجل التجارة، ومن يستغفر لينال أمرًا يطلبه أوكربة تفرج عنه، ومن يَدْعُ الله ليحقق أمرًا دنيويًا، أو يتصدق بنية الشفاء، أو يقرأ سورة البقرة لطرد الشياطين كما في الحديث في صحيح مسلم، أو يصل رحمه ليبسط له في رزقه ويُنسَأ له في أجله، أو يستسقي يريد بذلك الغيث ونزول المطر، أو اتقىٰ الله ليجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لايحتسب، أو يقتل قتيلًا لينال سلبه كما ورد في الحديث المتفق عليه، وغيرها من الأعمال التي توجد فيها إرادة الدنيا.

فهل هذه النية تناقض الإخلاص الذي هو شرط في قبول العمل؟

أ- **من تأمل النصوص الشرعية** ونظر في الأمثلة السابقة **عَلِمَ أن ذلك لا يُنافي الإخلاص الذي هو شرط لقبول العمل، فإن الله خلق الإنسان في هذه الحياة الدنيوية وأمره أن يسعىٰ فيها ويضرب في الأرض ويمشي في مناكبها، وهو في هذا يسعىٰ إلىٰ نصيبه منها، وفي الأعمال الصالحة تحقيق لخيري الدنيا والآخرة، بل إن من النصوص مايذكر العمل الصالح ويَعِد بثواب الدنيا، بل ويجعله مطلبًا لهذا العمل الصالح، مما يدل علىٰ أن هذا لا يعارض هذا، وأنه يمكن اجتماعهما، فالعامل لكونه مسلمًا لا يفعل العبادة في الأصل إلا بنية**

التقرب إلىٰ الله، فمعه أصل النية والإخلاص الذي لاتصح العبادة إلا به، ثم تكون عنده مع ذلك إرادة نصيب من الدنيا.

ومن الأدلة علىٰ ذلك:

- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾.

- وقوله: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ۝١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾.

- وفي الحديث المتفق عليه: «**من سَرَّهُ أن يُبسَطَ له في رزقه ويُنسَأ له في أجله فليصل رحمه**».

- ما ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في سفر، فلُدغ سيد الحي، فرقاه رجل منهم بفاتحة الكتاب، فأعطي قطيعًا من غنم، وفي رواية للبخاري: فصالحوهم علىٰ قطيع من الغنم، وروىٰ البخاري عن ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله**».

- أن الصائم إذا كانت نيته في الصوم التقرب إلىٰ الله تعالىٰ وليدفع شهوة النكاح فصومه صحيح لحديث: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ... ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**» متفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه.

- أن من ذكر الله تعالىٰ لدفع الشرور فمقصده جائز شرعًا؛ فقد ثبت في صحيح مسلم عَن أَبِي هُرَيرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ مَا لَقِيتُ مِن عَقرَبٍ لَدَغَتنِي البَارِحَةَ. قَالَ: «**أَمَا إِنَّكَ لَو قُلتَ حِينَ أَمسَيتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، لَم تَضُرَّكَ**».

- الاتفاق علىٰ أن من حج لله تعالىٰ وقَصَدَ التجارةَ أن حجه صحيح[(١)]، وقد روىٰ ابن جرير (٢/ ٢٩٥) عن ابن عمر؛ سُئل عن الرجل يحج ومعه تجارة، فقرأ ابن عمر: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾. قال ابن كثير: وهذا موقوف، وهو قوي جيد اهـ[(٢)].

- وحكىٰ النووي[(٣)] أن من تطهر لرفع الحدث مع نية التبرد أن ذلك يجزئ، وحكىٰ قولًا آخر بعدم الإجزاء وضعفه.

ب- حكم هذا النوع:

الأقرب في هذا أن عمله صحيح ولا يبطل، وهو غير آثم، لكن قد ينقص من أجره بقدر نيته في طلب ثواب الدنيا، وهذا الضابط ذكره الإمام أحمد؛ حيث قال -في أحوال من يخرج إلىٰ الغزو-: التاجر والمستأجر والمُكَارِي أجرُهُم علىٰ قَدرِ ما يخلص من نيَّتهم في

---

(١) ينظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (١/ ١٢١) ط. مكتبة ابن تيمية، و«الجامع» للقرطبي (٢/ ٤١٤)، قال: خلافًا للفقراء اهـ أي المتصوفة.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٤٠).

(٣) ينظر: «المجموع شرح المهذب» للنووي (١/ ٣٢٥) ط. دار الفكر.

غزاتهم، ولا يكون مثل من جاهد بنفسه وماله لايخلِطُ به غيرَهُ اهـ[١].

وقد يقال: إن هذا في الجهاد خاصَّةً، لورود النصِّ فيه، فالله أعلم فقد قال مجاهد: في حجِّ الجمَّال وحج الأجير وحج التاجر: هو تمامٌ لاينقص من أجورهم شيءٌ[٢].

ونصَّ بعض أهل العلم علىٰ أنه إن كانت إرادة الآخرة وإرادة الدنيا متقاربتين أو متساويتين أن عمله لايبطل، لكنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، كذا قرره ابن سعدي[٣]، وقرر ابن عثيمين[٤] أن من أراد الحسنيين الدنيا والآخرة فلاشيء عليه.

قال ابن رجب: فإن خالط نية الجهاد مثلًا نيةٌ غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة، أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهادهم، ولم يبطل بالكلية اهـ[٥]. واستدل لذلك بحديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَا مِن غَازِيَةٍ تَغزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُصِيبُونَ الغَنِيمَةَ إلا تَعَجَّلُوا ثُلُثَي أَجرِهِم مِنَ الآخِرَةِ، وَيَبقَىٰ لَهُمُ الثُّلُثُ، وَإِن لَم يُصِيبُوا غَنِيمَةً تَمَّ لَهُم أَجرُهُم**». رواه مسلم، كما أنه قد جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي تَزَوَّجتُ امرَأَةً مِنَ الأَنصَارِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**هَل نَظَرتَ إِلَيهَا؟ فَإِنَّ فِي عُيُونِ الأَنصَارِ شَيئًا**».

---

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» (٨٢).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٨٢).

(٣) «القول السديد» (٣٩).

(٤) «القول المفيد» (٢/ ٢٤٤).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٨١-٨٢).

قَالَ: قَد نَظَرتُ إِلَيهَا. قَالَ: «**عَلَىٰ كَم تَزَوَّجتَهَا؟**» قَالَ: عَلَىٰ أَربَعِ أَوَاقٍ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَىٰ أَربَعِ أَوَاقٍ؟ كَأَنَّمَا تَنحِتُونَ الفِضَّةَ مِن عُرضِ هَذَا الجَبَلِ، مَا عِندَنَا مَا نُعطِيكَ، وَلَكِن عَسَىٰ أَن نَبعَثَكَ فِي بَعثٍ تُصِيبُ مِنهُ**». قَالَ: فَبَعَثَ بَعثًا إِلَىٰ بَنِي عَبسٍ، بَعَثَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فِيهِم.

قال القرافي: فظهر الفرق بين قاعدة الرياء في العبادات وبين قاعدة التشريك في العبادات غَرَضًا آخر غير الخلق، مع أن الجميع تشريك، نعم لايمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر وعظم الثواب، أما الإثم والبطلان فلا سبيل إليه، ومن جهته حصل الفرق، لا من جهة كثرة الثواب وقلته اهـ[1].

ولذلك إذا عمل العمل لوجه الله وقصد به مطلبا دنيويًا قد دل الدليل علىٰ كون منفعته الدنيوية مقصودة بالعبادة، كمن قرأ آية الكرسي ليحفظه الله، أو صلىٰ ودعا واستسقىٰ لقصد نزول المطر، أو استغفر أو تصدق لتزول عنه كربة، أو قرأ الأذكار ليحفظه الله، أو نحو ذلك مما يعلم من الأحاديث والأصول قصد الأمر الدنيوي بها، فهذا عمله صحيح ولا يبطل ولو كان الباعث عليه إرادة الدنيا كالاستسقاء، فقد دَلَّ الدليلُ علىٰ أن طلب هذه المنفعة سائغ، بل ومذكور في الدليل، كدعاء نزول المَنزِل، والاستسقاء طلبًا لنزول المطر، وقراءة آية الكرسي ليُحفظ، ولا شك أن من كانت نيته خالصة في إرادة ثواب الآخرة أنه أعظم أجرًا وأكمل ثوابًا.

(١) «الفروق» للقرافي (٣/ ٢٣) ط. عالم الكتب.

الثالثة: أن يكون في التشريك جمع بين قربة لازمة وقربة متعدية، أوجمع بين قربة مقصودة لذاتها وقربة مقصودة لغيرها، وقد حكىٰ ابن عبد السلام مثالًا علىٰ ذلك هو: انتظار الإمامِ المسبوقَ ليدركه في الركوع؛ هل يكون شركًا؟ قال: ظن بعض العلماء ذلك وليس كما ظن، بل هو جمع بين قربتين لما فيه من الإعانة علىٰ إدراك الركوع، وهي قربة أخرىٰ اهـ واستدل علىٰ ذلك بانتظار الإمام المأمومين في صلاة الخوف، وذكر أمثلة أخرىٰ[(١)].

ومن أمثلة ذلك: الصوم لمن لم يستطع النكاح حفظًا لفرجه، وقد سبق الحديث فيه، فهذا مأجور علىٰ قربة الصيام، ومأجور علىٰ الوسيلة التي تمنع من الوقوع في الحرام.

ومن ذلك نية القارئ علىٰ المريض أن ينال أجر القراءة، وأن يُشفىٰ المريض.

الرابعة: من عمل لله وحده وأخلص إخلاصًا تامًا، ولكنه يأخذ علىٰ عمله جعلًا معلومًا؛ يستعين به علىٰ العمل، كالجعالات التي تجعل علىٰ أعمال الخير وكالغنيمة، أو كالأوقاف التي تجعل علىٰ المساجد والمدارس، فهذه لايضرُّ أخذه في إيمان العبد وتوحيده اهـ[(٢)].

فإذا كان عمله خالصًا لوجه الله وأتاه هذا العطاء وهو غير قاصد له فلا يضرُّهُ ولا يُنقِصُ أَجرَه ما أخذه منه، ومما يدل علىٰ ذلك: أنه لو مُنِعَ العطاء لم ينقطع عن هذا العمل.

---

(١) ينظر: «قواعد الأحكام» ابن عبد السلام (١/ ١١٠) ط. مؤسسة الريان.

(٢) «القول السديد» (٣٩).

فقد جاء في صحيح البخاري أن عمر ﷺ كان يفرض للمهاجرين الأولين عطاء من بيت المال مالا يفرضه لغيرهم، وذلك لسابقتهم وجهادهم، وكانوا يأخذونه.

وعن عَبدِ اللَّهِ بنِ عمرﷺ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعطِي عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ ﷺ العَطَاءَ، فَيَقُولُ لَهُ عُمَرُ: أَعطِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفقَرَ إِلَيهِ مِنِّي. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**خُذهُ فَتَمَوَّلهُ، أَو تَصَدَّق بِهِ، وَمَا جَاءَكَ مِن هَذَا المَالِ وَأَنتَ غَيرُ مُشرِفٍ وَلا سَائِلٍ فَخُذهُ، وَمَا لا فَلا تُتبِعهُ نَفسَكَ**». قَالَ سَالِمٌ: فَمِن أَجلِ ذَلِكَ كَانَ ابنُ عُمَرَ لا يَسأَلُ أَحَدًا شَيئًا، وَلا يَرُدُّ شَيئًا أُعطِيَهُ. هذا لفظ مسلم.

وخرج الشيخان نحوه عن عمر ﷺ.

وخرجا عن ابن السَّاعدِي قال: استعملني عمر بن الخطَّاب علىٰ الصَّدَقة، فلمَّا فَرَغت منها وأدَّيتُها إليه أَمَر لي بعُمَالةٍ، فقلت: إنما عملت لله، وأجري علىٰ الله، فقال: خُذ ما أُعطيت، فإني عملت علىٰ عهد رسول الله ﷺ فَعَمَّلَني، فقلت مثل قولك، فقال لي رسول الله ﷺ: «**إذا أُعطيت شيئًا من غير أن تسألَ فكُل وتصَّدق**».

فمن لم يقصد الدنيا ولا طلبها فهذا عمله تام وما أخذه فهو جائز له.

والجوائز والحوافز التي تعطىٰ لحفظة القرآن وغيره من متون العلم أو مسابقاته فهذه إذا حصل عليها من غير قصد لها لم يضره أخذه لها، ولم ينقص أجره ما أخذه منها، أما إن كان في نيته الحصول علىٰ المال فإنه ينقص من أجره بقدر نيته.

التَّبَرُّك الشركي والبدعي

- ١ -

معنى التبرك

التَّبَرُّك: طلب البَرَكَة، والبركةُ هي الزيادة والنماء، وأصلها من ثبوت الشيء ودوامه، ومنه البِركَة وهو المكان الذي يجتمع فيه الماء، وقال الزجاج: معنىٰ البركة: الكثرة في كل خير اهـ[١].

وأما البركة في الشرع فقد قال الراغب: والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء اهـ[٢].

فالبركة هي ثبوت الخير حسيًا كان أو معنويًا، فمن الحسي البركة في الطعام، كالزيتون وزيته فإن شجرته مباركة، وماء المطر، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾.

ومن المعنوي البركة في القرآن والإيمان والعبادة، فالصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات والدعاء والأذكار فيها بركة إلهية ونفحات ربانية قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [سورة ص: ٢٩]

---

(١) «لسان العرب» (١٠/٣٩٦).

(٢) «المفردات» (٤٤).

ومن ذلك: البركة في الوقت والعمر، والبركة في الرزق.

وأما «تبارك» فقال الزجاج: تبارك: تعالىٰ وتعاظم. وقال المبرد: ارتفع. وقيل: تقدَّس. قال ابن دريد: لايوصف به إلا الله تبارك وتعالىٰ، ولايقال: تبارك فلان، في معنىٰ عَظُمَ، هذه صفة لا تنبغي إلا لله ﷻ اهـ[1].

- ٢ -

التبرك المشروع

البركة الشرعية هي ثبوت الخير الإلهي في الشيء وذلك يعني أن البركة والتبرك الذي هو طلب البركة والذي يؤجر عليه الإنسان لابد له من دليل يدل عليه.

فالتبرك المشروع له شروط:

١- أن يكون الشرع دَلَّ علىٰ كون هذا الشيء فيه بركة، فَيَرِدُ به نصٌّ من القرآن أو السنة.

٢- أن يكون التبرك بكيفية موافقةٍ لما دلَّت عليه نصوص القرآن أو السنة.

٣- أن يكون المقصود بالتعظيم -في هذ التبرك- هو الله، فلا يعظم أرضًا ولا حجرًا ولا ذاتًا كتعظيم الله تعالىٰ.

(١) ينظر: «التبرك» د. ناصر الجديع (٢٩-٣٠) ط. مكتبة الرشد.

مثاله: - الحجر الأسود حجر مبارك، والتبرك هو بفعل المشروع عنده من تقبيله والتزامه ومسه، كما جاء في الشرع، فهذا من التزام شرع الله، وفي التزام ما شرعه الله عبودية وطاعة وتعظيم لله تعالىٰ، وليس المقصود بهذا العمل تعظيم الحجر ولا طلب البركة من ذاته، ولهذا قال عمر رضي الله عنه: إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسولَ الله ﷺ يقبلك ما قبلتك. متفق عليه.

- المساجد تنال بركتها بعمارتها بالذكر والقراءة والصلاة دون التبرك بذاتها والتمسح بتربتها أو جدرانها أو غير ذلك.

- الكعبة تنال بركتها بالطواف حولها والصلاة عندها دون التمسح بجدرانها وأستارها، كما أن الطواف عبودية وتعظيم وذلٌّ لله تعالىٰ وليس لهذه الأحجار.

وعلىٰ ذلك: فمن خالف في كيفية التبرك فقد وقع في البدعة أو الشرك.

- ٣ -

من أنواع التبرك المشروع

١- التبرك بالأقوال: كقراءة المعوذات وتلاوة القرآن والأذكار ونحوها.

٢- التبرك بالأفعال: كتقبيل الحجر الأسود والطواف بالبيت.

٣- التبرك بالهيئات: كالاجتماع علىٰ الطعام وحِلَق الذكر ومجالس الصالحين.

٤- التبرك بالأمكنة: كالجلوس في المساجد والاعتكاف فيها وفي الحرمين، والصلاة بذي الحليفة والإحرام فقد ورد في الصحيح: أنها بطحاء مباركة، والشام أرض مباركة، فتطلب البركة بسكناها.

٥- التبرك بالأزمنة: كرمضان وعشر ذي الحجة بفعل الطاعات والقربات في زمنها، ووقت السحر بالاستغفار وأكل طعام السحور.

٦- التبرك بالطعام: كالزيتون بأكله وزيته بأكله واللدهان به، واللبن بشربه.

٧- التبرك بالشراب: كماء زمزم بشربه والاستشفاء به، وماء المطر بإصابة البدن منه، ففي صحيح مسلم؛ عن أنس بن مالك ﵁ قال: أَصَابَنَا وَنَحنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَطَرٌ قَالَ: فَحَسَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَوبَهُ حَتَّىٰ أَصَابَهُ مِنَ المَطَرِ، فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ لِمَ صَنَعتَ هَذَا؟ قَالَ: «**لأَنَّهُ حَدِيثُ عَهدٍ بِرَبِّهِ تعالىٰ**».

٨- التبرك بالأشياء والذوات كاللباس والشعر، وهذا خاص بالنبي ﷺ، ففي صحيح البخاري عن عثمان بن عبد الله بن مَوهَب قال: أَرسَلَنِي أَهلِي إِلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ زَوجِ النَّبِيِّ ﷺ بِقَدَحٍ مِن مَاءٍ -وَقَبَضَ إِسرَائِيلُ ثَلاثَ أَصَابِعَ- مِن فِضَّةٍ فِيهِ شَعَرٌ مِن شَعَرِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ إِذَا أَصَابَ الإِنسَانَ عَينٌ أَو شَيءٌ بَعَثَ إِلَيهَا مِخضَبَهُ، فَاطَّلَعتُ فِي الجُلجُلِ، فَرَأَيتُ شَعَرَاتٍ حُمرًا.

- ٤ -

التبرك البدعي

أ- التبرك البدعي: ويقع في حالتين:

١- اعتقاد البركة في شيء لم يدل الدليل علىٰ كونه مباركًا.

٢- أن يقع التبرك بكيفية غيرِ مشروعة.

مثاله: اعتقاد البركة في القبور فيتمسح بها أو يفعل عندها بعض العبادات كتلاوة القرآن والصلاة، ومن ذلك قبر النبي ﷺ، ومقبرة البقيع ومقبرة الشهداء وغيرها من المقابر فليس في تربتها بركة ولا في جدرانها بركة، إلا جسد الحبيب ﷺ وإنما يتبرك بذاته فقط، والمشروع عند القبور هو السلام علىٰ أصحابها والدعاء لهم وتذكر الآخرة، وأما دعاؤها وطلب الشفاعة من الموتىٰ فسبق أنه من الشرك الأكبر.

- التبرك بمقام إبراهيم بالتمسح به أو الدعاء عنده، والمشروع اتخاذه مصلىٰ.

- التبرك بجبل الرحمة؛ بالوقوف عليه والجلوس عند الشاخص، وكذا التبرك بغار حراء بالجلوس فيه والدعاء عنده والصلاة فيه، أو التبرك بأحجاره وأشجاره.

- التبرك بمكان ولادة النبي ﷺ أو ليلة مولده، حتىٰ ظن بعضهم أن قراءة المولد علىٰ الطعام يبارك فيه.

- كما لايصح التبرك بالصالحين بتقبيل أيديهم والتمسح بها وما ورد من الآثار في تقبيل يد الوالد ونحوه فالمراد به التكريم لا التبرك.

- كما لايصح التبرك بالصخرة والقبة التي في بيت المقدس، ولا قبور الصحابة والصالحين كالحسين رضي الله عنه.

- ٥ -

التبرك الشركي

■ ب- التبرك الشركي:

يكون شركًا أكبر إذا عظمه كتعظيم الله، ولهذا صور:

كأن يعكف عند الشيء الذي يتبرك به عكوفًا فيه تعظيم أو يطوف به أو ينذر له أو يقترن بالتبرك ما يدل علىٰ العبودية كالخوف والرجاء والرغبة والرهبة والمحبة والدعاء والتضرع لها.

ولهذا لما خرج النبي ﷺ إلىٰ حنين مرَّ بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يارسول الله؛ اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله، هذا كما قال قوم موسىٰ: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**». رواه أحمد (٥/٢١٨) والترمذي (٢١٨٠) وصححه من حديث أبي واقد الليثي، وكانوا حديثي عهدٍ بكفر وجاهليةٍ، فشبَّه طلبهم بطلب بني إسرائيل، وطلب بني إسرائيل هو طلب تألُّهٍ لغير الله، فدلَّ علىٰ أن

التبرك الذي كان يصنعه أهل الجاهلية بذات أنواط كان من هذا الشرك.

ومن التبرك الشركي بناء المشاهد علىٰ القبور وعبادتها ودعاؤها والطواف بها والدخول إليها حبوا علىٰ الركب، وقد ذكر ابن تيمية[(١)]: أن بناء المشاهد علىٰ القبور لم يكن في العصور المفضلة، وإنما ظهر ذلك وكثر في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق، وكان بها زنادقة كفار كان مقصودهم تبديل دين الإسلام، وكان في بني بويه موافقة لهم، ومن بِدَعِ الرافضة والمعتزلة والجهمية ماهو معروف أي بالموافقة لهم، فبنوا المشاهد المكذوبة كمشهد علي ﷺ، فصار هؤلاء الزنادقة وأهل البدع المتبعون لهم يعظمون المشاهد، ولما ضعفت خلافة بني العباس في أواخر المائة الثالثة في دولة المقتدر ظهرت القرامطة العبيدية بأرض المغرب ثم جاءوا بعد ذلك إلىٰ أرض مصر، وفي دولتهم قوي بنوعبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلىٰ علي ﷺ بناحية النجف، وإنما دفن بقصر الإمارة بالكوفة.

وأفاض ابن تيمية ﷺ في بيان هذه البدع والضلالات وإظهار المشاهد وبنائها علىٰ القبور، وأن كثيرًا من القبور التي تنسب إلىٰ الأنبياء أو الصحابة أو غيرهم ليست صحيحة ومشكوك فيها وكثير منها يعلم أهل العلم بطلانه.

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/ ١٦٧-٤٦٦-٤٦٧).

- ٥ -

التبرك بالنبي ﷺ والعلماء والصالحين

التبرك بذاته ﷺ جائز وصحيح فقد كان الصحابة الكرام يأخذون من وضوئه وعرقه وشعره، وأما من سواه من الصالحين والصديقين فإن كان تبركًا بذواتهم فهذا من البدع ولم ينقل ولم يعلم أن الصحابة تبركوا بأبي بكر الصديق ولا عمر بن الخطاب رضي الله عنهم أجمعين ولا غيرهم ممن له منزلة في الدين.

وإن كان تبركًا بمجالس العلم والذكر فهذا مشروع، فقد روىٰ مسلم عَن أَبِي هُرَيرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ؛ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**لا يَقعُدُ قَومٌ يَذكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إلاَّ حَفَّتهُمُ المَلائِكَةُ، وَغَشِيَتهُمُ الرَّحمَةُ، وَنَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَن عِندَهُ**».

وكذا التبرك بالتأمين علىٰ دعائهم، فقد روىٰ البخاري عن أم عطية رضي الله عنها عن العَوَاتِق والحيَّض: يخرجن إلىٰ المصلىٰ يكبِّرن مع الناس، بتكبيرهم ويدعون بدعائهم، يرجون بَرَكَةَ ذلك اليوم وطُهرتَه.

شرك الأسباب

- ١ -

معنى السبب

السبب: كل شيء يوصل إلىٰ أمر من الأمور، أو ما يتوصل به إلىٰ المطلوب.

والأسباب نوعان:

أ- أسباب حِسِّيَّة، أدركها الناس بالحس، وعلمت من جهة القدر، أي تقدير الله الكوني، مثل كون النار سببًا للإحراق، أو أن هذا الدواء سبب للشفاء، والمطر سبب للإنبات.

ب- أسباب شرعية: وهي التي دل عليها الشرع مثل الدعاء سبب في جلب الخير ودفع الشر، ومثل قراءة آية الكرسي سبب للحفظ، والرقية الشرعية سبب للشفاء.

- ٢ -

الموقف من الأسباب

١- **الموقف المشروع**: هو قول أهل السنة والجماعة؛ أن الأسباب موجودة، خلقها الله وجعل فيها من القوىٰ ما تحصل بسببها

المُسَبَّبات، وكل ذلك تحت إرادة الله ومشيئته، والمشروع هو الأخذ بالأسباب والعمل بها دون الاعتماد عليها، وإنما يعتمد علىٰ الله وحده، ففي طلب الرزق يفعل أسبابه من الضرب في الأرض والمشي في مناكبها، والأكل من رزقه، ويتوكل علىٰ الله تعالىٰ.

والله جل وعلا أسند الأفعال إلىٰ أسبابها في آيات كثيرة، منها قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [النحل: ٦٥]

وإنما يعتمد علىٰ الله تعالىٰ لأنه هو مسبب الأسباب أي الذي خلق فيها هذه القوة علىٰ إحداث النتائج، وهو القادر علىٰ سلبها إياها كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وقد ينزل المطر ولا تنبت الأرض.

٢- الموقف القائل بتعطيل الأسباب عما أودع الله فيها من القوىٰ، وهو معارض للعقل والشرع، ويقول به طوائف كالأشاعرة والجبرية، فمن الأشاعرة من يقول: إن النتائج تحصل عند الأسباب لا بها، والجبرية يقولون: كل شيء بقدرة الله وليس للمخلوق قدرة ولا إرادة.

وهذا كثير عند طوائف من المتصوفة والمتواكلين، كما وقع من بعض الدجاجلة الكذابين كالحلاج(١) وغيره، يوهمون الناس أن لهم من الصلاح والصدق والمنزلة والكرامة عند الله تعالىٰ ما يجعلهم يستحقون هذه الكرامات، وتأتيهم من غير طلبٍ لأسبابها، ولا سعي في تحصيلها، ويبالغون في ذلك، ويظهرون تعطيل الأسباب بهذه

---

(١) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣١٣) ط. مؤسسة الرسالة.

الأباطيل والخرافات والضلالات، وهم يخادعونهم بطرق ابتكروها، توهم الدهماء بأن هذا الولي لكرامته عند الله يَسَّرَ له من الخير ما لايستطيعه غيره، فكان منهم من يأمر أتباعه وخاصَّته من الدجالين بوضع الطعام في مخبأ في طريق سفره فإذا ما خرج معه أتباعه ومريديه أمرهم ألا يحملوا معهم الزاد، ثم يوهمهم بانصرافه عنهم لحاجة ودعاء واستغاثة ومناجاة ويحضر لهم هذا الطعام، ويقول هذه كرامته عند الله، ولهم في ذلك أعاجيب فكان منهم من يدهن جسمه بدهن الضفادع، ويخفي ذلك، ثم يدخل النار ويزعم أنها لا تضره، وقد ذكر ذلك ابن تيمية عن طائفة من المتصوفة يقال لها: البطائحية[1].

وأما الكرامات التي يهبها الله لبعض الصالحين من عباده فهذه لا تقصد ولا تطلب لذاتها ولا تترك الأسباب لأجلها، وشرطها أن يكون من توهب له الكرامة من المعروفين بالتقوىٰ والصدق، ولهذا مما يؤثر عن السلف كالشافعي والليث بن سعد ووغيرهم: إذا رأيتم الرجل يطير في الهواء ويمشي فوق الماء فلاتغتروا به أو لاتركنوا إليه حتىٰ تعرضوا أمره علىٰ الكتاب والسنة، أو حتىٰ تعلموا وقوفه عند الأمر والنهي. ذكره ابن كثير[2].

ومما يدل علىٰ أمر الله بالأخذ بالأسباب قول الله تعالىٰ لمريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، وقال لأيوب عليه السلام: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [سورة ص: ٤٢]،

(١) «مجموع الفتاوي» (١١/ ٤٦٥).

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٧٨) و«مناقب الشافعي» لابن أبي حاتم (١٤١).

وقال لموسىٰ عليه السلام: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ [الشعراء: ٦٣]، رغم أن هذه الوقائع هي من المعجزات، وقال عن ذي القرنين: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]، وكان نبي الأمة ﷺ يأخذ بالأسباب ويجهز الجيوش وفي معركة أحد ظاهر بين درعين.

قال ابن تيمية: ومما ينبغي أن يعلم ما قاله طائفة من العلماء، قالوا: الالتفات إلىٰ الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنىٰ يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع اهـ[1].

- ٣ -

شرك الأسباب

٣- الموقف الشركي، وهذا له صور:

أ- من يجعل للأسباب صفات تضاهي صفات الربوبية كالتدبير والتصرف في الكون وعلم الغيب والملك، وأنها تستقل بجلب النفع ودفع الضر، فهذا شرك أكبر، لأنها لم تعد مجرد أسباب، كمن يعبد الشمس والقمر والكواكب ونحو ذلك، ومن يتعلق بالأموات في حصول الرزق، والكفاية من مكروه، كتعلُّق عباد القبور بمن فيها عند حلول المصائب، فيُنزِل به خوفَه ورجاءَه وأملَهُ.

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ١٦٩).

ب- من يعتمد علىٰ السبب دون الله، فيتعلق بالسبب، ويغلو فيه ويطمئن إليه ويثق به، ويرىٰ أن النتائج لاتحصل إلا به، مثل أن يقول: لا يُشفىٰ المريض حتىٰ يشرب الدواء، أو لا تنبت الأرض حتىٰ ينزل المطر، وذلك علىٰ وجه الاعتماد علىٰ السبب، فيعتقد أنه لايمكن أن يحصل المطلوب إلا بهذا السبب، فهذا من قبيل الشرك الأصغر، لأن الواجب الاعتماد علىٰ الله تعالىٰ فهو مسبب الأسباب.

ولذا من تعلق شيئًا فجعله أكبر همه واعتمد عليه وعلَّق رجاءه به وكله الله إلىٰ ماتعلق به، وقد روىٰ أحمد (٤/ ٣١٠-٣١١) والترمذي (٢٠٧٢) عن عبد الله بن عكيم مرفوعًا: «من تَعَلَّق شيئًا وُكِلَ إليه». وفي إسناده مَقَالٌ[(١)].

قال المناوي: «تعلق شيئًا»؛ أي تمسك بشيء من المداواة واعتقد أنه فاعل للشفاء أو دافعٌ للداء «وُكِلَ إليه» أي وكل الله شفاءه إلىٰ ذلك الشيء فلا يحصل شفاؤه، ومن تعلقت نفسه بمخلوق غير الله وكله الله إليه، فمن أنزل حوائجه بالله والتجأ إليه وفوَّض أمره كله إليه كفاه كل مؤنة وقرَّب إليه كل بعيد ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره وسكن إلىٰ علمه وعقله واعتمد علىٰ حوله وقوته وكله الله إلىٰ ذلك، وخذله وحرمه توفيقه، وأهمله فلم تصح مطالبه، ولم تتيسر مآربه اهـ[(٢)].

(١) قال ابن البنا: هذا الحديث لا تقل درجته عن الحسن لاسيما وله شواهد تؤيده اهـ «الفتح الرباني» (١٧/ ١٨٨) ط. دار إحياء التراث العربي، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٦/ ١٠٧) وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ فيه ضعف.

(٢) «فيض القدير» للمناوي (٦/ ١٠٧) ط. دار إحياء السنة.

ومن هذا المعنىٰ ما جاء عن ابن عباس من النهي عن قول القائل: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص اهـ وهذا ليس علىٰ إطلاقه وإنما إذا كان علىٰ وجه الاعتماد عليه.

ب- من يعتقد أن بعض الأشياء أسباب، ولم يدل علىٰ كونها سببًا لا دليل شرعي ولا دليل حسي، فهذا شرك أصغر.

وقد سبق في التوكل والتبرك ذكر فروعٍ لهذا النوع.

ومن فروع هذا النوع: الاعتقاد في التَّطَيُّر، والتطير هو تفعُّل من طار يطير، ومعناه: زجر الطير لمعرفة إلىٰ أين يتجه الطير، وبِنَاءً علىٰ هذا الزَّجرِ يُقدِمُ أو يُحجِمُ.

ثم استُعمِل التطيرُ فيما هو أعمُّ من ذلك: وهو التشاؤم بمسموع أو مرئي، أو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص وغيرها.

وحكمه داخل تحت قاعدة شرك الأسباب، لكونه يعتقد في الطير أو غيره سببًا، وهو ليس بسببٍ شرعي ولا حسِّي، قال ﷺ: «**من ردَّته الطيرة من حاجته فقد أشرك**». خرجه أحمد (٢/ ٢٢٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفيه ضعف، لكن روىٰ الترمذي (١٦١٤) وصححه عن ابن مسعود مرفوعًا: «**الطيرة شرك، وما منا إلا ولكنَّ الله يذهبه بالتوكل**». ونقل عن البخاري عن سليمان بن حرب؛ أن آخره مُدرَجٌ من قول ابن مسعود، أي قوله: وما منا. وروىٰ مسلم عن معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه؛ وفيه: قال: قلت: كنا نتطير. قال النبي ﷺ: «**ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يَصُدَنَّكم**».

ومن ذلك: الاعتقاد في التمائم والقلائد والودائع أنها تضر أوتنفع وأنها أسباب للنفع ودفع الضر أو رفعه، وقد وصف الشرع ذلك شركًا، فقال ﷺ: «**إن الرُّقَىٰ والتَّمَائمَ والتِّوَلَةَ شرك**». خرجه أحمد (١/ ٣٨١) وأبو داود (٣٨٨٣). وفي الصحيحين عن أبي بشير الأنصاري؛ وفيه: فأرسل رسولُ الله ﷺ رسولًا، والنَّاس في مَبِيتهِم: «لا يَبقَيَنَّ في رقبة بعيرٍ قلاده من وَتَرٍ أو قلادة إلا قُطِعت». قال مالك: أرىٰ ذلك من العين.

والتمائم: جمع تميمة وهي ما يعلق علىٰ الإنسان أو الحيوان من خَرَزَات ونحوها لدفع الضر أو جلب نفع وتكون من القرآن أو غيره.

وأما تعليق الآيات القرآنية وأسماء الله وصفاته وكتابتها علىٰ الجدران إن كان لتذكير الناظر والجالس فلا بأس بها، وإن كان للزينة والتطريز فالأقرب المنع لئلا تتخذ آيات الله هزوًا، وإن كان للتبرك فهذا محرم لكونه لم يرد الدليل بهذا الوجه من التبرك، وإن كان لدفع العين ونحوه فهو من التمائم.

وقد اختلف أهل العلم في التمائم إذا كانت من القرآن أو التعاويذ والأدعية المأثورة وأسماء الله وصفاته علىٰ قولين:

أحدهما: عدم الجواز، وهو قول ابن مسعود وجماعة من أصحابه، ورواية عن أحمد اختارها كثير من أصحابه وجزم بها المتأخرون، لعموم الأحاديث، وروىٰ وكيع عن ابن عباس قال: اتفل بالمعوذتين ولا تعلق[١]. وعن عقبة بن عامر قال: وضع التميمة من

(١) ينظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٧٩-٨١) ط. مؤسسة قرطبة، و«تيسير العزيز الحميد» (١٦٨).

القرآن شركٌ[1]. وهو الأرجح، لأن الأصل في النهي أنه عام، ولا مخصص صحيح، ولم يثبت كونها سببًا شرعيًا ولا حسيًا، ولأنها قد تتعرض للإهانة وخاصة إذا كانت علىٰ الصبي الصغير، قال ابن العربي: السنة في الأسماء والقرآن الذكر دون التعليق؛ فممنوع اهـ[2].

الثاني: الجواز، وهو مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص وفي إسناده مقال[3]، وهو رواية عن أحمد، ومروي عن عائشة وسعيد بن المسيب وعطاء ومجاهد[4]، وحملوا الحديث علىٰ التمائم الشركية، كالرقية.

---

(١) ينظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٣/ ٨١) وقال: ورویٰ أبوبكر بن أبي شيبة بإسناده . . . فذكره، ولم أقف عليه بهذا اللفظ، وقد رویٰ أحمد (٤/ ١٥٦) عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «من علق تميمة فقد أشرك». قال الهيثمي: ورجال أحمد ثقات. «مجمع الزوائد» (٥/ ١٠٣). ط. دار الكتاب العربي.

(٢) ينظر: «فيض القدير» للمناوي (٦/ ١٠٧) ط. دار إحياء التراث.

(٣) خرجه أحمد (٢/ ١٨١) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٣٨٩٤) وأبو داود (٣٨٩٣) والترمذي (٣٥٢٨) من طريق محمد ابن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: إذا فزع أحدكم في النوم فليقل: «**أعوذ بكلمات** . . .». فكان عبد الله يلقِّنها من بلغ من ولده، ومن لم يبلغ منهم كتبها في صَكٍّ ثم علَّقها في عنقه. قال الترمذي: هذا حديث حسن وغريب اهـ وابن إسحاق رواه بالعنعنه، وهومعروف بالتدليس.

(٤) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (١٦٨)، والآثار عنهم عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/ ٣١-٣٢) ط. مكتبة الرشد.

كما اختلف السلف في كتابة القرآن والأدعية والتعاويذ المأثورة تُكتب في صحيفة ثم تغسل ثم يُسقىٰ بها المريض ونحوه، فمنهم من أجازه، وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير، ومنهم من منعه، وهو مروي عن إبراهيم النخعي(١).

ولا يجوز التبرك بوضع المصحف علىٰ السيارة أوفي مكان من البيت وهو لا يُقرأ، إذا كان الغرض منه مجرد التبرك أو دفع العين.

وأما القراءةُ والنَّفْثُ في مأكولٍ أو مشروبٍ ثم تناوله فالصواب أنه جائز، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا اشتكىٰ الإنسانُ منه أو كانت به قرحَةٌ أو جرحٌ قال النبي ﷺ بإصبَعِهِ هكذا -فوضع سفيان سبابته بالأرض ثم رفعها-: «باسم الله، تُربةُ أرضِنَا بِرِيقَةِ بعضنا، يُشفَى سقيمُنَا، بإذن ربنا».

- ٤ -

الاعتقاد الصحيح في الأسباب

الاعتقاد الصحيح المشروع في الأسباب هو:

١- أن الأسباب مخلوقة وركب الله فيها من القوىٰ ما يجعلها تنتج مسبباتها.

٢- أن الأسباب لا تكون أسبابًا إلا ما دل علىٰ سببيته الشرع أو الحس والقدر.

---

(١) ينظر: «المصنف» لابن أبي شيبة (٨/ ٢٥) ط. مكتبة الرشد.

٣- يشرع الأخذ بالأسباب وعدم الاعتماد عليها، بل يعتمد علىٰ مسبب الأسباب وهو الله تعالىٰ.

- ٥ -

الـرُّقَـى

وهي من أسباب الشفاء، وهي: ما يقرأ علىٰ المريض لأجل الشفاء.

وحكمها: جائزة، وقد رقىٰ جبريلُ النبيَّ ﷺ، وأَذِنَ النبيُّ ﷺ بالرُّقْيَةِ[(١)].

ولها ثلاثة شروط، حكىٰ السيوطي الإجماع عليها في الجملة[(٢)] وهي:

١- ألا تخالف الكتاب والسنة، والأفضل أن تكون بالمأثور منها لقوله في الحديث: إنا نرقي في الجاهلية، فقال: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيه شركٌ**» رواه مسلم عن عوف بن مالك الأشجعي.

٢- أن تكون معلومة، فإن اشتملت علىٰ تمتمات وطلاسم فهذه من أعمال الكهان والمشعوذين والعرافين، والأفضل أن تكون بالعربية

---

(١) «صحيح مسلم» (٢١٨٥) (٢١٨٦) (٢١٩١) (٢١٩٢).

(٢) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (١٦٦-١٦٧).

فإن كانت بغير العربية فقد كرهها أهل العلم لأن الكلام العربي هو لغة القرآن وجاءت به الآثار.

٣- ألا يعتمد عليها ولا علىٰ القارئ ولا يتعلق به، بل يعتمد علىٰ الله فهي سبب للشفاء والله هو مسبب الأسباب، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها.

شرك الألفاظ

- ١ -

شرك الأيمان

الأيمان جمع يمين، وهي: تأكيد لفظي بذكر معظَّم علىٰ وجه مخصوص.

والحلف واليمين والأليَّة مترادفات، والحلف ليس من جنس العبادات بل هو تأكيد لفظي بذكر معظم، ولكون صيغة اليمين قد تدل علىٰ التعظيم كانت علاقته بالتوحيد.

- ٢ -

أحوال اليمين

أ- الحلف بالله تعالىٰ أو صفة من صفاته، وهذا هو المشروع.

ب- الحلف بغير الله محرم، وحكىٰ ابن عبد البر الإجماع علىٰ أنه منهي عنه(١)، وقال ابن تيمية: الحلف بالمخلوقات حرام عند

(١) ينظر: التمهيد (١٤/ ٣٦٦-٣٦٧-٣٦٨). وقال أيضا: لايجوز الحلف بغير الله بالإجماع.

الجمهور، وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد، وقد حُكي إجماع الصحابة علىٰ ذلك، وقيل: هي مكروهة كراهة تنزيه، والأول أصحُّ اهـ[1].

ولليمين أحوال:

الحالة الأولىٰ: الحلف بغير الله علىٰ وجه التأكيد اللفظي فهذا شرك أصغر، لقوله ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**». خرجه أحمد **(٣/ ١٢٤)** عن ابن عمر، وقد تُكلم فيه من جهة إسناده ومتنه، ويدل علىٰ أنه من الأصغر قولُ ابن عباس وسيأتي قريبًا.

وقال ابن مسعود أو ابن عمر: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا. رواه عبد الرزاق **(١٥٩٢٩)** عن الثوري عن أبي سلمة عن وَبَرَةَ به، وذلك لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر في الجملة، كما قرره غير واحد من الأئمة، قال ابن تيمية: وذلك لأن الحلف بغير الله شرك، والشرك أعظم من الكذب، قال: فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك اهـ[2].

وروىٰ النسائي **(٣٧٧٣)** وأحمد **(٦/ ٣٧١)**؛ عن قُتَيلة امرأة من جهينة؛ أن يهوديًا أتىٰ النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون تقولون: ماشاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «**ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء ثم شئت**». وصححه ابن حجر في الإصابة، في ترجمة «قتيلة».

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٢٠٤).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٢٠٤) و«تيسير العزيز الحميد» (٦٠٠).

وجاء عن كعب رضي الله عنه قال: إنكم تشركون في قول الرجل: كلا وأبيك، كلا والكعبة، كلا وحياتك وأشباه هذا، احلف بالله صادقا أو كاذبًا، ولاتحلف بغيره. رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» **(٣٥٩)** عن العلاء بن المسيب عنه. وفي الصحيحين عن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله: «**إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم**». وفيهما عن أبي هريرة عنه قال: «**من حلف منكم فقال في حلفه: باللات، فليقل: لاإله إلا الله**» الحديث، ولولا أنه جاء بما يقدح في التوحيد لما أمره أن يجدد إيمانه بقول كلمة التوحيد.

وروىٰ أبو داود **(٣٢٥٣)** عن بريدة مرفوعًا: «**من حلف بالأمانة فليس منا**».

وقد تقوم قرينة علىٰ أن الحالف بغير الله مُعَظِّمٌ للمحلوف به كتعظيم الله، كمن يحلف بصاحب القبر أو السيد أو الولي وفي حلفه من الرهبة والرغبة ما إن أحدهم ليستسهل أن يحلف بالله كاذبًا، ولا يحلف بهذا المخلوق كاذبًا فهذا شرك أكبر، قال ابن رشد: والمحظورة أن يحلف باللات والعزىٰ والطواغيت أو شيء مما يُعبدُ من دون الله تعالىٰ، لأن الحلف بالشيء تعظيمٌ له، والتعظيم لهذه الأشياء كفر بالله تعالى اهـ[1]. وقال ابن حجر: فإن اعتقد في المحلوف فيه من التعظيم ما يعتقده في الله حرُم الحلف به، وكان بذلك الاعتقاد كافرًا، قال: وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم

(١) «المقدمات الممهدات»: (١/٤٠٨).

المحلوف به علىٰ مايليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك، ولاتنعقد يمينه اهـ[1].

الحالة الثانية: الحلف بغير الله علىٰ وجه اللغو، ومايكون دارجًا علىٰ اللسان، فهذا محرم علىٰ الصحيح، لأنه داخل في النهي عن الحلف بغير الله كما في الصحيح.

وأما حديث: «**أفلح وأبيه إن صدق**»، و«**وأبيك لتنبأنه**»، فقد رواه مسلم، وهذا علىٰ الأرجح كان في أول الأمر ثم نسخ ونهي عنه، وهو يدل علىٰ أن ماجرىٰ علىٰ اللسان فهو محرم وليس بشرك، لأن النبي ﷺ لا يمكن وقوع الشرك منه ولو قبل النهي عنه. فدل ذلك علىٰ أنه مما يجري علىٰ اللسان.

والحلف بآيات الله إن كان المراد بها الشرعية فجائز لأن الكلام من صفات الله تعالىٰ والقرآن كلامه، وكذا الحلف بصفات الله جائز، وإن كان المراد آيات الله الكونية فهذا محرم، لكونها مخلوقات.

ولا ينعقد الحلف بغير الله ولا كفارة فيه هذا هو الراجح.

- ٣ -

أنواع أخرى من شرك الألفاظ

١- **قول: ما شاء الله وشاء فلان**، والتوحيد أن يقول: ما شاء الله وحده، أو: ماشاء الله ثم فلان.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٦٥٢) ط. دار الكتب العلمية.

٢- قول: لولا كذا -من الأسباب- لوقع كذا، مثل: لولا كلب الحراسة لأتانا اللصوص. وسبق في الأسباب أن يقولها علىٰ وجه الاعتماد، والتوحيد أن يقول: لولا الله ثم كذا.

٣- قول: أعوذ بالله وبك، والتوحيد أن يقول: أعوذ بالله وحده، أو: أعوذ بالله ثم بك.

٤- قول: حسبي فلان، والتوحيد أن يقول: حسبي الله وحده.

دليل ذلك: ما رواه أبو داود **(٤٩٨٠)** عن حذيفة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**».

وروىٰ أحمد **(١/ ٢٨٤)** عن ابن عباس؛ أن رجلًا قال: يا رسول الله؛ ما شاء الله وشئت. فقال: «**جعلتني لله عدلًا؟! ما شاء الله وحده**».

وروىٰ ابن أبي الدنيا في «الصمت» **(٣٤٧)** عن مغيرة قال: كان إبراهيم-النخعي- يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك، ويرخص أن يقول: أعوذ بالله ثم بك. ويكره أن يقول: لولا الله وفلان، ويرخص أن يقول لولا الله ثم فلان.

وروىٰ ابن أبي حاتم[1] عن ابن عباس ﵄ في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، قال: الأنداد هو: الشرك أخفىٰ من دبيب النمل علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يافلانة، وحياتي. وتقول: لولا كلبة هذا لأتانا

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٧) وساق سند ابن أبي حاتم.

اللصوص، ولولا البط في الدار لأتىٰ اللصوص، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان، هذا كُلُّهُ به شِركٌ[(١)].

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٥٩٤). وقال: سَنَدُهُ جيد.

الغلو

- ١ -

معنى الغلو

الغلو: قال ابن فارس: أصل صحيح يدل علىٰ مجاوزة الحد والقَدر اهـ.

وقال ابن تيمية: هو مجاوزة الحَدِّ بأن يُزَاد في حمده أو في ذمِّهِ علىٰ ما يستحق اهـ[١]. وأصله مأخوذ من غَلوَةِ السهم، يقال: غلا بسهمه غَلوًا؛ إذا رمىٰ به أبعد ماقدر عليه، أي ارتفع في ذهابه وجَاوَزَ المدىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ [طه: ٨١] فسر بعض أهل العلم الطغيان بالغلو والتجاوز إلىٰ مالا يجوز. وضابطه: تعدي ما أمر الله به[٢].

ومن الألفاظ التي لها علاقة بالغلو: المبالغة والتَّشَدُّد والتَّنَطُّع والتعمُّق والتكلف والإطراء.

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٨٩) تحقيق الدكتور العقل.

(٢) ينظر: «الجامع» للقرطبي (١١/ ٢٣٠).

- ٢ -

أنواع الغلو

أ- غلو اعتقادي: يتعلق بالجانب الاعتقادي وكليات الشريعة وأصولها كغلو الخوارج والمرجئة والصوفية وأشدُّ من ذلك غلو الرافضة والجهمية.

والغلو الاعتقادي قد يكون كفرًا وشركًا، وقد يكون وسيلة من وسائل الكفر والشرك، ومن صوره:

١- الغلو في المخلوق وتسويته بالخالق في شيء من أفعال الربوبية وهذا شرك وكفر، كما يحصل عند غلاة الصوفية من ادعاء أوصاف لبعض المخلوقين كالقطب الفرد والغوث الجامع والأوتاد، ومثل ذلك ما يقع عند الباطنية وغلاة الطوائف المبتدعة، فإنهم يجعلون للأولياء والسادة والأئمة من العصمة وعلم الغيب والتدبير والحفظ ما هو معلوم.

٢- الغلو في الأنبياء والرسل، أو في غيرهم من البشر ورفعهم فوق منزلة العبودية، وجعلهم في منزلة الألوهية كما فعلت النصارىٰ مع عيسىٰ عليه السلام، وكما فعلت السبئية مع علي رضي الله عنه، وكما يفعله من يغلو في الأولياء والقبور ويجعل لهم الأضرحة يطوفون عليها ويقدمون لها القرابين.

٣- الغلو في الطاعة بحيث يُطاع المخلوق فيما لا يطاع فيه إلا الله جل وعلا، كما أطاعت النصارىٰ الرهبان والأحبار.

٤- الغلو في فهم النصوص الشرعية، كالغلو في نصوص الوعيد وتكفير الناس بها، ويقابله الغلو في نصوص الوعد، وتهوين المعاصي علىٰ العصاة.

٥- الغلو في تأويل النص، كما عند أرباب التأويل الذين غلو في صرف النصوص عن المعاني الظاهرة التي تدل عليها اللغة والشرع من غير دليل إلا ما تقرر عندهم من أصول مخالفة للكتاب والسنة وسنن السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان.

ب- غلو عملي: وله صور كثيرة منها:

١- الغلو في العبادة، بالمبالغة فيها، كمن يصوم الدهر لايفطر، أو يقوم الليل لاينام، أو يبتدع فيها مالم يرد به نص أو دليل.

٢- الغلو في تحريم الحلال أو إيجاب المباح والمسنون.

٣-الغلو في ترك المباحات كالزواج ونحوه.

٤-الغلو في التمذهب والتعصب المذهبي.

- ٣ -

التحذير من الغلو

الغلو فتنة ابتليت بها الأمم والطوائف والجماعات، وابتلي بها الأبرار والفجار، وامتحن به كثير من المنتسبين إلىٰ الرسل، قال الله

تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، فالنصارىٰ غلت في عيسىٰ عليه السلام حتىٰ جعلته إلهًا، واليهود غلت فيه حتىٰ جعلته من سفاح.

قال القرطبي: فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر، ولذا قال مطرف ابن عبد الله: الحسنة بين سيئتين اهـ[(١)].

وقد روىٰ أحمد (١/ ٢١٥) وابن ماجه (٣٠٢٩) عَن ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ العَقَبَةِ وَهُوَ عَلَىٰ نَاقَتِهِ: «**الْقُط لِي حَصًىٰ**»، فَلَقَطتُ لَهُ سَبعَ حَصَيَاتٍ، هُنَّ حَصَىٰ الخَذفِ، فَجَعَلَ يَنفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ، وَيَقُولُ: «**أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارمُوا**»، ثُمَّ قَالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهلَكَ مَن كَانَ قَبلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ**». قال ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم[(٢)]: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

قال ابن تيمية عن غلو الخوارج: فإذا كان علىٰ عهد النبي ﷺ من انتسب إلىٰ الإسلام وقد مَرَقَ منه، مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلىٰ الإسلام والسنة في هذا الزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام، وذلك بأسباب منها: الغلو الذي ذمَّه الله في كتابه اهـ[(٣)].

---

(١) السابق (٦/ ٢١)

(٢) (١/ ٢٨٩).

(٣) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» سليمان بن عبد الله (٢٣٠)، نقله عن: «الرسالة السنية». لابن تيمية.

- ٤ -

الغلو في الصالحين

للغلو في الصالحين حالات، منها:

١- غلو شركي، وذلك بأن يعتقد أن لهم من القدرة والتدبير ما لا يكون إلا لله تعالىٰ، فيدعوهم أو يستغيث بهم، أو يطيعهم كطاعة الله تعالىٰ، وفي قصيدة البردة للبوصيري في مدح النبي ﷺ والتي تقرأ في الموالد ماهو من قبيل الشرك، فمنها قوله[١]:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم

٢- غلو بدعي؛ كأن يتبرك بذواتهم.

٣- غلو معصية في إطرائهم الشديد والمبالغة في مدحهم والثناء عليهم.

- ٥ -

النهي عن مدح الشخص وإطرائه

الأصل في المديح والإطراء والشخص حاضر أنه منهي عنه،

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٢٢٤).

للأحاديث الواردة في الباب في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلًا يثني علىٰ رجلٍ ويُطريه في المدحة فقال: «**لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل**».

والنهي عن ذلك لأمرين:

١- لما يفضي إليه من الغلو في الشخص.

٢- ولأنه يؤدي إلىٰ الإعجاب بالنفس.

ويكون المدح والثناء جائزًا بقيود وضوابط:

أ- أن يعلم المادح أن الممدوح لا يستهويه المدح ولا يضره.

ب- أن لا يقول إلا حقًا.

ج- أن لايبالغ في المدح والإطراء، فذلك غلوٌّ منهيٌّ عنه مطلقًا؛ فقد روىٰ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه عن عمر رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: «**لا تُطرُوني كَمَا أَطرَت النَّصَارَىٰ ابنَ مَريَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبدُهُ، فَقُولُوا عَبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**».

ويدل علىٰ الجواز بالضوابط السابقة: قول النبي ﷺ لأشجِّ عبد القيس: «**إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحِلْمُ والأنَّاة**». رواه مسلم، وأثنىٰ علىٰ صوت أُبيٍّ بن كعب بالقرآن، وفَضَّل عائشة علىٰ النساء، ومدح آخرين كما هو معلوم مستفيض في السنة في المناقب والفضائل وغيرها.

فإن كان الثناء علىٰ طائفة أو قوم أو جماعة جاز ذلك مطلقًا، وقد حفلت السنة بمثل هذا الثناء، كثنائه ﷺ علىٰ الأشعريين، وعلىٰ دور الأنصار، وعلىٰ نساء قريش، وعلىٰ غفار وأسلم وأحاديثهم في الصحيحين.

من وسائل الشرك والكفر

- ١ -

حكم الوسائل

دلت الأدلة والنصوص علىٰ أن وسائل الشرك محرمة، لأن لها أحكام المقاصد، ولأن ما لا يتم المحرم إلا به فهو محرم.

والوسائل قد تكون شركًا أصغر يفضي إلىٰ الأكبر، فإنه يعتبر من وسائله، كما أن المعاصي والبدع وسائل إلىٰ الشرك الأصغر والأكبر.

وحكمة المنع منها سدُّ الطريق الموصلة إلىٰ الشرك والكفر.

من ذلك: التبرك والتوسل بذوات العلماء والصالحين، والتوسل والتبرك من أعظم وسائل الشرك، وقد سبق بيانه.

- ٢ -

شواهد على هذا الأصل

١- **النهي عن الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله**؛ لحديث ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل علىٰ عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلًا ببوانة، فأتىٰ النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلًا ببوانة. فقال

النبي ﷺ: «**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**» قالوا: لا. قال: «**هل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: «**أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم**». رواه أبو داود (٣٣١٣)، وصححه ابن حجر[(١)].

٢- الأمر بطمس الصور، والمقصود بذلك الصور التي تعظم كالتماثيل المنصوبة والصور المعلقة ونحوها.

ففي صحيح مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثُك على ما بعثني عليه رسولُ الله ﷺ؛ أَن لا تَدَعَ تِمثالًا إلا طَمَستَهُ، وَلا قبرًا مُشرِفًا إلا سَوَّيتَهُ. وفي رواية: وَلا صُورَةً إلا طَمَستَهَا.

وعن عائشة رضي الله عنها تَقُولُ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَد سَتَرتُ سَهوَةً لِي بِقِرَام فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ هَتَكَهُ، وَتَلَوَّنَ وَجهُهُ، وَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ؛ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِندَ اللَّهِ يَومَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلقِ اللَّهِ**». قَالَت عَائِشَةُ: فَقَطَعنَاهُ، فَجَعَلنَا مِنهُ وِسَادَةً أَو وِسَادَتَينِ. وفي رواية للبخاري: فاتَّخذتُ منه نُمرُقَتينِ، فكانتا في البيت يجلِسُ عليهما. وزاد مسلم من طريق آخر: قالت: فأخذتُهُ فجعلتُهُ مِرفَقَتينِ، فكان يرتفِق بهما في البيت.

٣- الأمر بتسوية القبور المشرفة، لكي لا تُعظَّم، كما سبق عن أبي الهياج عن علي رضي الله عنه، وروىٰ مسلم عَن ثُمَامَةَ بنِ شُفَيٍّ قَالَ: كُنَّا مَعَ فَضَالَةَ بنِ عُبَيدٍ رضي الله عنه بِأَرضِ الرُّومِ بِرُودِسَ، فَتُوُفِّيَ صَاحِبٌ لَنَا، فَأَمَرَ

(١) «تلخيص الحبير» لابن حجر (٤/ ٤٣٩) ط. دار الكتب العلمية.

فَضَالَةُ بن عبيدٍ بِقَبرِهِ فَسُوِّيَ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأمُرُ بِتَسوِيَتِهَا. وروىٰ مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: نَهَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أن يُجَصَّصَ القَبرُ، وَأن يُقعَدَ عَلَيهِ، وَأن يُبنَىٰ عَلَيهِ.

٤- النهي عن عبادة الله عند القبور وفي المقابر:

وعن اتخاذ القبور مساجد، ومن شواهد ذلك: ما جاء في الصحيحين عن عَائِشَةَ؛ أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَينَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ أُولَئِك إِذَا كَانَ فِيهِم الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوا عَلَىٰ قَبرِهِ مَسجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلكِ الصُّوَرَ، أُولَئِك شِرَارُ الخَلقِ عِندَ الله يَومَ القِيَامَةِ**».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

وروىٰ مسلم عن أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لا تَجلِسُوا عَلَىٰ القُبُورِ، وَلا تُصَلُّوا إِلَيهَا**». وفي صحيح البخاري: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأىٰ أنس بن مالك يصلي عند قبرٍ، فقال: القبر القبر.

وليست علة النهي اتقاء النجاسة، فإن هذا من النادر الذي لايُلتفت إليه، ولا يُعَلِّقُ الشارعُ علىٰ النادرِ حُكمًا، ومن تأمل النصوص علم أن العلة هي درء الفتنة والشرك وحماية التوحيد، يدل عليه المبالغة في النهي واللعن(١).

(١) وبه عَلَّلَ الشافعي وأبو بكر بن الأثرم وابن قدامة المقدسي وابن تيمية وابن القيم وغيرهم ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٣٣١).

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**الأرض كلها مسجد إلا الحمام والمقبرة**» رواه أبو داود (٤٩٢) والترمذي (٣١٧) ورجح أنه مرسل، وقال ابن تيمية[(١)]: أسانيده جيدة.

وقد نهىٰ الشارع عن زيارة القبور سدًّا لذريعة الشرك في أول الأمر ثم نسخ ذلك إلىٰ الجواز، فعَن بُرَيدَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**كُنتُ نَهَيتُكُم عَن زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا**». رواه مسلم.

قال أبو يعلىٰ الموصلي: حَدَّثَنَا أَبُو بَكرِ بنُ أَبِي شَيبَةَ، حَدَّثَنَا زَيدُ بنُ الحُبَابِ، حَدَّثَنَا جَعفَرُ بنُ إِبرَاهِيمَ، مِن وَلَدِ ذِي الجَنَاحَينِ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَلِيُّ بنُ عُمَرَ، عَن أَبِيهِ، عَن عَلِيِّ بنِ حُسَينٍ، أَنَّهُ رَأَىٰ رَجُلا يَجِيءُ إِلَىٰ فُرجَةٍ كَانَت عِندَ قَبرِ النَّبِيِّ ﷺ، فَيَدخُلُ فِيهَا فَيَدعُو فَنَهَاهُ، فَقَالَ: أَلا أُحَدِّثُكُم حَدِيثًا سَمِعتُهُ مِن أَبِي، عَن جَدِّي، عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لا تَتَّخِذُوا قَبرِي عِيدًا، وَلا بُيُوتَكُم قُبُورًا، فَإِنَّ تَسلِيمَكُم يَبلُغُنِي أَينَمَا كُنتُم**». ورواه الضياء في المختارة[(٢)].

وزيارة القبور لها أحكام:

أ- زيارة شرعية: لتذكر الآخرة أو الدعاء لأصحاب القبور والسلام عليهم.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦٧٢).

(٢) قال الهيثمي: رواه أبو يعلىٰ وفيه حفص [والصواب جعفر] ابن إبراهيم الجعفري ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا وبقية رجاله ثقات. «مجمع الزوائد» (٤/ ٣) وقال ابن حبان: يعتبر بحديثه من غير روايته عن أبيه. «لسان الميزان» (٢/ ١٠٦) ط. دار الكتاب الإسلامي.

ب- زيارة بدعية: كاعتقاد أن العبادة والدعاء عندها أفضل، أو التوسل إلىٰ الله بأهلها والتمسح بها وإسراجها والبناء عليها.

ج- زيارة شركية: كدعاء أصحاب القبور أو الطواف بها والتقرُّب لها.

٥- **النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها**: فقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر وعائشة ﵄ النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها وتحري ذلك. وفي الصحيحين عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وغيرهم نحوه. وجاء في الصحيح بيان علة النهي، في قوله ﷺ: «**فَإِنَّهَا تطلُعُ حِينَ تَطلُعُ بَينَ قَرنَي شَيطَانٍ، وَحِينَئِذٍ يَسجُدُ لَهَا الكُفَّارُ**»، وفيه: **حَتَّىٰ تُصَلِّيَ العَصرَ، ثُمَّ أَقصِر عَنِ الصَّلاةِ حَتَّىٰ تَغرُبَ الشَّمسُ، فَإِنَّهَا تَغرُبُ بَينَ قَرنَي شَيطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسجُدُ لَهَا الكُفَّارُ**».

٦- **النهي عن التشبه بالكافر ومحاكاته**، وفيه تفصيل سبق ذكره في نواقض الإيمان.

٧- **تحريم التسمية بالعبودية لغير الله**، قال ابن حزم: اتفقوا علىٰ تحريم كل اسم معبَّدٍ لغير الله، كعبد العزىٰ، وعبد هبل، وعبد عمرو، وعبد الكعبة وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب اهـ[1].

٨- **النهي عن أعياد المشركين**:

العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام علىٰ وجه معتاد. ذكره

(١) «مراتب الإجماع» لابن حزم (١٥٤) ط. دار الكتاب العربي.

ابن تيمية[1]، فهو مأخوذ من العود وهو التكرار، لأنه يذهب ويعود، فيتفاءل بعودته مرة بعد أخرىٰ، سواء في كل أسبوع أو كل شهر أو كل سنة أو كل خمسين سنة.

فالعيد لا يسمىٰ عيدًا إلا إذا اشتمل علىٰ أمور ثلاثة:

١- أنه يعود ويتكرر.

٢- أنه يحصل في هذا العيد اجتماع عامٌ، وليس مقصورًا علىٰ جماعة معينين.

٣- أنه يحصل فيه أعمال من عبادات وعادات كفرحٍ عامٍ وتهنئة.

وقد يكون العيد مختصًا بزمان كعيد الفطر والأضحىٰ.

وقد يكون العيد مختصًا بمكان، قال ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدًا**». رواه أبوداود (٢٠٤٢) عن أبي هريرة بسند جيد.

ولأهل الإسلام عيدان: الفطر والأضحىٰ.

والعيد يعتبر في الإسلام من الشعائر الظاهرة ولهذا قال ﷺ: «**إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا**». متفق عليه.

يتعلق بالعيد أحكام:

١- العيد المشروع، وهو عيد الفطر والأضحىٰ، فإظهار هذه الشعيرة واجب، فالتكبير وزكاة الفطر وذبح النسك وصلاة العيد

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/٤٤١-٤٤٢).

وحضورها والتجمل لها والخروج لها من طريق والعودة من آخر يدل علىٰ تأكد ذلك، وصلاتها فرض كفاية علىٰ الراجح.

٢- أعياد المشركين التي هي من خصائصهم تحرم مشاركتهم فيها، وقد يكون شركًا وكفرًا -كما سبق في النواقض-، لما تشتمل عليه من الأقوال والأعمال التي تتعلق بدينهم وعبادتهم وطقوسهم ومعتقداتهم الكفرية، وأما إن كان عيدًا لا يرتبط بدين وعبادة، كأعياد الثورة والاستقلال وغير ذلك فهذا محرم، لما فيه من التشبه بهم، ولما فيه من إحداث عيد ثالث لم يأت به الشرع.

٣- أعياد في بلاد المسلمين، لكنها محدثة كعيد الثورة والاستقلال، فهذا يعتبر عيدًا لوجود القيدين: العود والتكرار، وأنه يتعلق بالعموم فهو اجتماع عام، وهو محرم وبدعة، لأن الأصل في أعياد أهل الإسلام أنها من الدين وأنها من الشعائر الظاهرة التي يجب التزامها وعدم تجاوزها، يقول الشاطبي في تعريف البدعة: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها مايقصد بالطريقة الشرعية.

وقد صح عن أنس ﵁ قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال: «**قد أبدلكم الله بهما خيرًا منهما: يوم الأضحىٰ ويوم الفطر**». خرجه أبوداود (١١٣٤) والنسائي (١٥٥٦) وصحح إسناده ابن حجر[(١)].

---

(١) «بلوغ المرام» لابن حجر (١٧٢) ط. مكتبة الرشد.

ومثل ذلك ما يسمىٰ بالعيد الوطني ونحوه، فإنه يتكرر ويحتفل به احتفالًا عامًّا. ونحو ذلك عيد الأم والمعلم فإنه يحصل فيها احتفاء عام بالأم والمعلم وتهنئة وهدايا، وقد يسمىٰ يوم الأم ويوم المعلم، والعبرة بالمعاني لا بالألفاظ.

فإن لم يحصل من ذلك شيء وإنما كان القصد إظهار مكانة الأم والمعلم ومنزلتهما وتكريمهما فيحتمل الجواز، ومن أهل العلم من رأىٰ المنع منه مطلقًا، لما فيه من التشبه بالكفار في أعيادهم، ولأنه يطلق عليه عيد، وأجيب: بأن التشبه لايقال إلا في أمر اختص به الكفار، وهذا لم يختصوا به، وأما شبهه بالعيد فهو بعيد، لكونه لم يحصل فيه احتفال عام وتهنئة وفرح ونحو ذلك.

ونحو ذلك عيد الميلاد الخاص بشخص معين، فإنه ليس فيه اجتماع عام واحتفال عام، فقيل بجوازه، وقيل بتحريمه للعلة السابقة، وهي التشبه بالكفار، ولأن فيه شائبة الفرح والتهنئة التي تجعله أشبه بالعيد، والأحوط ترك ذلك كُلِّهِ.

٩- النهي عن القيام علىٰ الشخص:

أحوال قيام الشخص للشخص ثلاثة[١]:

أ- أن يقوم عليه.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (١/ ٣٧٤-٣٧٥-٣٧٦)، و«عون المعبود» (١٤/ ٨٤-٩٥)، وبهامشه «تهذيب السنن» لابن القيم ط. دار الكتب العلمية، و«فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٥٩-٦٠-٦١) ط. دار الكتب العلمية، شرح حديث رقم (٦٢٦٢).

ب- أن يقوم إليه.

ج- أن يقوم له.

فالأول: محرمٌ؛ وهو الذي يصنع للملوك والجبابرة، وذلك بأن يقوم علىٰ رأس الرجل وهو جالس، ولذلك نهىٰ النبي ﷺ عنه، ولو كان ذلك في الصلاة سدًّا لذريعة التعظيم، فعَن جَابِرِ بنِ عبد اللهِ رضي الله عنه قَالَ: اشتَكَىٰ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّينَا وَرَاءَهُ وَهُوَ قَاعِدٌ، وَأَبُو بَكرٍ يُسمِعُ النَّاسَ تَكبِيرَهُ، فَالتفَتَ إِلَينَا فَرَآنَا قِيَامًا فَأَشَارَ إِلَينَا، فَقَعَدنَا، فَصَلَّينَا بِصَلاتِهِ قُعُودًا، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ: «**إِن كِدتُم آنِفًا لَتَفعَلُونَ فِعلَ فَارِسَ وَالرُّومِ يَقُومُونَ عَلَىٰ مُلُوكِهِم وَهُم قُعُودٌ، فَلا تَفعَلُوا** . . .» الحديث رواه مسلم، ثم رخص في ذلك كما في صلاته بهم وهو جالس في مرضه الذي توفي منه وهم قيام، ولم يأمرهم بالجلوس، فقد ذهب ما كان يحذر لقوة إيمان أصحابه، وتمام الدين.

والثاني: القيام للضيف والقادم من سفر ومغيبة ونحوهم تلقيًا لهم، وهذا جائزٌ وحسن، قال ابن القيم: هو سنة العرب، وأحاديث الجواز تدل عليه اهـ كما قام طلحة لكعب بن مالك عندما تاب الله عليه، وحديثه في الصحيحين، وفيه: فَقَامَ طَلحَةُ بنُ عُبَيدِ الله يُهَروِلُ، حَتَّىٰ صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ رَجُلٌ مِن المُهَاجِرِينَ غَيرُهُ، قَالَ: فَكَانَ كَعبٌ لا يَنسَاهَا لِطَلحَةَ. وفي الصحيحين عن أبي سَعِيدٍ الخُدرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: نَزَلَ أَهلُ قُرَيظَةَ عَلَىٰ حُكمِ سَعدِ بنِ مُعَاذٍ، فَأَرسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَىٰ سَعدٍ، فَأَتَاهُ عَلَىٰ حِمَارٍ، فَلَمَّا دَنَا قَرِيبًا مِن المَسجِدِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلأَنصَارِ: «**قُومُوا إِلَىٰ سَيِّدِكُم، أَو خَيرِكُم**». وروىٰ النسائي في السنن الكبرىٰ (**٨٣٦٩**) عن عائشة رضي الله عنها قالت: وكانت -أي

فاطمة- إذا دخلت علىٰ النبي ﷺ قام إليها وقبلها، وأجلسها في مجلسه، وكان النبي ﷺ إذا دخل عليها قامت من مجلسها، فقبلته وأجلسته في مجلسها.

والثالث: القيام له، والفرق بينه والذي قبله، أن الذي قبله قيام له لتلقيه ومقابلته كالمسافر والضيف، وأما هذا فقيام له عند رؤيته تقديرًا وإجلالًا، كما يقوم الطالب لمعلمه، والصغير للكبير، والولد لوالده، والزوج لزوجه، وهو محل الخلاف، فذكر ابن القيم أنه منهي عنه، وروىٰ البخاري في الأدب المفرد (٩٧٧) -باب: قيام الرجل للرجل تعظيمًا- عن معاوية رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**من سَرَّهُ أن يَمثُلَ له عباد الله قيامًا فليتبوأ بيتًا من النار**». قال ابن القيم: فالمذموم القيام للرجل، وأما القيام إليه للتلقي إذا قدم فلابأس به اهـ.

وأما النووي فرأىٰ استحباب القيام للداخل إذا كان فيه فضيلة ظاهرة من علم أوصلاح أو شرف أو ولاية، ويكون هذا القيام للبر والإكرام لا للرياء والإعظام، وكذا قال ابن بطال وابن قتيبة نحو كلام النووي، وأن النهي إنما هو عن القيام علىٰ رأسه وهو جالس، ورجحه المنذري، وتعقبه ابن الحاج في «المدخل» ورد كلام النووي وما استدل به.

والأقرب أن ذلك يختلف باختلاف الحال، فإن أحب الشخص أن يتمثل الناس له قيامًا أو كان في القيام له تعظيمٌ أو تذللٌ فهذا محرم، للحديث السابق.

ولذا أنكر مالك القيام لأجل الشخص حتىٰ يجلس ولو كان في شغل نفسه، فإنه سئل عن المرأة تبالغ في إكرام زوجها فتتلقاه وتنزع

ثيابه وتقف حتىٰ يجلس، فقال: أما التلقي فلا بأس به، وأما القيام حتىٰ يجلس فلا فإن هذا فعل الجبابرة، وقد أنكره عمر بن عبد العزيز[(١)].

وأما إن كان بلا محبة منه للقيام ولم يكن فيه تعظيم وتذلل فالأولىٰ تركه لما فيه من اتباع ما كان عليه الصحابة الكرام، فعن أَنَسٍ قَالَ: لَم يَكُن شَخصٌ أَحَبَّ إِلَيهِم مِن رسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوهُ لَم يَقُومُوا لِمَا يَعلَمُونَ مِن كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ. رواه الترمذي (٢٧٥٤) وصححه.

فإن اقتضته عادة أو عرف وخشي من عدم القيام أن يُظَنَّ في ذلك إهانةٌ أو تحقيرٌ أو ازدراءٌ، فلا بأس به، لأن ذلك أصلح لذات البين، وإزالة التباغض والشحناء[(٢)].

---

(١) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/٥٩-٦٠-٦١) ط. دار الكتب العلمية، شرح حديث رقم (٦٢٦٢).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (١/٣٧٦).

خاتمة

في الأدب مع الله تعالى

في القول والعمل

الأدب مع الله تعالى في القول والعمل

١- حُسنُ الظنِّ بالله تعالىٰ، وذلك من توقير العبدِ لربِّهِ جلَّ وعلا وصدق يقينه بما دَلَّت عليه أسماؤه وأفعاله ونعوتُ جلاله، فمن قَامَ بقلبه حقائقُ معاني أسماءِ الله وصفاته وتأمَّلها في كتابه وسنة رسوله ﷺ، من نصره لأوليائه، ورحمته بعباده، وعفوه ورزقه وإنعامه ولطفه قَامَ به من حسن الظن ما تَقَرُّ به عينهُ، وينشرح به صدره، وحسن الظن بالله تعالىٰ من أَجَلِّ أعمال القلوب التي تزيد من طمأنينة العبد بربه، وأن الله ناصره ومؤيده وميسرٌ له خيري الدنيا والآخرة، ومعينه في شأنه كله.

وذلك من أسرار إجابة الدعاء، ووضع القبول في الأرض، وتثبيت الله للعبد، ففي الصحيحين عن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**يَقُولُ اللَّهُ** عز وجل: **أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذكُرُنِي**».

وروىٰ مسلم عَن جَابِرِ بنِ عبد اللهِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَبلَ مَوتِهِ بِثَلاثَةِ أَيَّامٍ يَقُولُ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلاَّ وَهُوَ يُحسِنُ الظَّنَّ بِالله** عز وجل».

وكلما اشتدَّ بالمؤمن البلاء تعلق بربه وحَسُنَ ظنه به، وأن الله جاعلٌ له من كل همٍّ فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا، روىٰ ابن ماجه

(١٨١) عَن أَبِي رَزِينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ضَحِكَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُربِ غِيَرِهِ**». قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَ يَضحَكُ الرَّبُّ؟ قَالَ: «**نَعَم**»، قُلتُ: لَن نَعدَمَ مِن رَبٍّ يَضحَكُ خَيرًا . وفي رواية للحاكم (٨٦٨٣) زاد: «يُشرِفُ عَلَيكُم أَزِلِينَ مُشفِقِينَ، فَيَظَلُّ يَضحَكُ، قَد عَلِمَ أَنَّ غَوثَكُم قَرِيبٌ». والحديث في إسناده مقال، وله شواهد، وقد حسنه ابن تيمية[١].

ونصر الله تعالىٰ لرسله وأوليائه يكون في الدنيا، ويكون في الآخرة، قال جل شأنه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَـٰدُ﴾.

٢- الرضا بقضاء الله وقدره وحكمه الكوني والشرعي:

فمن الرضا بقضاء الله الشرعي ما رواه مسلم في صحيحه عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًا**».

ودلَّ علىٰ الثاني قوله ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَومًا ابتَلَاهُم، فَمَن رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ**». رواه الترمذي (٢٣٩٦) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه اهـ وروىٰ مسلم عَن صُهَيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمرِ المُؤمِنِ إِنَّ أَمرَهُ كُلَّهُ خَيرٌ، وَلَيسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلمُؤمِنِ، إِن أَصَابَتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ، وَإِن أَصَابَتهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٣٩).

فَكَانَ خَيرًا لَهُ». وفي مسند أحمد (٥/ ٢٤) عن أنس ﷺ مرفوعا: «**عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له شيئا، إلا كان خيرًا له**».

والرضا: هو القبول بما قَدَّرَ الله مع الطمأنينة والسكينة، بحيث لا يعترض علىٰ حكم الله ولا يسخط. ولايعارض الرضا أن يكون كارها لما أصابه متألما لمصابه.

وفي قصة موسىٰ مع الخضر عليهما السلام ما يدل علىٰ أن تقدير الله للعبد وتدبيره واختيارَه له خير له من اختياره لنفسه، وأنه وإن ظهر له من ذلك شر وضرر وبلاء إلا أن فيه من النعماء ودرء المفاسد العظام ما يستدعي الرضا وحسن الظن بربه، فلو كُشِفَ للعبد القَدَرُ ما اختَارَ إلا ما اختَارَهُ الله له.

قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وما لي سرور إلا في مواقع القضاء والقدر اهـ[1]. قال ابن القيم: وقد أجمع العلماء علىٰ أنه -الرضا- مستحب مؤكد استحبابه، واختلفوا في وجوبه علىٰ قولين، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يذهب إلىٰ القول باستحبابه، قال: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر اهـ ونقل عن غيره: الرضا من جملة المقامات، وهو نهاية التوكل، قال: وقيل للحسين بن علي رضي الله عنهما؛ إن أبا ذر رضي الله عنه يقول: الفقر أحب إلي من الغنىٰ، والسقم أحب إلي من الصحة، فقال: رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل علىٰ حسن اختيار الله له، لم يتمنَّ غير ما اختار الله له. وذكر ابن القيم أنه رأىٰ ابن تيمية في المنام فذكر له شيئا من أعمال القلب،

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٤٨٧) حديث (١٩).

فقال: أما أنا فطريقتي الفرح بالله، والسرور به. قال: وهكذا كانت حاله في الحياة، يبدو ذلك علىٰ ظاهره[1].

وروىٰ الترمذي **(٢٣٩٦)** من حديث أنس ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**إن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**». وقال ابن مسعود: إن الله بقسطه وعدله جعل الرَّوحَ والفرحَ في اليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحزن في الشك والسخط. خرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» **(٣٢)**.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾.

٣- النهي عن قول (لو): فعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**المُؤمِنُ القَوِيُّ خيرٌ وَأَحبُّ إِلَىٰ اللَّهِ مِنَ المُؤمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيرٌ، احرِص عَلَىٰ مَا يَنفَعُكَ وَاستَعِن بِاللَّهِ وَلا تَعجَز، وَإِن أَصَابَكَ شَيءٌ فَلا تَقُل: لَو أَنِّي فَعَلتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِن قُل: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَو تَفتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ**». رواه مسلم.

و(لو) لها حالات:

- إن كانت للاعتراض علىٰ حكم الله الكوني أو الشرعي فهو محرم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

- وإن استعملت في الندم فقيل: محرم، وقيل: مكروه، وذهب

(١) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ١٧٩-١٨٠-١٨١).

القاضي عياض[1] إلىٰ أنه نهي تنزيه، أي مكروه، وصَرَفَ النهيَ عن التحريم قولُهُ في الحديث: «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**».

- إذا كان خبرا في المستقبل فهو جائز، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عنه ﷺ قال: «**لولا حدثان عهد قومك بكفر لأتممت البيت علىٰ قواعد ابراهيم**». وفيهما: قوله: «**لواستقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي**». وفيهما: قوله: «**لو كنت راجمًا بغير بينة لرجمت هذه**».

- ويجوز أيضًا لو كان ندمًا علىٰ مافات من طاعة أو وقوع في معصية، وفي معناه ما قاله كعب بن مالك رضي الله عنه لما تخلف عن غزوة تبوك قال: فهممت أن أرتحل فأدركهم، فياليتني فعلت. وحديثه في الصحيحين.

- وإن استعملت في التمني فهو جائز، ويكون حكمه بحسب مايتمناه، كما في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّمَا الدُّنيَا لِأَربَعَةِ نَفَرٍ: عَبدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، قَالَ: فَهَذَا بِأَفضَلِ المَنَازِلِ، قَالَ: وَعَبدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلمًا وَلَم يَرزُقهُ مَالًا، قَالَ: فَهُوَ يَقُولُ: لَو كَانَ لِي مَالٌ عَمِلتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ. قَالَ: فَأَجرُهُمَا سَوَاءٌ، قَالَ: وَعَبدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَم يَرزُقهُ عِلمًا فَهُوَ يَخبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيرِ عِلمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ فَهَذَا بِأَخبَثِ المَنَازِلِ، قَالَ: وَعَبدٌ لَم يَرزُقهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَو كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلتُ بِعَمَلِ**

---

(١) ينظر: «إكمال المعلم» للأُبي (٩/٤٣) ط. دار الكتب العلمية.

فُلَانٍ. قَالَ: هِيَ نِيَّتُهُ فَوِزرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ». رواه أحمد (٤/ ٢٣٠)، والحديث له علَّة.

٤- نسبة النعم إلىٰ المنعم وهو الله تعالىٰ، وهذا من شكر الله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾، وأما أهل الكفر فقال عنهم: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

ولذا كُرِهَ أن يقول: هذا بعملي وبقدرتي، أو أوتيته علىٰ علمٍ عندي، أو نحو ذلك مما ينسب فيه الفضل إلىٰ نفسه، ويحرم إذا كان ذلك علىٰ وجه الاغترار بقوته والركون إلىٰ ذاته وأسبابه، ولا ينسبها إلىٰ الله ولا أنها بتوفيق من الله، قال تعالىٰ علىٰ وجه الذَّمِّ لقارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

أما إن كان علىٰ وجه الإخبار بأنه قد حصلت له هذه النعمة، فهذا جائز، وأولىٰ وأفضل من ذلك التحديث بها ونسبة الفضل فيها إلىٰ الله أولًا.

٥- من حُلِفَ له بالله فليرض، لقوله ﷺ: «**ومن حُلِفَ له بالله فليَرضَ، ومن لم يرض فليس منا**». رواه ابن ماجه (٢١٠١)، وحسنه ابن حجر في الفتح[١]، وصححه البوصيري[٢]. وذلك تأدبًا مع الله وتعظيمًا له، هذا إذا كان الحالف معروفًا بالصدق أو ظاهره العدالة، بخلاف من عرف منه الفجور والكذب أو أن الناس لا يطمئنون إليه.

---

(١) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٦٥٦).

(٢) «مصباح الزجاجة» للبوصيري (٢/ ١٤٣) ط. دار الكتب الإسلامية.

٦- احترام أسماء الله تعالىٰ، وترك التَّسَمِّي بها:

علىٰ وجه الاتصاف بمعناها، فقد غَيَّرَ النبيُّ ﷺ أبا الحكم إلىٰ أبي شريح وقال: «**إن الله هو الحَكَمُ وإليه الحُكْمُ**». رواه أبو داود (٤٩٥٥) والنسائي (٥٣٧٨).

فإذا كان الاسم من أسماء الله مما يختص الله به، كالرحمن ورب العالمين لم تجز التسمية به مطلقًا.

وأما إن كان لا يختص به فيجوز أن يسمىٰ به، بشرط: أن لايكون هذا الاسم سُمِّي به هذا الشخص لأجل الصفة التي اشتمل عليها، وإنما يقصد العَلَمِيَّة المجردة، فـ (الحَكَمُ) في الحديث سُمِّي به، لأنه يحكم بين الناس، فلما نُظِر إلىٰ معنىٰ الصفة في التسمية غيَّره النبي ﷺ.

ومن احترام أسماء الله تعالىٰ: النهي عن التسمي بـ (ملك الأملاك):

لما جاء عن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه؛ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**أَغيَظُ رجلٍ علىٰ الله يوم القيامةٍ، وأخبَثُهُ وأغيظُهُ عليه رجلٌ كان يُسمَّىٰ ملك الأملاك، لا مَلِكَ إلا الله**». رواه مسلم وأصله متفق عليه، وزاد في رواية: وقَالَ أَحمَدُ بنُ حَنبَلٍ: سَأَلتُ أَبَا عَمرٍو عَن أَخنَعَ، فَقَالَ: أَوضَعَ.

وعلة النهي: هو الإطلاق، وهذا لايكون إلا لله المتفرد، فيلحق به ما كان في معناه؛ كسلطان السلاطين وأحكم الحاكمين، ونحوه، ولذا قال بعض أهل العلم بالنهي عن قاضي القضاة أو أقضىٰ القضاة،

أوحكم الحكام، ومنهم من ذهب إلىٰ جوازه مقيدًا بزمان أو مكان مثل: قاضي قضاة بلده، أو زمانه أو قطره[(١)]. وجوز بعض أهل العلم تلقيب غير الرسول ﷺ بلقب الإمام الأعظم والمفتي الأعظم[(٢)].

٥- النهي عن التصوير، لما فيه من مضاهاة خلق الله، ففي الصحيحين عن عَائِشَةَ ﵂ تَقُولُ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَد سَتَرتُ سَهوَةً لِي بِقِرَام فِيهِ تَمَاثِيلُ، فَلَمَّا رَآهُ هَتَكَهُ، وَتَلَوَّنَ وَجهُهُ، وَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ؛ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِندَ اللَّهِ يَومَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلقِ اللَّهِ**». قَالَت عَائِشَةُ: فَقَطَعنَاهُ، فَجَعَلنَا مِنهُ وِسَادَةً أَو وِسَادَتَينِ.

والتصوير هنا المقصود به التشكيل والتخطيط، فيحرم تصوير ما فيه الروح كالإنسان والحيوان، وأما مالا روح فيه كالأشجار والأنهار، فذلك جائز.

٦- من سأل بالله فينبغي أن يجاب وأن يُعطىٰ؛ لما روىٰ أبو داود (٥١٠٨) والنسائي (٢٥٦٧) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن استَعَاذَكم بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، ومَن سَأَلَ بِاللِه فَأعطُوهُ ومَن دَعَاكُم فَأجِيبُوهُ . . .**». الحديث وسنده صحيح قاله الشيخ سليمان بن عبد الله[(٣)]، وقال: فهذه الأحاديث دالة علىٰ إجابة من سُئل بالله

---

(١) ينظر: «فتح الباري» (١٠/ ٧٢١) و«القول المفيد لابن عثيمين» (٣/ ٤-٥).

(٢) ينظر: «مجموع فتاوىٰ ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ١٧٤) ط. الحكومة بمكة.

(٣) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (٦٦٩) وقال: رواه أيضًا أحمد بإسنادٍ صحيح، قال: وصححه النووي اهـ.

أو أقسم به ولكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنما تجب علىٰ معين، فلا تجب علىٰ سائل يقسم علىٰ الناس. قال: وظاهر كلام الفقهاء أن ذلك مستحب كإبرار القسم، والأول أصحُّ اهـ[1]. والأمر بإجابة السائل بالله؛ لأنه سأل بعظيم فإجابته من الأدب مع الله وتعظيمه.

لكن لا يجاب إذا سأل ما لا حق له في السؤال عنه، أو سأل إثمًا، أو سأل ما فيه ضرر، أو أكثر من السؤال بالله، فهذا لم يصن اسم الله ﷻ.

وما رواه أبو داود عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**لا يُسأَلُ بِوَجهِ اللهِ إلا الجَنَّةّ**». -روي بالنهي والنفي وبالبناء للمجهول- فهو حديث ضعيف. وروىٰ النسائي (٢٥٦٨) ما يدل علىٰ الجواز، فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وفيه: وإني أسألك بوجه الله ﷻ: بما بعثك ربنا إلينا؟ قال: «**بالإسلام**».

٧- **النهي عن التألي علىٰ الله تعالىٰ**؛ كأن يقول: والله لا يغفر الله لفلان. لما روىٰ مسلم عَن جُندَبِ بنِ عبد اللهِ ﵁؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَ: «**أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لا يَغفِرُ اللَّهُ لِفُلانٍ. وَإِنَّ اللَّهَ تعالىٰ قَالَ: مَن ذَا الَّذِي يَتَأَلَّىٰ عَلَيَّ أَن لا أَغفِرَ لِفُلانٍ، فَإِنِّي قَد غَفَرتُ لِفُلانٍ وَأَحبَطتُ عَمَلَكَ**». أَو كَمَا قَالَ. التألي: الحلف، والمقصود بالنهي عن التألي: من يقنط العباد من رحمة الله، ويحلف علىٰ ذلك.

٨- **الوفاء بذمة الله وذمة رسوله**، وألا يُنزِل أهل الكفر علىٰ حكم الله وحكم رسوله، وإنما علىٰ حكمه هو، ففي حديث

---

(١) «تيسير العزيز الحميد» (٦٦٨-٦٦٩).

بريدة رضي الله عنه عند مسلم عن النبي ﷺ؛ وفيه: «**وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ فَأَرَادُوكَ أَن تَجعَلَ لَهُم ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلا تَجعَل لَهُم ذِمَّةَ اللَّهِ وَلا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجعَل لَهُم ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصحَابِكَ، فَإِنَّكُم أَن تُخفِرُوا ذِمَمَكُم وَذِمَمَ أَصحَابِكُم أَهوَنُ مِن أَن تُخفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرتَ أَهلَ حِصنٍ فَأَرَادُوكَ أَن تُنزِلَهُم عَلَىٰ حُكمِ اللَّهِ فَلا تُنزِلهُم عَلَىٰ حُكمِ اللَّهِ، وَلَكِن أَنزِلهُم عَلَىٰ حُكمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدرِي أَتُصِيبُ حُكمَ اللَّهِ فِيهِم أَم لا**».

٩- **الأمر بحفظ اليمين،** لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾، فكثرة الحلف تجعل الحالف والمحلوف له لا يبالي باسم الله الذي يحلف به تعظيما وتأكيدًا للمحلوف عليه.

١٠- **النهي عن قول: أطعم ربك، وضئ ربك،** وليقل: سيدي، مولاي، والنهي عن قول: عبدي، وأمتي، وليقل: فتاتي، وغلامي، والنهي عنه ثابت في الصحيحين، لتعلق ذلك بمعنىٰ وصفةٍ لها علاقة بالربوبية، وذلك لايليق، تأدبًا مع الله تعالىٰ، ثم إن فيه إذلالًا للمخلوق. وأجاز بعض أهل العلم صيغًا أخرىٰ هي أضعف في المعنىٰ مما سبق، كأن يضيفه لغيره فيقول: أعط عبده، أو ربه، ونحو ذلك.

١١- **النهي عن أن يستشفع بالله علىٰ أحد من خلقه،** فيحرم ذلك، لأن المشفوع إليه أعلىٰ درجة من الشافع، ففيه تنقص لله تعالىٰ وذلك محرم. وورد في النهي عنه حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه، رواه أبوداود (٤٧٢٦) وفيه ضعف، إلا أن معناه صحيح.

١٢- النهي عن سبِّ الريح: لما رواه أُبَيُّ بنُ كعبٍ ﵁؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**لاتَسُبُّوا الرِّيحَ ...**» الحديث رواه الترمذي (٢٢٥٢) وصححه.

١٣- النهي عن سب الدهر: سب الدهر محرم، عَن أَبِي هُرَيرَةَ ﵁؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللَّهُ ﷻ: يُؤذِينِي ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وَأَنَا الدَّهرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ وَالنَّهَارَ**». متفق عليه.

الدهر لا يُنسب إليه فعل، فهو لايصرِّف نفسه بل هو مُصَرَّفٌ مُدَبَّرٌ من لدن حكيم خبير، وكذا سبُّ الريح، وسب الدهر والريح كما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل.

وأما وصف الدهر والريح فهو جائز مثل: هذا يوم عصيب أو شديد أو حارٌّ، أو ريح شديدة أو عاصف قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾.

ولا يصح إطلاق الدهر علىٰ أنه اسم من أسماء الله تعالىٰ، وقوله: «أنا الدهر»، له تأويل ظاهر تفهمه العرب من كلامها، فالمتكلم قد ينسب الشيء إليه ولا يريد تسميته به، ولأن الدهر ليس من المعاني الحسنة وصفات الله وأسماؤه كلها حسنىٰ تدل علىٰ معاني في غاية الكمال، ولأنه في الحديث فسَّرَه بقوله: «أقلِّب الليل والنهار»، فهو مخلوق وصفات الله وأسماؤه ليست مخلوقة.

١٤- لا يجوز أن يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، وهو يريد بالمشيئة الاستثناء والتردد في السؤال والعطاء، لأنه كما ورد في الحديث: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**». رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وفي رواية: «**لا مكرِه له**». متفق عليه، وأما ما جاء في

الحديث: «**طهور إن شاء الله**». رواه البخاري، فهو محمول علىٰ الخبر والرجاء لا علىٰ الدعاء، وحمله بعض أهل العلم علىٰ التبرك لا علىٰ تعليق المشيئة.

تم الكتاب بحمد الله تعالىٰ

والله تعالىٰ أعلم وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد